مكتبة نوبل

١٩٤٩

ويليام فوكنر

الملاذ

ترجمة: توفيق الأسدي

ويليام فوكنر

الملاذ

ترجمة : توفيق الأسدي

الملاذ

Author: **William Faulkner** | اسم المؤلف: ويليام فوكنر

Title: **SANCTUARY** | عنوان الكتاب: الملاذ

Translator: **Tawfik Alasadi** | ترجمة: توفيق الأسدي

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy** | تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2017** | الطبعة الأولى: 2017 https://t.me/kotokhatab

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الفصل الأول

راح «بوباي» يراقب الرجل وهو يشرب، وذلك مما وراء ستار الشجيرات التي كانت تحيط بالنبع. كان ممر ضيق ورواه يؤدي من الطريق إلى النبع. راقب بوباي الرجل، فوجده طويل القامة نحيلها، حاسر الرأس، يرتدي سروالاً مهترئاً رمادي اللون من قماش صوفي ناعم، ويحمل على ذراعه سترة من التويد... راقبه وهو يخرج من الممر ثم يركع ليشرب من النبع.

كان النبع ينبثق من جذر شجرة زان ويتدفق ماؤه مبتعداً فوق رمل حلزوني الشكل ومتموّج، محاطاً بنباتات كثيفة من القصب والعوسج، ومن أشجار السرو والصمغ. كانت الأشعة المكسّرة للشمس تكمن فيها دون أن يعرف مصدرها. في مكان ما، كان طائر يشدو ثلاث نغمات ثم يتوقف عن ذلك، مختبئاً وسرياً، إنما هو ليس بالبعيد.

قرّب الرجل الذي يشرب وجهه من النبع ورأى فيه الانعكاس المتعدد والمتكسّر لوجهه هذا وهو يشرب. وحين نهض، شاهد بين النباتات الانعكاس المتناثر لقبعة بوباي، على الرغم من أنه لم يسمع أي صوت.

شاهد رجلاً قبالته عبر النبع، ذا حجم صغير وقد دسّ يديه في جيبي سترته، بينما انحدرت لفافة تبغ نحو ذقنه. كانت بذلته سوداء ولها سترة ضيقة ذات خصر عال. أما سرواله فكان قد طوي من الأسفل وتلوث

بالطين فوق حذائه المطلي بالطين الجاف. اتسم وجهه بلون عجيب شاحب مصفرّ، كأنك تراه تحت نور كهربائي. كان له تلك الصفة الشريرة التي لا عمق لها والتي تكون للوعاء القصدير المختوم وذلك في مواجهة ذلك الصمت المشمس، وقد أمال قبعته ووضع ذراعيه حول خاصرتيه.

راح الطير يشدو مجدداً من خلفه، ثلاثة فواصل موسيقية بتكرار رتيب: صوت يخلو من المغزى وعميق يخرج من صمت متنهد وهادئ بدا وكأنه يعزل تلك البقعة من الأرض، التي خرج منها بعد لحظة صوت سيارة كانت تسير على الطريق ثم تلاشى الصوت.

ركع الرجل الشارب قرب النبع. قال: «لديك مسدس في ذلك الجيب، هل افتراضي صحيح؟».

بدا بوباي عبر النبع وهو يتأمله بأُكرتين من المطاط الأسود الطري. قال بوباي: «أنا أسألك. ما الذي في جيبك؟».

كانت سترة الرجل الآخر ما تزال على ذارعه. رفع يده الأخرى نحو السترة، وكان يبرز من أحد الجيبين قبعة مكسرة من اللبّاد. ومن الجيب الآخر برز كتاب. قال: «أي جيب؟».

قال بوباي: «لا تُريني. قل لي».

أوقف الرجل الآخر يده. «إنه كتاب».

«أي كتاب؟».

«مجرد كتاب. ذلك النوع الذي يقرأه الناس. فبعضهم يقرؤون».

قال بوباي: «أتقرأ الكتب؟».

كانت يد الرجل الآخر قد تجمدت فوق السترة. عبر النبع راحا يتبادلان النظرات. كانت اللفافة تنفث دخانها الخفيف بشكل دوائر ملتفة فوق وجه بوباي، وجانب واحد من وجهه تغمز فيه العين وتنظر شزراً ويبدو كقناع نُحت بتعبيرين متزامنين.

أخرج بوباي من جيب سرواله الخلفي منديلاً متسخاً ومدّه على عقبيه. ثم جلس القرفصاء في مواجهة الرجل الذي عبر النبع. حدث ذلك حوالي الساعة الرابعة من بعد ظهر أحد أيام شهر أيار (مايو). وهكذا، جلسا القرفصاء كلاهما، الواحد في مواجهة الآخر عبر النبع، ولساعتين. بين الحين والآخر كان طائر يشدو في المستنقع الذي إلى الخلف، وكأنما كان يعمل وفق ساعة. مرت سيارتان أخريان غير مرئيتين على الطريق العامة ثم تلاشى ضجيجهما تدريجياً. ومن جديد راح الطير يشدو.

قال الرجل الذي يجلس عبر النبع: «بالطبع أنت لا تعرف اسمه. لا أفترض أنك ستعرف اسم أي طائر على الإطلاق، إلا إذا كان يغنّي في قفص في بهو أحد الفنادق، أو يكلّف أربعة دولارات على طبق». لم يقل بوباي أي شيء. جلس القرفصاء ببذلته السوداء الضيقة وجيب سترته الأيمن يتدلى باكتناز على خاصرته، وراح يفتل ويقرص لفافات التبغ بيديه الصغيرتين الأشبه بيدي دمية، ويبصق في النبع. كان لبشرته شحوب ميت وداكن. أما أنفه فكان معقوفاً بعض الشيء، ولم تكن له ذقن إطلاقاً. كان وجهه ملوياً أشبه بوجه دمية من الشمع تركت إلى القرب من نار حامية ونسيت هناك. عبر صدارته، كانت سلسلة من البلاتين أشبه ببيت عنكبوت. قال الرجل الآخر: «اسمعني. اسمي هوريس بنبو. أنا محام في كينستون. كنت أسكن عادة في جفرسون التي هناك، وأنا ذاهب إليها الآن. يمكن لأي شخص في هذا البلد أن يقول

لك إني مأمون الجانب. إن كان الأمر متعلقاً بالويسكي، فأنا لا يهمني مقدار ما تصنعونه أو تبيعونه أو تشترونه جميعكم. لقد توقفت هنا من أجل جرعة ماء فحسب، وكل ما أريد فعله هو الذهاب إلى البلدة، إلى جفرسون».

كانت عينا بوباي تبدوان كأكرتين من المطاط، كأنهما ستنضغطان عند اللمس ثم تعودان كما كانتا مع العلامة الحلزونية التي يتركها الإبهام عليهما.

قال بنبو: «أريد الوصول إلى جفرسون قبل حلول الظلام. لا يمكنك استبقائي هنا على هذا النحو».

أبقى بوباي عينيه مثبتتين على بنبو، كالمطاط. «هل تريد العدو؟».

قال بنبو: «كلا».

أزاح بوباي عينيه. «لا تفعل إذاً».

سمع بنبو الطير يشدو مرة أخرى؛ وحاول تذكر الاسم المحلي الذي يطلق عليه. على الطريق العامة غير المرئية، مرت سيارة أخرى، ثم تلاشى ضجيجها. كانت الشمس قد غربت تقريباً بينهما وبين صوت السيارة. أخرج بوباي من جيب سرواله ساعة من النوع الذي يباع بدولار واحد، نظر إليها ثم أعادها إلى جيبه وكأنها قطعة نقد معدنية لا أكثر.

من حيث كان يلتقي الممر القادم من النبع بالطريق الجانبية، كانت هناك شجرة قطعت مؤخراً فباتت تسدّ الطريق. عبرا من فوق الشجرة وتابعا السير، وقد أصبحت الطريق العامة خلفهما الآن. في الرمل كان هناك أثران ضحلان متوازيان، ولكن دون أثر لحافر. من حيث كان ذلك الفرع من النبع يتسلل عبره، رأى بنبو آثار عجلات سيارة. سار

بوباي أمامه ببذلته الضيقة وقبعته الصلبة من كل الزوايا، فبدا كأنه عمود إنارة صُمّم وفق أسلوب الفن الحديث.

لم يعد أمامه رمل الآن. برزت الطريق منحنية خارجة من الدغل. كان الظلام قد خيّم تقريباً. نظر بوباي لبرهة قصيرة إلى الوراء دون أن يلتفت بجسمه. قال: «اصعد يا جاك».

قال بنبو: «لِمَ لَمْ نقطع الدرب مباشرة ونصعد التلة؟».

قال بوباي: «عبر كل تلك الأشجار؟» حرك قبعته بومضة كامدة شريرة في الغسق وهو ينظر إلى التل حيث كان الدغل قد سبق له وراح يبدو كبحيرة من مداد. «يا ليسوع المسيح!».

كان الظلام مخيماً تقريباً، وكانت مشية بوباي تتباطأ. راح يمشي إلى جانب بنبو، وكان هذا قادراً على مشاهدة حركة القبعة من جانب إلى آخر وبوباي ينظر من حوله بنوع من الحرج المترع بالشر. كانت القبعة قد وصلت إلى ذقن بنبو للتو.

ثم تشكَّلٍ شيء، ظلّ ما، بسرعة، وانحنى نحوهما ثم مرّ إلى القرب منهما، تاركاً اندفاعة من الهواء على وجهيهما، على الريش الصامت لجناحين مشدودين، وأحس بنبو بأن جسد بوباي كله قد انتفض باتجاهه وبيده تقبض على سترته. قال بنبو: «إنها مجرد بومة. لا شيء سوى بومة». ثم قال: «يسمون طائر النمنمة الكارولاينية ذاك باسم طائر صيد السمك. هذا كل ما في الأمر. هذا ما لم أستطع تذكره عندما كنت هناك»؛ بينما كان بوباي ينحني نحوه وينبش في جيبه ويهسهس عبر أسنانه كهرّ. فكّر بنبو: «رائحته سوداء. رائحته كما المادة السوداء التي خرجت من فم «بوفاري»[1]، وسالت على خمارها الزفافي حين رفعوا رأسها.

---

١ - مدام بوفاري بطلة رواية غوستاف فلوبير الشهيرة.

بعد لحظة، وفوق كتلة سوداء مسنّنة من الأشجار، رفع المنزل كتلته المربعة والصارمة أمام السماء المتلاشية.

***

كان المنزل خراباً أفرغت محتوياته ويبرز كئيباً وصارماً من أيكة من شجر الأرز غير المقلّم. كان مَعْلماً يعرف بـ «دار الفرنسي العجوز»، شُيّد قبل «الحرب الأهلية»[٢]. كان دارة مزرعة كبيرة بنيت في منتصف قطعة أرض تحوي حقول قطن وحدائق ومروجاً عادت منذ زمن بعيد إلى أصولها كدغل راح سكان الجوار يحتطبون أشجارها شيئاً فشيئاً منذ خمسين سنة أو يحفرون أرضها بتفاؤل سري وعشوائي بحثاً عن الذهب الذي اشتهر من بنى الدارة في الأصل بأنه قد دفنه في مكان ما، وذلك حين عبر «غرانت»[٣] المقاطعة خلال حملة فيكسبرغ.

كان ثلاثة رجال جالسين على كراسٍ في إحدى نهايتي الرواق. في أعماق البهو المفتوح ظهر نور خافت. كان البهو يمتدّ إلى آخر المنزل. صعد بوباي الدرجات ونظر إلى الرجال الثلاثة كما إلى رفيقه. قال دون أن يتوقف: «هاهو البروفسور». دخل إلى بهو المنزل. تابع السير وعبر الرواق الخلفي ثم استدار وولج الغرفة التي كان الضوء يأتي منها. كان المطبخ هناك، وفيه امرأة تقف عند الموقد. كانت ترتدي ثوباً قطنياً باهت الألوان، ومن حول عقبيها حذاء ثقيل غليظ رجالي ومهترئ مفكوك الرباط ويصدر صوتاً حين تتحرك. التفتت إلى بوباي ثم عادت لتنظر إلى الموقد حيث كانت مقلاة اللحم تصدر هسيساً.

٢- الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١- ١٩٦٥).

٣- الجنرال غرانت (١٨٢٢-١٨٨٥) القائد العام للجيش الأمريكي ثم الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة.

وقف بوباي عند الباب. كانت قبعته تنحدر فوق وجهه. أخرج لفافة تبغ من جيبه، دون أن يخرج العلبة، ثم ضغطها وبرمها بيده ووضعها في فمه وأشعل عود كبريت على ظفر إبهامه. قال: «هناك شخص من النوع الخاص في الخارج عند واجهة المنزل».

لم تلتفت المرأة إلى الخلف. كانت تقلّب اللحم. قالت: «لِمَ تخبرني بهذا؟ أنا لا أخدم زبائن (لي) Lee».[4]

قال بوباي: «هو بروفسور».

التفتت المـرأة وشوكة معدنية بيدها. وراء الموقد في الظلّ كان صندوق من الخشب. «من هو؟».

قال بوباي: « بروفسـور. يحمل كتاباً معه».

«ما الذي يفعله هنا؟».

«لا أعرف. لم أفكر في سؤاله. ربما جاء ليقرأ الكتاب».

«هل وصل إلى هذا المكان؟».

«وجدته عند النبع».

«هل كان يحاول أن يجد هذا المنزل؟».

قال بوباي: «لا أعرف. لم أفكر قط بسؤاله». كانت المرأة ما تزال تنظر إليه. قال بوباي: «سأرسله إلى جفرسون على الشاحنة. قال إنه يريد الذهاب إلى هناك».

قالت المرأة: «ولماذا تخبرني بكل هذا؟».

٤- سيظهر هذا الاسم (لي) بين قوسين تمييزاً له عن العبارة العربية «لي».

«أنت تطهين. سيكون هو في حاجة إلى أن يأكل».

قالت المرأة: «أجل». عادت لتلتفت إلى الموقد. «أجل، أنا أطهو للخاطفين والكسالى الطفيليين وضعفاء العقول. أجل، أنا أطهو».

راح بوباي يراقبها من عند الباب واللفافة يتموج دخانها عبر وجهه. كانت يداه في جيبيه. «تستطيعين أن تتركي هذا المكان. سأعيدك إلى ممفيس يوم الأحد. تستطيعين العودة إلى العمل كمومس مرة أخرى». راح ينظر إلى ظهرها. «أنت تميلين إلى البدانة هنا. تتسكعين هنا في الريف. لن أخبر الجماعة هناك في شارع مانويل».

التفتت المرأة إليه والشوكة في يدها. قالت: «أنت يا ابن الحرام».

قال بوباي: «أكيد. لن أبلغهم أن روبي لامار في الريف تلبس زوجاً قديماً من الأحذية رماه (لي) غودوين في القمامة، وتكسر الحطب بيديها. كلا. سأقول إن (لي) غودوين رجل موسر من الكبار».

قالت المرأة: « أنت يا ابن الحرام. أنت يا ابن الحرام».

قال بوباي: «أكيد». ثم التفت برأسه. كان هناك صوت جرجرة أقدام في الرواق، ثم دخل رجل. كان ذا حدبة ويرتدي أوفرولاً. كما كان حافي القدمين، والصوت الذي سمعاه هو صوت قدميه الحافيتين. كان له شعر أشبه بالقش سفعته الشمس، ملبّد وقذر؛ وعينان فاتحتا اللون وغاضبتان. كما كانت له لحية قصيرة ناعمة بلون الذهب الوسخ.

«سأكون جديراً بالازدراء وحقيراً إن لم يكن هو قيد التحقيق الآن».

قالت المرأة: «ما الذي تريده؟» لم يجب الرجل الذي يرتدي الأوفرول. وخلال مروره نظر إلى بوباي نظرة خفية وحذرة في آن معاً،

وكأنه كان جاهزاً للضحك على نكتة، منتظراً الأوان الملائم للضحك. عبَر المطبخ بتثاقل وبمشية كمشية دبّ، وأزاح بذلك الحذر والسرية المرحتين، إنما تحت أنظارهما، لوحاً خشبياً من الأرضية وأخرج دورقاً يتسع لغالون[٥]. راح بوباي يراقبه، وسبابتاه في صدارته، ودخان اللفافة (كان قد أنهى تدخينها دون أن يلمسها ولو مرة واحدة بيده) يتموج فوق وجهه. كان تعبيره وحشياً، وربما كان منهكاً ومتأمّلاً، يراقب الرجل المرتدي للأوفرول وهو يعود فيعبر أرضية المطبخ بنوع من التحدي الحذر، والدورق مخبأ دون إتقان تحت خاصرته. كان يراقب بوباي بتعبير يقظ ومستعد للمرح، حتى غادر الغرفة. ومن جديد سمعا قدميه الحافيتين تتجرجران على الرواق.

قال بوباي: «أكيد. لن أقول للجماعة في شارع مانويل إن روبي لامار تطبخ لشخص مغفّل وشخص ضعيف العقل أيضاً».

قالت المرأة: « أنت يا ابن الحرام. أنت يا ابن الحرام».

٥- الغالون يعادل ٤ ليترات تقريباً.

الفصل الثاني

حين دخلت المرأة إلى غرفة الطعام، وهي تحمل طبقاً من اللحم، كان قد سبق لبوباي والرجل الذي أخرج الدورق من المطبخ، والشخص الغريب أن جلسوا إلى مائدة مصنوعة من تسمير ثلاثة ألواح خشبية غير مصقولة على جحشي نجارة. وحين دخلت إلى حيث نور المصباح الذي كان فوق المائدة، بدا وجهها متجهماً وليس عجوزاً. كانت عيناها باردتين. وبينما راح بنبو يراقبها، لم يرها تنظر ولو مرة واحدة إليه وهي تضع الطبق على المائدة وتقف لبرهة بتلك النظرة الخفية التي تنظر بها النسوة بنية القيام بمسح شامل للمائدة. ثم ذهبت لتنحني فوق صندوق تعبئة مفتوح موجود في زاوية الغرفة، وأخرجت منه صحناً وسكيناً وشوكة أخرى وجلبتها إلى المائدة ووضعتها أمام بنبو بنوع من الجزم الحاسم إنما غير المتسرع، وكمّها يلامس كتفه.

وبينما كانت تفعل ذلك، دخل غودوين. كان يرتدي أوفرولاً مغطى بالوحل، وله وجه نحيل جار عليه الجوّ، وفكان تغطيهما لحية خفيفة سوداء. كان شعره أشيب عند الفودين، وراح يقود رجلاً عجوزاً بلحية بيضاء طويلة مبقعة من حول فمه. راقب بنبو غودوين وهو يُجلس الرجل العجوز في كرسي، فجلس هذا بطاعة بذلك التوق الحاد الذي للشخص الذي لم يعد لديه من متع الدنيا سوى واحدة، ولا يستطيع الوصول إلى العالم سوى من حاسة واحدة؛

إذ كان أعمى وأصم: رجل قصير أصلع بوجه مستدير ممتلئ ورديّ اللون بدت فيه عيناه المصابتان بإعتام عدسة العين ككتلتين من البلغم. راقبه بنبو وهو يخرج خرقة قذرة من جيبه ويبصق في الخرقة كتلة لا لون لها تقريباً مما كان ذات مرة تبغ المضغ، ثم طوى الخرقة ودسها في جيبه. سكبت له المرأة الطعام من الطبق إلى صحنه. كان الآخرون قد سبق لهم وشرعوا في الأكل بصمت وهدوء، ولكن الرجل العجوز جلس هناك، ورأسه محنية فوق صحنه، ولحيته تتحرك بوهن. راح يتلمس الصحن بيد حييّة مرتجفة ووجد قطعة صغيرة من اللحم فراح يمتصها حتى عادت المرأة ودقّت على براجمه. أعاد قطعة اللحم إلى الصحن، وراقبها بنبو وهي تقطع الطعام على الصحن: اللحم والخبز وكل شيء، ثم تسكب شراب الذرة الحلو فوقه. ثم توقف بنبو عن النظر. وحين انتهت وجبة الطعام، قاد غودوين الرجل العجوز إلى الخارج مرة أخرى. راقبهما بنبو كليهما وهما يخرجان من الباب وسمعهما يصعدان إلى البهو.

عاد الرجال إلى الرواق. نظفت المرأة المائدة وحملت الصحون إلى المطبخ. وضعتها على الطاولة ومضت نحو الصندوق الذي خلف الموقد ووقفت هناك لبعض الوقت. ثم عادت ووضعت عشاءها فوق صحن وجلست إلى الطاولة وأكلت ثم أشعلت لفافة من المصباح وغسلت الصحون ووضعتها في مكانها. ثم عادت إلى البهو. لم تخرج إلى الرواق. بل وقفت داخل الباب فحسب وهي تصغي إليهم يتحدثون، وتصغي إلى الشخص الغريب يتكلم وإلى صوت الدورق الكثيف والناعم وهم يتداولونه فيما بينهم. قالت المرأة: «ذلك الأحمق. ما الذي يريده...؟» أصغت إلى صوت الغريب، صوت سريع وأجنبي، صوت رجل معتاد على الكثير من الكلام وليس الكثير غيره. قالت المرأة وهي ما تزال عند الباب من الداخل: «ليس معتاداً على الشراب

على أي حال. الأجدر به الذهاب إلى حيث يريد، إلى حيث تستطيع النسوة من أهله الاعتناء به».

أصغت إليه: «من نافذتي استطعت أن أرى عرائش العنب، وفي الشتاء كنت قادراً على مشاهدة الأرجوحة الشبكية أيضاً. لهذا نعرف أن الطبيعة أنثى، أي بسبب ذلك التآمر بين اللحم الأنثوي والموسم الأنثوي. ولهذا فإنه في كل ربيع كنت قادراً على مراقبة إعادة توكيد الجيشان القديم وهو يخفي الأرجوحة الشبكية، الوعد بالقلق الواقع في الشرك الأخضر. أي الزهور التي للعنب، هذا هو الأمر. ليس بالشيء الكثير: نزف وحشي وشمعي في الورق أكثر منه في الزهور، فيخفي الأرجوحة الشبكية أكثر فأكثر، حتى نهايات شهر أيار (مايو)، في الغسق، سيكون صوت بِل الصغيرة[1] أشبه بهمهمة العنب البري نفسه. لن تقول أبداً: 'يا هوريس هذا لويس أو بول أو أياً ما كان اسمه'، ولكنها ستقول: «هذا هوريس فحسب». كما ترون فحسب؛ في ثوب أبيض صغير في الغسق، كلتاهما محتشمتان جداً ومنتبهتان ونافدتا الصبر قليلاً. وما كنت لأستطيع الشعور بأني دخيل تجاه لحمها بعد ذلك حتى لو كنت قد أنجبتها.

«لذا في هذا الصباح... كلا... حدث ذلك قبل أربعة أيام؛ كان يوم الخميس حين عادت إلى البيت من المدرسة ونحن الآن في يوم الثلاثاء... قلت: «حبيبتي، لو وجدته في القطار فربما يخص شركة السكك الحديد. لا يمكنك أخذه من شركة السكك الحديد؛ هذا ضد القانون، أشبه بالعوازل الكهربائية على الأعمدة»».

١- بِل الصغيرة هو اسم لابنة زوجته من زواج سابق لها، وتدعى بالصغيرة تمييزاً لها عن أمها التي لها الاسم نفسه.

«إنه جيد بقدر ما أنت عليه من الجودة. وهو يدرس في [جامعة تولاين]».

«قلت: ولكن على القطار يا حبيبتي».

«وجدتهم في أمكنة أسوأ من القطار».

«قلت: أعرف. وكذلك أنا. ولكنك لا تحضرينهم إلى البيت، كما تعرفين. بل أنت تخطين من فوقهم فحسب وتتابعين السير. فأنت لا تلوثين خفك المنزلي بالطين كما تعلمين».

«كنا في غرفة المعيشة آنئذ. كان الوقت قبل الغداء تماماً، وكنا نحن الاثنان في المنزل فحسب، إذ أن بِل كانت قد ذهبت إلى مركز المدينة.

«وما دخلك فيمن يأتي لزيارتي؟ أنت لست أبي. أنت مجرد... مجرد...».

«ما الذي قلتُه. (ماذا بالضبط). قولي لأمك إذاً! هيا قولي لها. هذا ما سوف تفعلينه. قولي لها!».

«قلت: ولكن على القطار يا حبيبتي. لو دخل غرفتك في فندق. كنت سأقتله. ولكن على القطار، أنا أشعر بالاشمئزاز. فلنرسله بعيداً ونبدأ من جديد».

«أنت ماهر في الحديث عن إيجاد أشياء على القطار! أنت ماهر! قريدس! قريدس!».

قالت المرأة وهي عند الباب ودون حراك: «إنه مجنون». تابع صوت الشخص الغريب الكلام بتقلّب سريع ومسهب.

«ثم راحت تقول: «كلا! كلا!» وأنا ممسك بها وهي تتشبث بي.

«لم أعن ذلك! يا هوريس! يا هوريس!» وكنت أنا أشمّ رائحة الزهور الذبيحة، الزهور والدموع الرقيقة الميتة، ثم رأيت وجهها في المرآة. كانت هناك مرآة خلفها وأخرى خلفي، وكانت هي تراقب نفسها في المرآة التي خلفي ناسية تلك التي أستطيع أن أرى فيها وجهها، أراها تراقب مؤخرة رأسي برياء صرف. لهذا فإن الطبيعة أنثى، والتقدم ذكر. الطبيعة هي التي صنعت عريشة العنب، ولكن التقدم هو من اخترع المرآة؟».

قالت المرأة وهي تصغي عند الباب: «إنه مجنون».

«ولكن لم يكن الأمر هكذا بالضبط. ظننت أن ما أزعجني هو الربيع ربما، أو ربما بلوغي سن الثالثة والأربعين. فكرت في أني سأكون في أحسن حال لو وجدت تلاً أستلقي عليه لفترة من الزمن... وكان ذلك الريف منبسطاً وخصباً وقذراً، حتى لكأنّ الرياح بالذات كانت تستحدث النقود منه. كأنك لن تندهش لو وجدتَ أنك قادر على أن تبحث في أوراق الشجر وفي الضفاف عن النقود. تلك الدلتا. خمسة آلاف ميل مربع دون أي تل باستثناء النتوءات من الأقذار التي كان الهنود يقفون فوقها حين يفيض النهر».

«لذلك فكرت في أني كنت أريد تلة فحسب. لم تكن بِل الصغيرة هي التي جعلتني أنطلق. هل تعرفون ما هو؟».

قالت المرأة وهي عند الباب «إنه مجنون حقا. إن على (لي) ألاّ يسمح..».

لم ينتظر بنبو أي جواب. «كانت تلك خرقة وعليها أحمر شفاه. كنت أعرف أني سأجدها حتى قبل أن أدخل إلى غرفة بِل. وكانت هناك، محشورة خلف المرآة، وكانت منديلاً مسحتْ به الطلاء الزائد وهي ترتدي ملابسها للخروج، وحشرتْها خلف المرآة. وضعتُه في حقيبة الملابس

وتناولتُ قبعتي وخرجت. أقلّتني شاحنة لمسافة من الطريق قبل أن أنتبه إلى أني لا أحمل أي نقود. وكان ذلك جزءاً من المسألة أيضاً، كما ترون. لم أكن قادراً على صرف شيك، ولم أستطع الخروج من الشاحنة والعودة إلى المدينة لجلب بعض النقود. ما كنت أستطيع فعل ذلك. لذا فأنا أمشي وأتسوّل. أركب السيارات مجانا منذ ذلك الحين. نمتُ في إحدى الليالي في كومة قش في منشرة، وقضيتُ ليلةً أخرى في كوخ زنجي، وثالثة في مقطورة شحن على تجنية. ولكن ما كنت أريده هو تل أنام عليه فحسب، كما ترون. عندها سأكون في أحسن حال. حين تتزوج من زوجتك، تبدأ من البداية... وربما تشعر بالحكة. وحين تتزوج من زوجة رجل آخر، ستبدأ متأخراً عشر سنوات على الأرجح، أي بعد بداية وحكة شخص آخر. كل ما أردتُ كان تلاً أستلقي عليه لفترة من الزمن».

قالت المرأة: «يا له من أحمق. يا له من أحمق مسكين»، وكانت تقف عند الباب. دخل بوباي عبر البهو من الخلف. مرّ بها دون أن يتلفظ بأي كلمة، وخرج إلى الرواق.

قال: «هيا بنا. فلنقم بحشوه». سمعت ثلاثتهم وهم يرحلون. وقفتْ هناك. ثم سمعت الغريب ينهض عن كرسيه باضطراب، ثم يعبر الرواق. ثم شاهدته في صورة ظلية باهتة وخلفه السماء، والعتمة الأقل. كان رجلاً نحيلاً بملابس عديمة الشكل وشعر خفيف ومهمل. كان ثملاً تماماً. قالت المرأة: «إنهم لا يغذونه جيداً».

كانت بلا حراك، تتكئ بخفة على الجدار، وهو يواجهها. قال: «أتحبين هذه الحياة التي تحيينها؟ لم تفعلين هذا؟ ما زلت شابة. يمكنك العودة إلى المدن وأن تحيي حياة أفضل دون أن ترفعي ما هو أكثر من جفن عين واحدة». لم تتحرك، بل بقيت متكئة بخفة على الجدار، وذراعاها مضمومتان على صدرها. قالت: «الأحمق المسكين الخائف».

قال: «كما ترين فأنا أفتقر إلى الشجاعة: لقد تخلّت عني. الآلات كلها موجودة ولكنها لا تعمل». تحسس خدها بيده. «ما زلت شابة». لم تتحرك، وهي تشعر بيده فوق وجهها، يتلمس لحمها وكأنه يحاول أن يعرف شكل عظامها وموقعها وتركيبها. «ما تزال حياتك كلها أمامك، عملياً. كم عمرك؟ لم تصلي سن الثلاثين بعد». لم يكن صوته عالياً، بل كان يهمس تقريباً.

حين تكلمت لم تخفض صوتها إطلاقاً. لم تتحرك، وبقيت ذراعاها مضمومتين على صدرها. قالت: «لم هجرت زوجتك؟».

قال: «لأنها تأكل القريدس. لم أستطع... كما ترين... كان ذلك يوم الجمعة، وفكرتُ كيف سأذهب عند الظهيرة إلى المحطة وأحضر صندوق القريدس من القطار وأسير به إلى البيت حاملاً إياه، وأنا أعدّ مائة خطوة ثم أنقله من يد إلى أخرى».

قالت المرأة: «وهل كنت تفعل ذلك كل يوم؟».

«كلا، يوم الجمعة فقط، ولكني كنت أفعل ذلك منذ عشر سنوات، أي منذ زواجنا. وما أزال أكره رائحة القريدس. لكني لا أنزعج كثيراً من حمله إلى البيت. كنت قادراً على تحمل ذلك. ولكن بسبب أن الصندوق كان ينقّط. طوال الطريق إلى البيت وهو ينقط وينقط، حتى كان يحدث بعد فترة من الزمن أن أراني ألحق بنفسي إلى المحطة وأقف جانباً وأراقب هوريس بنبو يستلم ذلك الصندوق من القطار ويبدأ بالانطلاق نحو البيت وهو يحمله، وينقله من يد إلى أخرى كل مائة خطوة، وأنا أتبعه مفكراً: «هنا يرقد هوريس بنبو في سلسلة متلاشية من النقاط الصغيرة كريهة الرائحة على رصيف شارع في الميسيسيبي»».

تأوهت المرأة. زفرت بهدوء، وذراعاها مضمومتان. تحركت؛

تراجع هو إلى الخلف ولحق بها نحو البهو. دخلا المطبخ حيث كان هناك مصباح مضاء. قالت المرأة: «عليك أن تعذرني لأني أبدو هكذا». سارت نحو الصندوق الذي خلف الموقد وسحبته ووقفت تنظر إليه ويداها مخفيتان في مقدمة ثوبها. وقف بنبو في منتصف الغرفة. قالت: «عليّ أن أبقيه في الصندوق حتى لا تستطيع الجرذان الوصول إليه».

قال بنبو: «ماذا؟ ما هو؟» اقترب إلى حيث يستطيع أن يرى ما في الصندوق. كان يحوي طفلاً نائماً، لا يتجاوز عمره العام الواحد. نظر إلى الوجه النحيل بهدوء.

قال: «أوه، لديك ابن». نظرا إلى الوجه النحيل النائم للطفل. سمعا ضجة آتية من الخارج. دخلت أقدام إلى الرواق الخلفي. دفعت المرأة بالصندوق إلى الزاوية بركبتها حين دخل غودوين.

قال غودوين: «حسناً، سيريك تومي الطريق إلى الشاحنة». ثم ابتعد ودخل المنزل.

نظر بنبو إلى المرأة. كانت يداها ما تزالان ملفوفتين بثوبها. قال: «شكراً على العشاء. ربما في يوم ما...» نظر إليها، كانت تراقبه ووجهها ليس نكداً إلى ذلك الحد، ولكنه ما يزال بارداً بعد. «ربما أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلكِ في جفرسون. أرسل لك شيئاً تحتاجين إليه..».

أزاحت يديها من ثنية ثوبها بحركة دائرية سريعة، ثم أخفتهما مجدداً بحرك عصبية. قالت: «مع كل هذا الماء الذي أستخدمه لجلي الصحون والغسيل... ربما يمكنك أن ترسل إليّ أداة للعناية بالأظافر».

***

هبط تومي وبنبو التلة من المنزل الواحد في إثر الآخر، متتبعين

الدرب المهجور. نظر بنبو إلى الخلف. كان الخراب الكالح للمنزل يبرز أمام السماء، فوق أشجار الأرز المتكتلة والمتشابكة، معتماً ومهجوراً وعميقاً. كان الدرب عبارة عن ندبة متآكلة أعمق بكثير من أن تكون درباً ومستقيمة إلى حد لا يصلح معها لأن يكون قناة، فقد حفرته فيضانات الشتاء واختنق بالسرخس والأوراق والأغصان المتعفنة. مشى بنبو في إثر تومي في ممرّ غير واضح الملامح حيث أبلت الأقدام النباتات المتعفنة حتى سوّتها في الطين. إلى الأمام كان سياج مقوّس من الشجر يتلاشى مقابل السماء.

زاد انحدار الهبوط ثم كان هناك منحنى. قال بنبو: «هنا تقريباً شاهدنا البومة».

ضحك تومي الذي كان يسبقه. قال: «لقد أخافته هو أيضاً، أنا واثق من هذا».

قال بنبو: «أجل». لحق بشكل تومي المبهم، محاولاً أن يمشي بحذر، وأن يتكلم بحذر، مع ذلك القلق المرهق الذي للثمالة.

قال تومي: «سأكون جديراً بالازدراء إن لم يكن هو أجبن الرجال البيض الملعونين ممن شاهدتهم على الإطلاق. كان يصعد هذا الممر هنا نحو الرواق، حين خرج ذلك الكلب من تحت المنزل وذهب وتشمم عقبيه، كما يمكن لأي كلب أن يفعل، ولأكن جديراً بالازدراء إن لم يرتعد خوفاً كأنما كان من يتشممه حية سامة وهو حافي القدمين، فأخرج ذلك المسدس الآلي الصغير وقتله، فلبث في مكانه كمسمار الباب التزييني. فلأُحرق لو أنه لم يفعل ذلك».

قال هوريس: «كلب من كان ذاك؟».

قال تومي: «كلبي أنا». ضحك بمرح. «كلب عجوز ما كان ليؤذي برغوثاً حتى لو أراد ذلك».

بدأ الطريق ينحدر وينبسط. همست قدما بنبو في الرمل، وهو يمشي بحذر. على الرمل الباهت اللون كان قادراً على مشاهدة تومي وهو يتحرك مجرجراً قدميه بتثاقل وكأنه بغل يمشي في الرمل، دون أي جهد ظاهر، وقدماه الحافيتان تهسهسان، وترميان الرمل إلى الخلف في انفجارات منبجسة واهية في كل حركة داخلية لأصابع قدميه.

كان الظل الضخم لجذع الشجرة المقطوع يظهر عبر الدرب غامضاً. تسلقه تومي ولحق به بنبو وهو ما يزال يتحرك بحذر ونشاط وهو يتجاوز بصعوبة كومة من أوراق النباتات التي لم تذوِ بعد، وما تزال تبث رائحة الخضرة.

قال تومي: «المزيد من...». التفت. «هل تستطيع تجاوزه؟».

قال هوريس: «أتدبر الأمر». واستعاد توازنه مجدداً. مضى تومي في طريقه.

قال تومي: «هذا المزيد من أفعال بوباي. لم تكن هناك أي فائدة من سدّ الطريق على هذا النحو. لقد تسبب في أن نمشي مسافة ميل كامل حتى نصل إلى الشاحنات. قلت له إن الناس اعتادوا أن يأتوا إلى هنا ليشتروا من (لي) منذ أربع سنوات، ولم يسبق أن تعرض (لي) لأي إزعاج. كما أنه جلب سيارته إلى هنا مرة أخرى، رغم حجمها الضخم. ولكن ذلك لم يوقفه عند حده. فلأكن جديراً بالازدراء إن لم يكن يخاف حتى من ظله».

قال بنبو: «كنت سأخاف منه أنا أيضاً لو كان ظلّه ظلّي».

ضحك تومي ضحكة خافتة. كان الدرب الآن نفقاً أسود مغطاة أرضه بالوهج الميت غير المحسوس للرمل. فكر بنبو: «من هنا تقريباً كان الممر يتفرع نحو النبع». وهو يحاول أن يميز من أين كان الممر يخترق جدار الدغل. تابعا السير.

سأل بنبو: «من يقود الشاحنة؟ شخص آخر من ممفيس؟».

قال تومي: « أكيد. إنها شاحنة بوباي».

« لم لا تستطيع جماعة ممفيس هذه البقاء في ممفيس وتترككم تصنعون شرابكم في سلام؟».

قال تومي: «هناك النقود الكثيرة. لا توجد نقود كافية في المتاجرة بأرباع الغالون وأنصافه. يقوم (لي) بذلك لأجل الملاءمة، وذلك ليكسب دولاراً إضافياً أو دولارين. النقود تجدها حين تقوم بالعمل وتنجزه بسرعة».

قال بنبو: «أوه، حسناً. اعتقد أني أفضل الجوع على أن يكون ذلك الرجل قريباً مني».

ضحك تومي ضحكة عالية. «بوباي لا بأس به. ولكنه غريب الأطوار قليلاً فحسب». تابع السير، عديم الشكل أمام الوهج المشوش للدرب، الدرب الرملي. «سأكون جديراً بالازدراء لو لم يكن قيد التحقيق الآن، أليس كذلك؟».

قال بنبو: «أجل، هو كذلك».

كانت الشاحنة تنتظر حيث كان الدرب، الدرب الطيني مجدداً، قد بدأ يصعد نحو الطريق العام المفروش بالحصى. كان رجلان يجلسان

على رفرف العجلة وهما يدخنان اللفافات. إلى الأمام راحت تتناقص كثافة الأشجار تحت النجوم والوقت ما بعد منتصف الليل.

قال أحد الرجال: «لقد تأخرتما، أليس كذلك؟ كنت أنوي أن أكون في منتصف الطريق إلى المدينة الآن. لدي امرأة في انتظاري».

قال الرجل الآخر: «أكيد. تنتظر وهي مستلقية على ظهرها». شتمه الرجل الأول.

قال تومي: «جئنا بأسرع ما استطعنا. لم لا تعلقون مصباحاً يا جماعة؟ لو كنا من رجال القانون لكنا أمسكنا بكم بكل تأكيد». قال الرجل الأول: «اذهب وتسلّق شجرة يا ابن الحرام ذا الوجه الكامد». رميا بلفافتيهما بعيداً وصعدا إلى الشاحنة. ضحك تومي ضحكة خافتة. التفت بنبو ومدّ يده.

قال: «وداعاً. ممتنّ كثيراً يا سيد..».

قال الآخر: «اسمي تومي». تلمست يده الرخوة المليئة بالجسآت يد بنبو وهزها مرة ثم سحبها. وقف هناك، هيئة قصيرةً وممتلئة لا شكل لها أمام الوهج الواهن للطريق، بينما رفع بنبو قدمه ليضعها على الدرجة. تعثر ولكنه عاد ليتوازن.

قال صوت من كابينة القيادة في الشاحنة: «انتبه لنفسك يا دكتور». دخل بنبو. كان الرجل الثاني يضع بندقية رش على امتداد مؤخرة المقعد. تحركت الشاحنة وصعدت المنحدر المليء بالحفر بشكل مرعب ثم اتجهت نحو الطريق العام المفروش بالحصى وانعطفت باتجاه جفرسون وممفيس.

الفصل الثالث

في عصر اليوم التالي كان بنبو في منزل شقيقته الذي في الريف، ويبعد أربعة أميال عن جفرسون. وكان ذلك منزل عائلة زوجها. كانت أرملة ولها ابن في سن العاشرة، وتعيش في منزل كبير مع ابنها ومع عمة حميها: امرأة في التسعين من العمر تعيش على كرسي متحرك ذي عجلات، وتعرف باسم «الآنسة جِني». كانت تجلس هي وبنبو قرب النافذة يراقبان شقيقته ورجلاً في سن الشباب يمشيان في الحديقة. كانت شقيقته أرملة منذ عشر سنين.

قال بنبو: «لمِ لمْ تتزوج مرة أخرى؟».

قالت الآنسة جِني: «أنا أسألك. فالمرأة الشابة في حاجة إلى رجل».

قال بنبو: «ولكنِ ليس هذا الرجل». نظر إلى الشخصين. كان الرجل يرتدي سروالاً قطنياً وسترة زرقاء؛ شاباً يميل إلى السمنة، عريض المنكبين، متباهياً بصلة غامضة له بكلية جامعية ما. «يبدو أنها تحب الأطفال. ربما لأن لديها طفل الآن. من هو هذا الرجل؟ هل هو ذلك الشخص نفسه الذي كان معها في الخريف الماضي؟».

قالت الآنسة جِني: «غووان ستيفنز، لا بدّ وأنك تتذكر غووان».

قال بنبو: «أجل. أتذكره الآن. أتذكر تشرين الأول (أكتوبر) الماضي». في ذلك الحين مرّ هو بجفرسون في طريقه إلى بيته، وتوقف

ليقضي الليل في منزل شقيقته. وعبر النافذة نفسها كان هو والآنسة جِني قد راقبا هذين الشخصين يمشيان في هذه الحديقة نفسها، حيث كانت تتفتح في ذلك الأوان أزهار تشرين الأول المتأخرة، اللامعة، ذات الرائحة المغبرة. في ذلك الحين كان ستيفنز يرتدي ثياباً بنية اللون، وتعرّف هوريس عليه لأول مرة.

قالت الآنسة جِني: «هذا الشاب بدأ يأتي إلى هنا منذ أن عاد إلى بيت ذويه من فرجينيا في الربيع الماضي. أما الشاب الذي رأيته آنذاك فهو من آل دجونز؛ هرشل. أجل. هرشل».

قال بنبو: «آه، F.F.V.، أو مجرد زائر تعيس الحظ هناك؟».

«في الكلية. في الجامعة. لقد درس فيها. أنت لا تتذكره لأنه كان ما يزال يلبس الحفاض عندما غادرتَ جفرسون».

قال بنبو: «لا تدعي بِل تسمعك وأنت تقولين مثل هذا الكلام». راح يراقب الشخصين. اقتربا من المنزل واختفيا خلفه. بعد برهة، صعدا الدرج ودخلا الغرفة. تقدم ستيفنز برأسه الأملس الشعر ووجهه الممتلئ الواثق. أعطته الآنسة جِني يدها فانحنى ببدانته وقبّلها.

قال: «تصبحين أكثر شباباً وجمالاً كل يوم. كنت أقول لنرسيسا للتو إنك لو نهضت من ذلك الكرسي فحسب ورضيت أن تكوني لي، لما كان لديها أي فرصة لمنافستك».

قالت الآنسة جِني: «سأفعل ذلك غداً. يا نرسيسا..».

كانت نرسيسا امرأة ضخمة الجسم ذات شعر داكن اللون ووجه عريض وغبي وهادئ. وكانت ترتدي ثوبها الأبيض المعتاد. قالت: «يا هوريس، هذا هو السيد غووان ستيفنز. وهذا أخي يا غووان».

قال غووان: «كيف حالك يا سيدي؟» مدّ يده إلى بنبو وصافحه بسرعة وبقوة وبإحكام. في تلك اللحظة دخل الصبي، بنبو سارتوريس، ابن شقيقة بنبو. قال ستيفنز: «لقد سمعت عنك».

قال الصبي: «درس غووان في جامعة فرجينيا».

قال بنبو: «آه، لقد سمعت بذلك».

قال ستيفنز: «شكراً. ولكن لا يمكن لكل شخص أن يدرس في جامعة هارفارد».

قال بنبو: «شكراً، كانت تلك جامعة أكسفورد[1]».

قالت الآنسة جِني: «يقول هوريس للجميع وعلى الدوام إنه ذهب إلى أكسفورد فيعتقدون أنه يعني جامعة الولاية، وهو يستطيع أن يخبرهم بما هو خلاف ذلك؟».

قال الصبي: «يذهب غووان إلى أكسفورد كثيراً. لديه صديقة هناك. وهو يصطحبها إلى حفلات الرقص. أليس كذلك يا غووان؟».

قال ستيفنز: «صحيح يا صديقي. صديقة حمراء الشعر».

قالت نرسيسا: «اصمت يا بوري». نظرت إلى شقيقها. «كيف هي بِل وبِل الصغيرة؟» كادت أن تقول شيئاً آخر، ولكنها صمتت. ومع ذلك، نظرت إلى شقيقها، وكانت تحديقتها جدية ومصممة.

قالت الآنسة جِني: «إذا ما انفككتِ تتوقعين منه أن يتخلى عن بِل، فسوف يفعل ذلك. سيفعلها في يوم من الأيام. ولكن نرسيسا لن تكون راضية حتى لو حدث ذلك. بعض النساء يريدون من رجل ما أن يتزوج

١- جامعة كبرى في مدينة أكسفورد في ولاية ميسيسبي.

من مرأة ما. ولكن جميع النساء سيغضبن لو أنه اتخذ قراره وتخلى عنها.

قالت نرسيسا: «هل لك أن تصمتي الآن».

قالت الآنسة جِني: «أجل يا سيدي. هوريس يحاول التخلص من رسنه منذ بعض الوقت. ولكن الأفضل لك ألا تعارض ذلك بقوة، يا هوريس. فقد يكون مربوطاً بشدة من الجهة الثانية».

عبر البهو رنّ جرس صغير. تحرك كل من ستيفنز وبنبو نحو مقبض كرسي الآنسة جِني قال بنبو: «هل لك أن تتذرع بالصبر يا سيدي؟».

«عا أني على ما يبدو هو الضيف».

قالت الآنسة جِني: «عجباً يا هوريس. هل لك يا نرسيسا أن ترسلي من يصعد إلى السقيفة لإحضار مسدسَي المبارزة؟» التفتت إلى الصبي. «وأنت هيا اذهب وشغّل الموسيقى، وجهّز وردتين».

قال الصبي: «أي موسيقى؟».

قالت نرسيسا: «هناك ورود على المائدة. غووان هو من أرسلها. هيا بنا لتناول العشاء».

***

عبر النافذة راقب بنبو والآنسة جِني الشخصين، نرسيسا التي ما تزال في ثوبها الأبيض، وستيفنز بقميصه القطني وسترته الزرقاء، يتمشيان في الحديقة. "ذاك الفرجيني الجنتلمان الذي أخبرنا على العشاء في تلك الليلة كيف علموه أن يشرب كجنتلمان. ضع خنفسة في الكحول، وسيكون لديك خنفسة مقدسة؛ ضع شخصاً من الميسيسيبي في الكحول، وسيكون لديك جنتلمان..».

قالت الآنسة جِني: «غووان ستيفنز». راحا يراقبان الشخصين يختفيان خلف المنزل. ومرّ بعض الوقت قبل أن يسمعاهما ينزلان إلى البهو. حين دخلا، كان هناك الصبي بدلاً عن ستيفنز.

قالت نرسيسا: «رفض البقاء. سيذهب إلى أكسفورد؟ سيكون هناك حفل راقص في الجامعة ليلة الجمعة. لديه التزام مع سيدة شابة».

قال هوريس: «لا بدّ أنه سيجد مجالاً واسعاً لممارسة الشرب الجنتلماني هناك. وأي شيء آخر سيمارسه بجنتلمانية. أفترض أن هذا هو السبب في أنه يسابق الزمن».

قال الصبي: «سيصطحب امرأة عجوزاً إلى الحفل الراقص. سيذهب إلى ستاركفيل يوم السبت من أجل مباراة البيزبول. قال إنه سيصطحبني، ولكنكِ لم تسمحي لي بالذهاب».

الفصل الرابع

كان من شأن سكان المدينة الذين يقومون بنزهة في سياراتهم بعد العشاء عبر الأراضي المحيطة بمباني الكلية أو عضو هيئة تدريسية كثير النسيان أو مصاب بالذهول أو مرشح لنيل درجة الماجيستير في طريقه إلى المكتبة، أن يروا «ممبل»، ويروا سترتها المخلوعة تحت ذراعها، وساقيها الطويلتين شقراوين من الركض فلا يبدو منها سوى صورة ظلية مسرعة أمام النوافذ المضاءة لـ «الكوب» كما كان يُسمى «مهجع النساء»، ثم تختفي في الظل قرب جدار المكتبة؛ وربما يرون دوامة جاثمة لسروال نسائي قصير أو ما شابه وهي تقفز إلى السيارة المنتظرة هناك والمحرك دائر في تلك الليلة بالذات. كانت السيارات تخص فتيان المدينة. طلاب الجامعة لم يكن يسمح لهم بإدخال السيارات إلى حرم الجامعة، وكان الرجال - حاسرو الرؤوس، والذين يرتدون السراويل القصيرة والكنزات براقة الألوان - ينظرون باحتقار إلى فتيان المدينة الذين كانوا يلبسون قبعات تتخذ شكل الفناجين وبصلابة على رؤوس معطرة وسترات ضيقة قليلاً وسراويل منتفخة جداً، وذلك بتفوق وغضب.

كان هذا في ليالي أيام الأسبوع عدا ليلة السبت التي كانت تجري فيها حفلات رقص «نادي الحرف»، أو في المناسبات الثلاث التي تجري فيها حفلات الرقص الرسمية كل عام. كان فتيان المدينة المتسكعون بأوضاع تدل على عدم اكتراث عدائي بقبعاتهم المتماثلة، وياقاتهم

المرفوعة، يراقبون تمبل وهي تدخل إلى مبنى الألعاب الرياضية على شعار الكلية الأسود وتختفي في دوامة مرافقة بموسيقى وضاءة برأسها الرقيقة الشامخة وفمها الجريء المطلي بأحمر الشفاه وذقنها الناعمة، وعينيها اللتين تنظران يميناً وشمالاً دون أن تريا شيئاً، ولكنهما هادئتان وضاريتان وحذرتان.

فيما بعد، والموسيقى تعول من خلف الزجاج، سيراقبونها عبر النوافذ وهي تمر بحركة دورانية سريعة من زوج من الأكمام السوداء إلى الآخر، وخصرها نحيل وملحاح خلال الفاصل، وقدماها تملآن الفجوة الإيقاعية بالموسيقى. كانوا ينحنون ليشربوا من قوارير ويشعلوا لفافاتهم، ثم هاهم ينتصبون من جديد، دون حراك أمام النور، بياقاتهم المقلوبة إلى الأعلى ورؤوسهم المغطاة بالقبعات، فيبدون كصفّ من التماثيل النصفية التي ألبست قبعات ولفاعات ونُحتت من صفيح أسود وسُمّرت على حواف النوافذ. هناك على الدوام ثلاثة أو أربعة منهم حين تعزف الفرقة الموسيقية «هوم سويت هوم»، يتسكعون عند باب الخروج بوجوه باردة وميل للقتال، وقد بدا عليهم الإرهاق بسبب قلة النوم. راح هؤلاء يراقبون الأزواج وهم يخرجون وعليهم آثار الضعف من كثرة الحركة والضجيج. راقب ثلاثة منهم تمبل وغووان ستيفنز يخرجان، نحو النذير البارد للفجر الربيعي. كان وجهها شاحباً تماماً، ومغطى بالبودرة التي وضعت مؤخراً، وشعرها خصل حمراء مستهلكة. كانت عيناها وهما مجرد بؤبؤين الآن، قد استقرتا عليهم لبرهة خاوية. كان وجهها شاحباً تماماً. ثم رفعت يدها بإيماءة واهية، سواء باتجاههم أو لا، ما كان يمكن لأحد أن يعرف. لم يستجيبوا، ولا ظهرت رقّة في عيونهم الباردة. راحوا يراقبون غووان وهو يتأبط ذراعها، والبوح السريع للخاصرة والفخذ وهي تستقل سيارته. وكانت سيارة سباق طويلة وخفيضة ذات مصباح إضافي قوي.

قال أحدهم: «من هو ابن العاهرة هذا؟».

قال الثاني بصوت رفيع الطبقة (فولستو) مرير متماوج: «أبي قاضٍ».

«اللعنة. فلنذهب إلى المدينة».

مضوا في طريقهم. صاحوا مرة على إحدى السيارات، ولكنها لم تتوقف. على الجسر عبر مقطع السكة الحديد، توقفوا وتجرعوا من زجاجة. حاول الأخير أن يرمي بها عبر الطريق. أمسك الثاني بذراعه.

قال: «أعطني إياها». كسر الزجاجة بحرص ونشر الشظايا عبر الطريق. راحوا يراقبونه.

قال الأول: «أنت لست أهلاً بما فيه الكفاية لتحضر حفلاً راقصاً في الكلية. أنت يا ابن الحرام».

قال الآخر وهو يضع الشظايا بشكل عمودي في الطريق: «أبي قاضٍ».

قال الثالث: «هاهي سيارة قادمة».

كان لها ثلاثة أضواء أمامية. اتكأوا على الدرابزون، وهم يميلون قبعاتهم أمام النور، ويراقبون تمبل وغووان يمران. كان رأس تمبل خفيضاً وقريباً. كانت السيارة تتحرك ببطء.

قال الأول: «أنت يا ابن الحرام المسكين».

قال الثاني: «هل أنا كذلك؟» أخرج شيئاً من جيبه ونقفه فضرب الشبكة الشفافة المعطرة قليلاً عبر وجوههم.: «هل أنا كذلك؟».

«هذا ما تقوله أنت».

قال الثالث: «حصل دوك على تلك السراويل القصيرة في ممفيس. من عاهرة لعينة».

قال دوك: «أنت كاذب ابن حرام».

راقبوا مروحة النور والمصباح ذا الذيل الياقوتي الآخذ بالانطفاء، وهو يتوقف عند «الكوب». أطفئت الأضواء بعد فترة قصيرة من الزمن. انصفق باب السيارة. أنيرت الأضواء، وتحركت السيارة. اقتربت مجدداً. اتكأوا على الدرابزون وقبعاتهم أميلت أمام الوهج. التمع الزجاج المكسور في ومضات متناثرة. اقتربت السيارة وتوقفت أمامهم.

قال غووان وهو يفتح الباب: «أأنتم أيها السادة ذاهبون إلى المدينة؟» اتكأوا على الحاجز، ثم قال الأول: «نحن شديدو الامتنان» بصوت أجش وركبوا السيارة، الآخران في المقعد الخلفي المكشوف والأول إلى جانب غووان.

قال: «أوقف السيارة هنا، لقد كسر شخص ما زجاجة هنا».

قال غووان: «شكراً». انطلقت السيارة. هل ستذهبون أيها السادة إلى ستاركفيل غداً لحضور المباراة؟».

لم يقل الجالسان في المقعد الخلفي شيئاً.

قال الأول: «لا أعرف. لا أظن ذلك».

قال غووان: «أنا غريب هنا. نفد مني الشراب هذه الليلة، ولديّ موعد مع فتاة صباحاً باكراً. هل يمكنكم أيها السادة أن تخبروني أين أجد ربع غالون من الشراب؟».

قال الأول: «تأخر الوقت كثيراً». التفت إلى الآخرين. «هل تعرفان أي شخص يمكن لصاحبنا أن يجده في مثل هذا الوقت من الليل يا دوك؟».

قال الثالث: «يمكن للوك أن يعرف مثل هذا الشخص».

قال غووان: «وأين يسكن هذا؟».

قال الأول: «تابع السير. سأريك الطريق. عبروا الساحة ثم سارت بهم السيارة مسافة نصف ميل خارج المدينة.

قال غووان: «هذا هو الطريق إلى تايلور، أليس كذلك؟».

قال الأول: «أجل».

قال غووان: «عليّ أن أقود السيارة إلى هناك في وقت مبكر من الصباح. عليّ الوصول إلى هناك قبل موعد القطار الخاص بالمباراة. أنتم أيها السادة لن تذهبوا إلى المباراة، كما تقولون».

قال الأول: «لا أظن ذلك. توقف هنا». برز أمامهم منحدر تعلوه أشجار سنديان قزمة. قال الأول: «أنت انتظر هنا. أطفأ غووان الأنوار. استطاعوا سماع الآخر وهو يهبط المنحدر.

قال غووان: «هل لدى لوك شراب جيد؟».

قال الثالث: «جيد جداً. جيد بقدر أي شراب آخر، على ما أعتقد».

قال دوك: «إن لم يعجبك، لست مضطراً إلى احتسائه. التفت غووان بجسمه البدين ونظر إليه».

قال الثالث: «إنه جيد بقدر ذاك الذي سبق واحتسيته هذه الليلة».

قال دوك: «ما كنت مضطراً لاحتساء ذاك أيضاً».

قال غووان: «لا يبدو أنهم يصنعون شراباً جيداً هنا كما يفعلون في الكلية».

قال الثالث: «من أين أنت؟».

«فرجين...أوه، جفرسون. لقد درست في فرجينيا. يعلمونك كيف تشرب الخمر هناك».

لم يقل الآخران شيئاً. عاد الأول، تسبقه أحجار صغيرة جداً تهبط المنحدر. كان يحمل مرطبان فاكهة. رفعه غووان أمام السماء. كان يبدو شاحباً ورقيقاً. أزال الغطاء ومدّ يده به.

«اشربوا».

تناول الأول المرطبان وعرضه على الاثنين الجالسين في المقعد الخلفي.

«اشربا».

شرب الثالث، ولكن دوك رفض. غووان شرب منه.

قال: «يا للرب الطيب. كيف يمكنكم أيها الناس أن تشربوا مثل هذا الشراب؟».

قال دوك: «نحن لا نشرب شراباً رخيصاً في فرجينيا». التفت غووان في مقعده ونظر إليه.

قال الثالث:اخرس يا دوك. ثم قال لغووان: «لا تكترث به، فهو يعاني من وجع البطن طوال هذه الليلة».

قال دوك: «ابن الحرام».

قال غووان: «هل تقصدني أنا بهذا؟»

قال الثالث: «طبعاً لم يقصدك به. دوك شخص جيد. هيا يا دوك. إشرب».

قال دوك: «لا يهمني البتة. سلمني إياه».

عادوا إلى المدينة. قال الأول: «سيكون الكوخ مفتوحاً.عند المستودع." كان عبارة عن غرفة الغداء في مصنع للحلويات. وكان فارغاً إلا من رجل يرتدي مئزراً قذراً. مضوا نحو مؤخرة المكان ودخلوا مختلى فيه طاولة وأربعة كراسٍ. جلب الرجل أربعة كؤوس وزجاجات من الكوكاكولا. قال غووان: «هل يمكن أن تحضر لي بعض السكر وليمونة، يا كابتن؟» جلب الرجل ما طلب منه. راقب الآخرون غووان وهو يمزج الويسكي بالليمون الحامض. قال: «علموني احتساءه على هذا النحو». راقبوه وهو يشرب. قال وهو يملأ كأسه من الإبريق: «لا أجد الكثير من المتعة فيه». ثم شربه.

قال الثالث: «أنت ستشربه بكل تأكيد».

«لقد درست في كلية جيدة». كانت هناك نافذة. وراءها كانت السماء أكثر شحوباً ونقاء. قال وهو يملأ الكأس ثانية: «اشربوا كأساً آخر أيها السادة. شرب الآخرون باعتدال. قال: «هناك في الكلية يعتبرون أنه من الأفضل أن تُهزم على أن تراوغ». راقبوه يشرب تلك الكأس. رأوا منخريه يتنديان فجأة من العرق.

قال دوك: «هذا كل ما سيشربه».

قال غووان: «لم تقول هذا؟» صبّ مقدار بوصة في الكأس. «لو كان لدينا فحسب شراب لائق. أعرف رجلاً في مقاطعتي يسمى غودوين وهو يصنع..».

قال دوك: «هذا ما يدعونه بالشراب في الكلية».

نظر غووان إليه.«هل تظن ذلك؟ راقب هذا». صب المزيد في الكأس، راقبوا الشراب وهو يرتفع في الكأس.

قال الثالث: «حذار يا رفيق». ملأ غووان الكأس حتى الحافة ورفعه وأفرغه في جوفه بثبات. تذكر أنه وضع الكأس على الطاولة بعناية، ثم راح يشعر في آن واحد بالهواء الجاري، بنقاء بارد رمادي ومحرك يلهث على جنبية على رأس صف داكن من السيارات، وأنه كان يحاول أن يقول لشخص ما إنه تعلم الشرب كجنتلمان. كان ما يزال يحاول أن يخبرهم في مكان معتم وضيق تفوح منه رائحة الأمونيا والمطهّر المسمى (كريزوت)، وهو يتقيأ في وعاء، يحاول أن يخبرهم بأن عليه أن يكون عند تايلور في الساعة السادسة والنصف، وذلك حين يصل القطار الخاص. مرت الفورة. شعر بتعب شديد وبضعف وبرغبة في الاستلقاء ولكنه منع من ذلك بالقوة؛ وفي النور القادم من عود ثقاب اتكأ على الجدار، وعيناه مركزتان ببطء على اسم كُتب هناك بقلم رصاص. أغلق إحدى عينيه، واستند إلى الجدار، وهو يتأرجح ويسيل اللعاب من فمه، وقرأ الاسم. ثم نظر إليهم، وهز رأسه.

«اسم فتاة... اسم فتاة أعرفها. فتاة جيدة. محبة للرياضة. لي موعد معها لاصطحابها إلى ستارك... ستاركفيل. لا وصيفة مصاحبة لها، أتفهمون ذلك؟» راح يتكئ هناك ويسيل لعابه ويهمهم، ثم أغفى.

وعلى الفور بدأ يجاهد ضد نفسه ليستيقظ. بدا له أن الأمر كان

فورياً، ولكنه كان واعياً بمرور الوقت طوال الفترة، وأن الوقت كان عاملاً في حاجته إلى الاستيقاظ؛ وإلا فإنه سيندم. ولفترة طويلة كان يعرف أن عينيه مفتوحتان، تنتظران الرؤية لتعودا. ثم بدأ يرى مجدداً، دون أن يعرف على الفور أنه مستيقظ.

تمدد بهدوء تام. بدا له أنه بالخروج من النوم، فقد أنجز الغرض الذي أيقظ نفسه من أجله. كان مستلقياً في مكان ضيق تحت ظلة خفيضة، وهو ينظر إلى واجهة بناء غير مألوف وفوقه كانت غيوم وردية اللون مع حشد من أشعة الشمس، فارغة من أي معنى. ثم أكملت عضلات بطنه التهوّع الذي أفقده الوعي وأنهض نفسه وتمدد باسطاً ذراعيه وقدميه في أسفل السيارة، فصدم رأسه على الباب. أعادته الضربة إلى الوعي تماماً ففتح الباب وسقط نصفه على الأرض وجرّ نفسه والتفت نحو المحطة وهو يركض متعثراً. سقط أرضاً. نظر وهو على يديه وقدميه نحو فرع السكة الحديد الفرعي الفارغ ثم نحو السماء المشمسة دون تصديق وبيأس. نهض وراح يعدو بسترة العشاء المتسخة وياقته الممزقة وشعره الأشعث. فكر بنوع من الغضب: لقد أغمي عليّ... لقد أغمي عليّ...

كان رصيف المحطة فارغاً باستثناء زنجي يحمل مكنسة. قال: «يا للرب العظيم، أشخاص بيض».

قال غووان: «القطار، ذلك الخاص الذي كان على تلك السكة».

«لقد غادر فعلاً. ولكن قبل خمس دقائق». وبالمكنسة وهي ما تزال في وضع الكناسة دون حراك، راح يراقب غووان وهو يستدير ويعود عدواً إلى السيارة ويدخلها بتعثر.

كان المرطبان على الأرض. رفسه جانباً وأدار المحرك. عرف أنه في

حاجة إلى شيء في معدته، ولكن لم يكن هناك من وقت لذلك. نظر إلى المرطبان. تلوّت أحشاؤه ببرود، ولكنه رفع المرطبان وراح يشرب منه بإسراف ويكاد يختنق وهو يعب منه؛ ودفع بلفافة في فمه ليكبح التهوع. وشعر بأنه أفضل على الفور تقريباً.

عبر الساحة بسرعة أربعين ميلاً بالساعة. كانت الساعة تشير إلى السادسة وخمس عشرة دقيقة. اتخذ طريق تايلور وهو يزيد السرعة. شرب مجدداً من المرطبان دون أن يبطئ السرعة. وحين وصل إل تايلور، كان القطار على وشك مغادرة المحطة. حشر السيارة بقوة بين عربتين مع مرور آخر مقطورة. انفتحت البهوة في المقطورة. قفزت ثمبل ثم ركضت بضع خطوات قرب المقطورة بينما انحنى موظف السكة الحديد وهزّ قبضته باتجاهها.

خرج غووان من سيارته. التفتت واقتربت منه، وهي تمشي بسرعة. ثم توقفت، واقتربت مجدداً وهي تحدق في وجهه وشعره الهائجين، في ياقته وقميصه المتلفين.

قالت: «أنت ثمل. أيها الخنزير. أيها الخنزير القذر».

«كانت ليلة صعبة. أنت لا تعرفين نصف ما حدث فيها».

نظرت من حولها، إلى المحطة الكئيبة الصفراء، والرجال المرتدين الأوفرولات وهم يمضغون ببطء ويراقبونها، ثم إلى السكة والقطار الذي يختفي عن الأنظار، وإلى النفثات الأربع من البخار التي كادت تضمحل مع عودة صوت الصفارة. «لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان بهذه الصورة. أنت لم تبدّل ثيابك حتى». عند السيارة توقفت مرة أخرى. «ما الذي وراءك؟».

قال غووان: «إنها مطرة الماء خاصتي. ادخلي».

نظرت إليه، وفمها قرمزي بجرأة، وعيناها حذرتان وباردتان تحت قبعتها التي لا حرف لها، وشعرها الأحمر المتناثر ذو العقصات. التفتت لتنظر إلى المحطة المقفرة والقبيحة مرة أخرى في الصباح البارد. «فلنبتعد عن هذا المكان». شغل محرك السيارة وانعطف بها. قالت: «الأجدر بك أن تعيدني إلى أكسفورد». التفتت لتنظر إلى المحطة. كانت في الظل الآن، تحت ظل غيمة عالية تسوقها الرياح. قالت: «الأجدر بك».

في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم / وبينما كانت السيارة تسير بسرعة عبر منطقة مهجورة وعالية ومهمهمة فيها أشجار صنوبر، قام غووان فجأة بالانعطاف بالسيارة من الطريق المغطى بالحصى نحو درب ضيق بين ضفاف متآكلة تهبط من أسفل أشجار الأرز والصمغ. كان يرتدي قميص عمل رخيص أزرق تحت سترة العشاء. وكانت عيناه حمراوين ومنتفختين، أما وجنتاه فتغطيهما لحية خفيفة زرقاء، وحين نظرت إليه تمبل وهي تستجمع قواها وتتماسك بينما تقفز السيارة وتثب في الحفر المتآكلة. ظنت تمبل أن شعر شاربيه قد نما منذ غادرا دمفريز. كان يشرب زيت الشعر. لقد اشترى زجاجة من زيت الشعر في دمفريز وشربها.

نظر إليها، وهو يشعر بعينيها مركزتين عليه. «لا تغضبي الآن. لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة للوصول إلى غودوين والحصول منه على زجاجة. لن يستغرق الأمر عشر دقائق. قلت لك إني سأوصلك إلى ستاركفيل قبل وصول القطار إليها، وسوف أفعل ذلك. ألا تصدقينني؟».

بقيت صامتة، وهي تفكر بالقطار المغطى بعلم البطولة الذي سبق له

ووصل إلى ستاركفيل؛ بالمدرجات عديدة الألوان، بالفرقة الموسيقية، بالوميض المتثائب للبوق الجهير؛ بالملعب الذي له شكل المعين الهندسي المنقّط باللاعبين، المقرفصين، الذين يصدرون صيحات قصيرة عوائية أشبه بصيحات طيور المستنقع التي أزعجها ظهور تمساح، ولكنها ليست متأكدة من مكان الخطر؛ فهي تقف دون حراك، متوازنة، يشجع واحدها الآخر بصرخات قصيرة لا معنى لها، حزينة وحذرة وبائسة.

«تحاولين التأثير عليّ بأساليبك البريئة. لا تظنّي أني أنفقت الليلة الماضية مع زوج من الأشخاص الغيورين من جماعتك من أجل لا شيء؟ لا تظني أني دعوتهم إلى شرابي لأن قلبي كبير. أنت طيبة جداً، أليس كذلك؟ تظنين أنك تستطيعين العبث طوال الأسبوع مع أي أحمق يرتدي فرو الغرير ويملك سيارة فورد ثم تخدعينني يوم السبت، أليس كذلك؟ لا تظني أني لم أر اسمك الذي كُتب على جدار المرحاض ذاك. ألا تصدقينني؟».

لم تردّ عليه، بل راحت تستجمع قواها بينما السيارة تتمايل من جانب إلى آخر على الدرب، وهي تسير بسرعة كبيرة. كان ما يزال يراقبها، دون أي جهد للتحكم بالسيارة.

«أقسم بالله أني أريد أن أرى المرأة التي تستطيع...» ثم أن الطريق أصبح مسطحاً ورملياً، وتقوس تماماً، وأحيط بسور من دغل من القصب والأغصان الشائكة. راحت السيارة تتمايل من جانب إلى آخر في الحفر الفضفاضة.

شاهدت هي الشجرة التي تسد الطريق، ولكنها استجمعت قواها فحسب مجدداً. بدت لها أنها النهاية المنطقية والكارثية لسلسلة الظروف التي تورطت فيها. جلست وراقبت بصلابة وهدوء بينما صدم غووان،

الذي كان من الواضح أنه يتطلع إلى الأمام، الشجرة بسرعة عشرين ميلاً بالساعة. اصطدمت السيارة بالشجرة، تراجعت إلى الخلف، ثم عادت لتصدم الشجرة مرة أخرى ثم انقلبت على جنبها.

أحست بنفسها تطير في الهواء وهي تحمل صدمة في كتفها سببت لها الخدر وصورة لرجلين يحدقان من حواف نباتات القصب على جانب الدرب. استطاعت النهوض بتثاقل والتفتت برأسها وشاهدتهما يهبطان نحو الدرب، أحدهما في بذلة سوداء ضيقة وقبعة من القش، وهو يدخن لفافة، والآخر حاسر الرأس، يرتدي الأوفرول، ويحمل بندقية رش، ووجهه الملتحي فاغر الفم في دهشة بطيئة. وبينما كانت ما تزال تركض تحولت عظامها إلى ماء وسقطت على الأرض ووجهها إلى الأسفل، وهي ما تزال تركض.

ودون أن تتوقف دوّمت وجلست على الأرض، وفمها فاغر بنواح صامت خلف أنفاسها المبهورة. كان الرجل المرتدي للأوفرول ما يزال ينظر إليها وفمه فاغر في دهشة بريئة ضمن لحية طرية وقصيرة. كان الرجل الآخر ينحني فوق السيارة المنقلبة وسترته الضيقة قد ارتفعت لتحيط بكتفيه. ثم صمت المحرك، رغم أن العجلة الأمامية المرفوعة كانت ما تزال تدور بكسل وبطء.

الفصل الخامس

كان الرجل المرتدي الأوفرول حافياً أيضاً. سار متقدماً على تمبل وغووان، والبندقية تتأرجح في يده، وقدماه المفلطحتان تسيران دون جهد في الرمل على ما يبدو، وهو الرمل الذي غاصت فيه تمبل حتى العقب تقريباً مع كل خطوة. بين الحين والآخر كان ينظر من فوق كتفه إليهما، إلى وجه غووان الدامي وملابسه الملطخة، وإلى تمبل التي كانت تكافح وتتمايل في حذائها ذي الكعب العالي.

قال: «من الصعب جداً المشي، أليس كذلك؟ لو أنها تخلع ذلك الحذاء ذا الكعب العالي، فسوف تمشي على نحو أفضل».

قالت تمبل: «أهذا صحيح؟» توقفت عن السير ووقفت على ساق واحدة ثم الأخرى وهي تستند إلى غووان، وخلعت زوج الأحذية. راح الرجل يراقبها وهو ينظر إلى الحذاء.

قال: «فلأكن ملعوناً لو استطعت أن أقحم اثنين من أصابعي في واحد من تلك الأشياء. هل يمكنني إلقاء نظرة عليهما؟» أعطته فردة واحدة. قلّبها ببطء في يده. قال: «اللعنة على بشرتي». نظر إلى تمبل مرة أخرى بتحديقته الباهتة الفارغة. كان شعره ينمو طاهراً وشبيهاً بالقش ومبيضّاً على قُمة رأسه، ولكنه داكن من حول أذنيه وعنقه في خصلات مجعدة ومشعثة. قال: «وهي فتاة طويلة حقاً أيضاً، وبهاتين

الساقين النحيلتين. كم تزن؟» مدت تمبل يدها. أعاد لها فردة الحذاء ببطء، وهو ينظر إليها، إلى بطنها وخاصرتيها. «لم تعط أي محصول بعد، أليس كذلك؟».

قال غووان: «هيا بنا. فلنتابع السير. علينا أن نجد سيارة نعود بها إلى جفرسون مع حلول الليل».

حين لم تعد الدرب مغطاة بالرمل، جلست غووان وارتدت حذاءها. وجدت الرجل يراقب فخذها المرفوعة فأنزلت تنورتها بقوة إلى الأسفل وقفزت واقفة. قالت: «حسناً، هيا بنا. ألا تعرف الطريق؟».

ظهر المنزل أمام أعينهم، فوق أجمة أشجار الأرز والذي كان يزدهي إلى ما ورائه بستان تفاح تحت شمس العصر. كان المنزل ضمن مرج تالف محاطاً بفناء مهجور وسقيفات مهدمة. ولكن لم يكن هناك أي علامة على وجود محراث أو أداة؛ ولم يكن مرئياً في أي اتجاه حقل مزروع... ما عدا الخرائب الكئيبة التي ترك عليها الطقس آثاره في بستان معتم كان النسيم يمر عبره بصوت حزين مهمهم. توقفت تمبل عن السير.

قالت: «لا أريد الذهاب إلى هناك». ثم قالت للرجل: «تابع أنت السير واحصل على سيارة. سننتظر نحن هنا».

قال الرجل: «يقول إن عليكما الدخول إلى المنزل».

قالت تمبل: «من الذي قال؟ هل يظن هذا الرجل الأسود أنه يستطيع أن يأمرني بما علي أن أفعله؟».

قال غووان: «آه، هيا بنا. فلنرَ غودوين ونحصل على سيارة. لقد تأخر الوقت. السيدة غودوين هنا، أليس كذلك؟».

قال الرجل: «هذا محتمل».

قال غووان: «هيا بنا». تابعوا السير حتى المنزل. صعد الرجل إلى الرواق ووضع البندقية داخل الباب تماماً.

قال: «إنها في مكان ما هنا». نظر «نظر إلى تمبل مجدداً». لا داعي لأن تقلق زوجتك. سيوصلكما (لي) إلى المدينة، على ما أعتقد».

نظرت تمبل إليه. نظر الواحد منهما إلى الآخر برزانة، كطفلين أو كلبين. «ما اسمك؟».

قال: «اسمي تومي. لا داعي للقلق».

كان البهو يخترق المنزل حتى آخره. دخلت.

قال غووان: «إلى أين أنت ذاهبة؟ لم لا تنتظرين هنا في الخارج؟» لم تجبه. تابعت الدخول في البهو. إلى الخلف منها استطاعت سماع صوت غووان والرجل. كان الرواق الخلفي قابعاً تحت نور الشمس، وكان الباب يؤطر فلقة من نور الشمس. إلى ما وراء ذلك، استطاعت أن ترى منحدراً مغطى بالأعشاب الكثيفة وحظيرة ضخمة، ذات مؤخرة محطمة، هادئة في الخراب الشمسي. إلى يمين الباب استطاعت أن ترى ركناً هو إما لبناء مستقل عن المنزل أو لجناح له. ولكنها لم تستطع سماع أي صوت عدا تلك الأصوات القادمة من واجهة المنزل.

تابعت السير ببطء. ثم توقفت. على مربع نور الشمس المؤطر بالباب كان ظل رأس رجل، فدارت نصف دورة وكادت تعدو. ولكن الظل لم يكن يرتدي قبعة، لذلك استدارت وتابعت السير على رؤوس أصابعها نحو الباب وحدقت من حوله. كان هناك رجل يجلس في كرسي من القش تحت نور الشمس، وكانت في مواجهتها مؤخرة رأسه الصلعاء

والتي تحيط بها حافة من الشعر الأبيض، أما اليدان فكانتا متصالبتين فوق رأس عصا خشنة. خرجت إلى الرواق الخلفي.

قالت: «يومك سعيد». لم يتحرك الرجل. تقدمت مجدداً، ثم نظرت بسرعة من فوق كتفها. وبطرف عينها ظنت أنها رأت خيطاً من الدخان يخرج من الباب في الغرفة المستقلة حيث كان الرواق يصنع حرف L، ولكنه كان قد ولى. ومن خيط بين عمودين أمام هذا الباب، كانت ثلاثة قطع مربعة من القماش قد علقت رطبة ولينة، وكأنها قد غسلت مؤخراً، ولباس داخلي نسائي من حرير قرنفلي اللون وباهت. لقد غُسل حتى أصبحت تخريماته أشبه بالقماش نفسه وقد اهترأ وأصبحت له ألياف. وكانت عليه رقعة من القماش القطني الباهت وقد خيطت بإتقان. نظرت تمبل إلى الرجل العجوز مرة أخرى.

ظنت لبرهة أن عينيه مغلقتان، ثم اعتقدت أن ليس له عينان بتاتاً، فبين الجفنين كان قد ثُبت شيئان أشبه ببليتين قذرتين وصفراوين من الطين. همست: «يا غووان». ثم ولولت: «يا غووان" واستدارت وراحت تعدو، ورأسها مرتدة إلى الخلف، وذلك حين تحدث صوت من وراء الباب حيث ظنت أنها شاهدت الدخان:

«لا يستطيع سماعك. ما الذي تريدينه؟».

استدارت مرة أخرى، ودون توقف في مشيتها، ركضت وهي ما تزال تراقب الرجل العجوز بعيداً عن الرواق: ثم توقفت فجأة وهي على يديها وركبتيها ضمن نثار من الرماد وعلب الصفيح والعظام المبيضة، وشاهدت بوباي يراقبها من زاوية المنزل، وقد دس يديه في جيبيه ولفافة مائلة عبر وجهه. وبدون أن تتوقف وصلت إلى الرواق وقفزت إلى المطبخ، حيث كانت امرأة تجلس إلى طاولة، ولفافة مشتعلة في يدها، وهي تراقب الباب.

الفصل السادس

دار بوباي من حول المنزل. كان غووان متكئاً فوق حافة الرواق، وهو يربت بحذر شديد على أنفه الدامي. أقعى الرجل الحافي القدمين على كعبيه مستنداً إلى الجدار.

قال بوباي: «لأجل المسيح، لم لا تستطيع أن تصطحبه إلى الخلف وتغسل عنه هذه الدماء؟ هل تريده أن يجلس طوال اليوم وهو يبدو كخنزير لعين ذبيح؟» رمى باللفافة بين الأعشاب وجلس على أعلى الدرج وبدأ يكشط حذاءه الموحل بموسى جيب بلاتينية معلقة بنهاية سلسلة ساعته.

نهض الرجل الحافي.

قال غووان: «لقد قلتَ شيئاً ما حول..».

قال الآخر: «صه!» بدأ يغمز ويعبس باتجاه غووان ويهز رأسه باتجاه ظهر بوباي.

قال بوباي: «ثم تهبط إلى الدرب مجدداً. هل تسمعني؟»».

قال الرجل: «فكرت أنك ستراقب الدرب هناك في الأسفل».

قال بوباي وهو يكشط ثنية ساق بنطاله: «لا تفكر. ها أنت قد أنفقت أربعين عاماً من دون تفكير. أفعل ما أقوله لك».

حين وصلوا إلى الرواق الخلفي قال الرجل الحافي: «إنه لا يحتمل أحداً... أليس شخصاً عجيباً؟ فلألعن إن لم يكن أكثر من عجيب أيضاً... إنه لا يحتمل أن يشرب هنا أي شخص عدا (لي). وهو نفسه لا يشرب، وإذا ما احتسيتُ ولو رشفة واحدة فلألعن إن لم يكن يبدو عليه وكأنه سيصاب بنوبة».

قال غووان: «لقد قال إنك في سن الأربعين».

قال الآخر: «ليس بعد».

«كم عمرك؟ ثلاثون؟».

«لا أعرف. لست في السن الذي قاله على أي حال». كان الرجل العجوز جالساً على الكرسي، في الشمس. «إنه (باب)؟» كان الظل الأزرق لأشجار الأرز قد وصل إلى قدمي الرجل العجوز. بل كاد أن يصل إلى ركبتيه. برزت يده وتلمست ركبتيه، وهي تربت في الظل ثم تسكن، والظل يغطيها حتى الرسغ. ثم نهض وأمسك بالكرسي، وبينما راح يدق الأرض بعصاه، فقد اتجه مباشرة نحوهما باندفاعة سريعة، حتى اضطرا إلى أن يتنحيا جانباً. جرّ الكرسي نحو نور الشمس المباشر وجلس مجدداً، وقد رفع وجهه نحو الشمس، ويداه متصالبتان فوق رأس العصا. قال الرجل: «هذا (باب)، أعمى وأصم معاً. فلألعن إن لم أكن سأكره أن أكون في وضع لا أستطيع معه أن أعرف ما آكله بل ولا حتى أن أهتم بذلك».

على لوح خشب ثُبت بين عمودين كان هناك دلو مطلي بالزنك وحوض من القصدير وطبق متصدع يحوي قطعة من صابون أصفر. قال غووان: «إلى الجحيم بالماء. ماذا عن ذاك الشراب؟».

«يبدو لي أنه سبق لك وتناولت الكثير جداً منه. ولألعن إن لم تقد تلك السيارة مباشرة لتصدم تلك الشجرة».

«هيا بنا. أليس لديك البعض منه مخبأ في مكان ما هنا؟».

«ربما يكون القليل منه هناك في الحظيرة. ولكن لا تدعه يسمعنا وإلا فإنه سيجده ويهرقه». عاد إلى الباب وحدق عبر البهو. ثم غادرا الرواق ومضيا إلى الحظيرة، وعبرا ما كان ذات يوم حديقة مطبخ امتلأت أرضها الآن بشجيرات الأرز والسنديان الأسود. نظر الرجل مرتين إلى الخلف. قال في المرة الثانية:

«زوجتك هناك تريد شيئاً ما».

كانت تمبل واقفة عند باب المطبخ. نادت: «غووان».

قال الرجل: «لوّح بيدك أو افعل أي شيء. إذا لم تصمت سيسمعنا هو." لوح غووان بيده. تابعا السير ودخلا الحظيرة. قرب المدخل كان هناك سلّم غير متقن الصنع. قال الرجل: "الأفضل أن تنتظر حتى أصعد. إنه رديء جداً. قد لا يحملنا كلينا».

«لم لا تصلحه إذاً؟ ألا تستخدمه كل يوم؟».

قال الآخر: «لقد صمد حتى الآن». تسلقه. ثم لحق به غووان وعبرا الفتحة في السقف نحو عتمة صفراء القضبان حيث كانت الشمس الأفقية تسقط نورها عبر الجدران والسقف وقد امتلأت بالثقوب. قال الرجل: «سر حيث أسير، وإلا ستدوس على لوح فالت وتجد نفسك في الأسفل قبل أن تعرف ما حدث». راح يشق طريقه عبر الأرضية وأخرج إبريقاً من الفخار من بين كومة من القش العفن في الركن. قال: «مكان واحد لن يفتش هو فيه. فهو يخاف على يديه الأشبه بأيدي الفتيات».

شربا. قال الرجل: «لقد شاهدتك هنا من قبل. ولكني لا أستطيع تذكر اسمك».

«اسمي ستيفنز. أنا أشتري الشراب من (لي) منذ ثلاث سنوات. متى سيعود؟ علينا أن نصل إلى المدينة».

«سيصل إلى هنا قريباً. لقد شاهدتك من قبل. كان هنا شخص آخر من جفرسون قبل ثلاث ليال. لا استطيع تذكر اسمه أيضاً. وكان هو أيضاً متحدثاً جيداً. ظل يحكي كيف حدث وتخلى عن زوجته. اشرب المزيد». ثم توقف عن الشرب وجلس ببطء والإبريق في يديه المرفوعتين، ورأسه محنية للإصغاء. بعد برهة، تكلم الصوت مجدداً من البهو في الأسفل.

«جاك».

نظر الرجل إلى غووان. سقط فكّه بتعبير عن مرح أبله. الأسنان التي تبقت لديه كانت مبقعة ومهترئة ضمن لحيته الناعمة والسمراء المصفرة.

قال الصوت: «أنت يا جاك هناك في الأعلى».

همس الرجل وبدنه يرتجف من مرحه الصامت. «إنه يناديني بجاك. اسمي تومي».

قال الصوت: «هيا بنا. أعرف أنك هناك».

قال تومي: «الأجدر بنا أن نرد عليه. يمكنه أن يطلق رصاصة عبر الأرضية هنا».

قال غووان: «من أجل المسيح. لماذا لم...» صرخ: «نحن هنا. سنأتي حالاً».

وقف بوباي عند الباب، وسبابتاه في جيبي صدرته. كانت الشمس قد غربت.

حين نزلا وظهرا عند الباب، كانت تمبل تخرج من الرواق الخلفي، توقفت، راحت تراقبهم، ثم هبطت التل. بدأت تركض.

قال بوباي: «ألم أقل لك أن تذهب إلى ذلك الدرب».

قال تومي: «أنا وهو توقفنا هنا لدقيقة فحسب».

«ألم أقل لك أن تذهب إلى ذلك الدرب، أم لم أفعل؟».

قال تومي: «أجل. قلت لي». التفت بوباي ومضى دون أن يتوجه إلى غووان ولا حتى بنظرة عجلى. لحق به تومي. كان ظهره ما يزال يهتز من المرح. قابلت تمبل بوباي عند منتصف الطريق إلى المنزل. وبدون أن تكفّ عن الركض بدا عليها أنها تتوقف. حتى معطفها الخافق لم يستطع إدراكها، ومع ذلك ولبرهة ممكن تقديرها واجهت بوباي بتكشيرة من الغنج المتوتر بأسنان بارزة. لم يتوقف هذا، كان التباهي صعب الإرضاء لظهره النحيل من النوع الذي لا يتردد. ركضت تمبل مجدداً. مرت بتومي وأمسكت بذراع غووان.

«غووان، أنا خائفة. قالت لي إن عليّ ألاّ... لقد عدتَ لتشرب مرة أخرى، بل أنت لم تغسل الدم عنك حتى... تقول إن علينا أن نبتعد عن هذا المكان... «كانت عيناها سوداوين تماماً، ووجهها صغيراً وشاحباً في الغسق، نظرت إلى المنزل. كان بوباي قد التفّ من حول الركن للتو». إنها مضطرة للسير على طول الدرب إلى نبع لجلب الماء، هي... لديهم طفل صغير في منتهى الروعة في صندوق خلف الموقد. غووان، قالت لي ألا أبقى هنا بعد أن يحل الظلام. قالت إن علينا أن نطلب منه المساعدة. لديه سيارة. قالت إنها لا تظن أنه..».

قال غووان: «نطلب ممن؟» كان تومي يلتفت لينظر إليهما. ثم تابع السير.

«ذلك الرجل الأسود. قالت إنها لا تظن أنه سيفعل، ولكنه قد يفعلها. هيا بنا». ذهبا باتجاه المنزل. كان هناك ممر يؤدي إلى الواجهة من حول المنزل. وجدا السيارة وقد أوقفت بين الممر والمنزل، بين الأعشاب العالية. واجهت تمبل غووان مجدداً، ويدها فوق باب السيارة، همست، وهي تحدق فيه وتربت بيدها على جانب السيارة: «لن يستغرق الأمر منه زمناً طويلاً في هذه السيارة. أعرف فتى في مدينتي لديه مثلها. إنها تسير بسرعة ثمانين. كل ما عليه فعله هو أن يقود بنا السيارة إلى أي بلدة قريبة، لقد قالت لي هذا على أساس أننا زوجان، وكان عليّ أن أقول إننا كذلك. عليه أن يوصلنا إلى محطة للسكة الحديد فحسب. ربما هناك واحدة أقرب من جفرسون».

قال غووان: «أوه، عليّ أنا أن أقوم بهذا الطلب، أليس كذلك؟ أنت مجنونة تماماً. هل تظنين أن ذلك القرد سيقبل؟ أفضل البقاء هنا أسبوعاً على الذهاب إلى أي مكان معه».

«هي من قال ذلك. طلبت مني عدم البقاء معه».

«أنت مخبّلة إلى حد العته. هيا بنا».

«ألن تطلب منه ذلك؟ لن تفعل؟».

«كلا. انتظري حتى يأتي (لي)، كما أقول لك. سيدبر لنا سيارة».

تابعا السير في الممر. كان بوباي يتكئ على عمود، وهو يحارب لفافة. صعدت تمبل الدرج المحطم بسرعة. قالت: «قل لي، ألن توصلنا بالسيارة إلى المدينة؟».

التفت برأسه، واللفافة في فمه، وعود الكبريت ضمن تجويف يديه. كان فم تمبل قد ثبت على تلك التكشيرة المتذللة. أمال بوباي اللفافة على العود. قال: «لا».

قالت تمبل: «بالله عليك، كن ذا روح رياضية. لن يستغرق منك الأمر الكثير من الوقت في سيارة الباكارد تلك. ما رأيك؟ سندفع لك».

أخذ بوباي نفساً من اللفافة. رمى العود بين الأعشاب. قال بصوته الناعم البارد: «اجعل مومسك تكف عن إزعاجي يا جاك».

تحرك غووان باضطراب، شأن حصان أخرق لين الطبع نُخس فجأة.

قال: «انتبه إلي الآن». نفث بوباي دخان اللفافة، فانطلق الدخان إلى الأسفل في دفقتين نحيلتين. قال غووان: «لا أحب ذلك. هل تعرف مع من تتكلم؟» تابع تحركه بذلك الاضطراب وكأنه لا يستطيع التوقف ولا إتمام الحركة. «لا أحب ذلك». التفت بوباي برأسه ونظر إلى غووان. ثم توقف عن النظر إليه وقالت تمبل فجأة:

«في أي نهر وقعت وأنت ترتدي هذه البذلة؟ هل تضطر إلى حلاقتها ليلاً؟» ثم بدأت تتحرك نحو الباب ويد غووان على نقرة ظهرها، ورأسها مرتدة إلى الخلف وكعباها يقعقعان. اتكأ بوباي دون حراك على العمود، ورأسه ملتفت فوق كتفه فظهر في صورة جانبية.

هسهس غووان: «هل تريدين..».

صرخت تمبل: «أنت أيها الشيء العتيق الحقير! أنت أيها الشيء العتيق الحقير!».

دفعها غووان إلى داخل المنزل. قال: «هل تريدين منه أن يقتلع رأسك اللعينة عن عنقك؟».

قالت ممبل: «أنت تخاف منه! أنت خائف!».

قال غوون: «إخرسي!». بدأ يهزها. راحت أقدامهما تزحط على الأرضية وكأنهما يؤديان رقصة خرقاء، وبينما كانا يتشبثان الواحد بالآخر، اصطدما بالجدار. قال: «انتبهي، فأنت تجعلين كل ذلك الشراب يهيجني مجدداً». حررت نفسها وركضت. اتكأ على الجدار وراقب صورتها الظلية وهي تهرع خارجة من الباب الخلفي.

دخلت المطبخ مسرعة. كان معتماً باستثناء شق من النور يخرج من باب الموقد. اندفعت وخرجت مسرعة من الباب ورأت غووان يهبط التلة باتجاه الحظيرة. فكرت: سيشرب المزيد، سيثمل مرة أخرى. هذا يعني أنه سكر ثلاث مرات في هذا اليوم. كان المزيد من الغسق قد أغرق البهو. وقفت على رؤوس أصابعها، وهي تصغي، وتفكر: أنا جائعة. لم أتناول شيئاً من الطعام طوال هذا اليوم؛ فكرت بالكلية، بالنوافذ المضاءة، والأزواج الذين يتمشون ببطء نحو صوت جرس العشاء، وبأبيها الجالس على الرواق في البيت، وقدماه فوق الدرابزون، وهو يراقب زنجياً يجز حشائش المرجة. تحركت بهدوء على رؤوس أصابعها. في الركن قرب الباب، كانت بندقية الصيد مسندة إلى الجدار فحشرت نفسها في الركن إلى القرب منها وبدأت تبكي.

توقفت على الفور عن البكاء وحبست أنفاسها. كان شيء ما يتحرك خلف الجدار الذي كانت تتكئ عليه. عبر الغرفة بأصوات صغيرة متعثرة، يسبقه صوت دقات صماء. دخل إلى البهو وصرخت هي، وقد شعرت برئتيها تفرغان بعد أن زفرت كل الهواء المحبوس فيهما، وكان حجابها الحاجز يعاني من الجهد بعد أن فرغ صدرها من الهواء، وراحت تراقب الرجل العجوز يعبر البهو مهرولاً بخطوات سريعة دون انتظام، والعصا في يد بينما مرفق الذراع الأخرى مثني بزاوية حادة

من منتصف جسمه. ركضت، وتجاوزته... كان جسماً معتماً ومنفرشاً واقفاً عند جانب الرواق... ودخلت هي عدواً إلى المطبخ ووثبت نحو الركن الذي خلف الموقد. جثمت هناك وأخرجت الصندوق، وجذبته إليها. لمست بيدها وجه الطفل، ثم رمت بذراعيها من حول الصندوق، متشبثة به، محدقة عبره نحو الباب الباهت ومحاولة أن تصلّي. ولكنها لم تستطع أن تفكر ولو باسم واحد للأب السماوي، لذلك بدأت تقول: «أبي قاض، أبي قاض» المرة إثر الأخرى حتى دخل غودوين بخفة إلى المطبخ. أشعل عود ثقاب ورفعه فوق رأسه وراح ينظر إليها حتى وصل اللهب إلى أصابعه.

قال: «هاهه». سمعت صوت قدميه الخفيف والسريع مرتين، ثم لمست يده وجنتها ورفعها من خلف الصندوق من قذالها، كأنها قطة صغيرة. قال: «ما الذي تفعلينه في منزلي؟».

الفصل السابع

من مكان ما إلى ما وراء البهو المضاء بمصباح استطاعت أن تسمع الأصوات... كلمة ما؛ وبين الحين والآخر ضحكة ما: الضحكة الجافة الساخرة لرجل يصيبه المرح بسهولة بسبب شبابه أو شيخوخته، وهي تختلط مع دمدمة اللحم الذي يُقلى على الموقد حيث كانت تقف المرأة. سمعت مرة اثنين منهم يعبران البهو بأحذيتهما الثقيلة، وبعد برهة سمعت قعقعة المغرفة في الدلو المطلي بالزنك والصوت الذي ضحك، وهو يشتم. وبينما راحت تشد عليها سترتها، حدقت من حول الباب بالفضول الكبير المرتبك لطفلة، وشاهدت غووان ورجلاً ثانياً في بنطال خاكي اللون. إنه يسكر مجدداً، هكذا فكرت. لقد سكر أربع مرات منذ أن غادرنا تايلور.

قالت: «هل هو أخوك؟».

قالت المرأة: «من؟ هو ماذا؟» قلبت اللحم على المقلاة المهسهسة.

«ظننت أنه ربما يكون أخاك الصغير هنا».

قالت المرأة: «يا إلهي». قلبت اللحم بشوكة سلكية. «لا آمل ذلك».

قالت تمبل وهو تحدق من حول الباب: «أين أخوك؟ لديّ أربع إخوة. اثنان يعملان كمحاميين وآخر صحفي. الرابع ما يزال يتابع دراسته في جامعة ييل. أبي قاضٍ. القاضي دريك في بلدة جاكسون."

فكرت بأبيها وهو جالس في الشرفة، في بذلة من الكتان، ومروحة تشبه سعفة نخيل في يده، وهو يراقب الزنجي يجز حشائش المرجة.

فتحت المرأة الفرن ونظرت إلى داخله. «لم يطلب منك أحد أن تأتي إلى هنا. لم أطلب منك البقاء. قلت لك أن ترحلي قبل أن يحل الظلام».

«كيف كنت سأستطيع فعل ذلك؟ لقد طلبت منه ذلك. ولكن غووان رفض، لذا كان عليّ أن أطلب من الآخر».

أغلقت المرأة باب الفرن والتفتت ونظرت إلى تمبل، وظهرها إلى النور. «كيف استطعت ذلك؟ أتعرفين كيف أحصل على الماء؟ أنا أمشي لأحصل عليه. أمشي ميلاً كاملاً. ست مرات في اليوم. احسبي كم ميلاً أمشي. ليس لأني في مكان ما أخشى من البقاء فيه». مضت نحو الطاولة وتناولت علبة تبغ وأخرجت لفافة منها.

قالت تمبل: «هل لي أن أحصل على لفافة؟» رمت المرأة بالعلبة على امتداد الطاولة. أزاحت زجاجة القنديل وأشعلت لفافتها من الفتيل. أمسكت تمبل بالعلبة ووقفت تصغي إلى غووان والرجل الآخر وهما يعودان إلى المنزل. قالت بصوت منتحب وهي تراقب اللفافة وهي تتكسر ببطء بين أصابعها: «هناك الكثير جداً منهم. ولكن ربما مع الوجود الكثير جداً منهم...». كانت المرأة قد عادت إلى الموقد. راحت تقلب اللحم. «ما يزال غووان يصر على أن يثمل مجدداً. لقد ثمل ثلاث مرات اليوم. كان ثملاً حين غادرت القطار في تايلور وأنا في فترة خضوع للتجربة وقلت له ما الذي سيحدث وحاولت أن أجعله يرمي المرطبان بعيداً، وعندما توقفنا في ذلك المخزن الريفي الصغير لشراء قميص شرب حتى ثمل مرة أخرى. لذلك لم نتناول طعاماً، وتوقفنا في دمفريز ودخل هو إلى المطعم، ولكني كنت شديدة القلق فلم أستطع أن

آكل و لم أستطع إيجاده، ثم خرج من شارع آخر وشعرت أن الزجاجة كانت في جيبه قبل أن يبعد يدي بالقوة. وظل يقول إني أخذت منه قداحته ثم حين فقدها بالفعل وقلت له إنه ضيعها، أقسم أنه لم تكن له قداحة طوال حياته».

هسهس اللحم وبقبق في المقلاة. قالت تمبل: «لقد ثمل ثلاث مرات مختلفة، ثلاث مرات مختلفة في يوم واحد. قال بودي – أو هيوبرت وهو أصغر إخوتي – إنه لو حدث وأمسك بي مع رجل ثمل، فسيضربني ضرباً مبرحاً. وأنا الآن بصحبة رجل يسكر ثلاث مرات في يوم واحد». بدأت تضحك وهي تستند بقفاها على الطاولة ويدها تسحق اللفافة. قالت: «ألا تظنين أن هذا مثير للضحك؟» ثم توقفت عن الضحك، واستطاعت سماع صوت المصباح المهمهم، واللحم في المقلاة، وهسهسة الغلاية على الموقد، والأصوات، الأصوات الذكرية الخشنة والجافة والخالية من المعنى آتية من المنزل. «وأنت عليك أن تطبخي لهم جميعاً كل ليلة. كل أولئك الرجال يتناولون الطعام هنا، والمنزل ممتلئ بهم ليلاً، في الظلام...» رمت باللفافة المسحوقة. «هل لي أن أحمل الطفل؟ أعرف كيف أفعل ذلك. سأحمله جيداً». أسرعت إلى الصندوق، وانحنت، ورفعت الطفل النائم. فتح عينيه وبدأ يبكي. «هيا، هيا، تمبل من يحملك». راحت تهزهزه، ثم رفعته عالياً ودون براعة بذراعيها النحيلتين. قالت وهي تنظر إلى ظهر المرأة: «اسمعيني، هل لك أن تطلبي منه؟ أعني زوجك؟ يمكنه أن يحصل على سيارة ويقلّني إلى مكان ما. هل لك؟ هل لك أن تطلبي منه؟» كان الطفل قد توقف عن البكاء، وقد كشف جفناه اللذان بلون الرصاص عن خيط رفيع ينزل من مقلة العين. قالت تمبل: «لست خائفة. أمور كهذه لا تحدث. هل تحدث؟ هؤلاء الأشخاص هم مثل الناس الآخرين. وأنت مثل الناس الآخرين تماماً. لديك طفل صغير. وعلاوة على ذلك، أبي

قا... قاض. والحا... الحاكم يأتي إلى منزلنا ليتناول الطعام... يا له من طف... طفل جذاب». راحت تعول، ورفعت الطفل إلى وجهها. [قالت بلغة طفولية]: «إذا آذى الرجال الشريرون تمبل، فنحن سنبلغ جنود الحاكم، أليس كذلك؟».

قالت المرأة وهي تقلب اللحم: «مثل أي رجال؟ هل تعتقدين أن (لي) لا عمل له سوى مطاردة كل واحدة من....ك الصغيرات الرخيصات؟» فتحت باب الموقد ورمت لفافتها فيه ثم أغلقت الباب بقوة. حين مرغت تمبل أنفها بالطفل كانت قد دفعت بقبعتها نحو مؤخر رأسها بزاوية فاجرة خطيرة فوق خصل شعرها المتكتلة. «لم أتيتِ إلى هنا؟».

«إنه غووان. لقد رجوته. كان قد سبق لنا وفوّتنا مباراة الكرة، ولكني توسلت إليه أن يوصلني إلى ستاركفيل قبل أن ينطلق القطار الخاص برحلة العودة، حتى لا يعرفوا أني لم أكن من ركابه، فأولئك الذين شاهدوني وأنا أنزل منه لن يخبروا أحداً. ولكنه رفض ذلك. قال إننا سنتوقف هنا لدقيقة فحسب للحصول على المزيد من الويسكي، وكان ثملاً حتى آنذاك. لقد سكر مرة أخرى منذ أن غادرنا تايلور وأنا في فترة خضوع للتجربة، وأبي سيموت لو عرف ما حصل. ولكن غووان رفض ذلك. سكر مرة أخرى بينما كنت أتوسل إليه أن يوصلني إلى أي بلدة ويطلق سراحي».

قالت المرأة: «خضوع للتجربة؟».

«هذا بسبب تسللي خارجاً في الليل. لأن فتيان المدينة هم الوحيدون الذين يسمح لهم باستخدام السيارات، وحين يكون لديكِ موعد مع فتى من المدينة يوم الجمعة أو السبت أو الأحد، فإن الفتيان في الكلية

لا يمكنهم أن يواعدوك لأنهم لا يستطيعون الحصول على سيارات. لذا كنت أتسلل خفية. والفتاة التي لم تكن تحبني أبلغت عميد الكلية، وذلك لأني واعدت فتى كانت تحبه وهو لم يطلب منها أبداً أي موعد. لذا وضعتُ تحت الخضوع للتجربة».

قالت المرأة: «لو لم تتسللي ما كنت ستضطرين إلى ركوب السيارة. أليس كذلك؟ والآن بما أنك تسللت مرات كثيرة، فأنت تبكين».

«غووان ليس فتى من المدينة. إنه من جفرسون. لقد ذهب إلى فرجينيا. إنه يكرر الكلام حول كيف أنهم علّموه كيف يشرب مثل شخص جنتلمان، وأنا رجوته أن يطلق سراحي في أي مكان، وأن يقرضني ما يكفي من النقود لأشتري بطاقة القطار فلم يكن معي سوى دولارين، ولكنه..».

قالت المرأة: «أوه، أعرف النساء اللواتي من نوعك. نساء محترمات وشريفات. خيّرات إلى حدّ لا يكون لديهن معها أي علاقة بالعامة من الناس. سوف تتسللين ليلاً مع الفتيان، ولكنك تتركين رجلاً يرافقك». قلبت اللحم. «خذي كل ما تستطيعين الحصول عليه، ولا تعطي أي شيء. أنا فتاة طاهرة. أنا لا أفعل ذلك. أنت تتسللين مع الفتيان وتحرقين بنزينهم وتأكلين طعامهم، ولكن دَعِي فحسب رجلاً واحداً ينظر إليك فأنت سيغشى عليك لأن أباك قاض وإخوتك الأربعة قد لا يعجبهم ذلك. ولكن لو علقت بورطة ما، فإلى من تلجئين باكية؟ إلينا، نحن الذين لسنا جيدين بما فيه الكفاية لربط شريط الحذاء كلّيّ القدرة للقاضي». حدقت تمبل عبر الطفل نحو ظهر المرأة، ووجهها أشبه بقناع شاحب صغير تحت القبعة المتقلقلة.

«قال أخي إنه سيقتل فرانك. لم يقل إنه سيجلدني لو أمسك بي وأنا

بصحبته؛ قال إنه سيقتل ابن الحرام اللعين وهو في عربته الصفراء، وشتم أبي أخي وقال إنه قادر على التحكم بأسرته لفترة أطول، واصطحبني بالسيارة إلى البيت وحبسني في غرفتي، ثم مضى إلى الجسر لينتظر فرانك. ولكنني لم أكن جبانة. تسلقت على الميزاب نزولاً واعترضت سبيل فرانك وأخبرته بما حدث. رجوته أن يرحل، ولكنه قال إن علينا أن نرحل معاً. حين ركبنا العربة مرة أخرى، عرفت أنها كانت المرة الأخيرة. عرفت ذلك ورجوته مرة أخرى أن يرحل، ولكنه قال إنه سيوصلني إلى البيت لأحضر حقيبة ملابسي وسوف نخبر أبي بذلك. لم يكن هو بالجبان أيضاً. كان والدي جالساً على الرواق. قال: «ترجلي من العربة»، وترجلتُ، ورجوت فرانك أن يتابع السير، ولكنه ترجل أيضاً، ومشينا حتى الممر، ودخل أبي وأحضر بندقية الصيد. وقفت أمام فرانك وقال أبي: «هل تبغين الموت أنت أيضاً؟» وحاولتُ أن أبقى أمام فرانك، ولكنه دفعني ووضعني خلفه، وأمسك بي، وأطلق أبي النار عليه وقال: «انزلي وكلي قذارتك أيتها المومس»».

همست تمبل وهي تحمل الطفل النائم بين ذراعيها المرتفعتين النحيلتين، وهي تنظر إلى ظهر المرأة: «لقد دعيتُ بذلك الاسم».

«ولكن أنتن النساء الصالحات، أنتن يا من تمارسن الألعاب الرخيصة. لا تدفعن أي ثمن؛ ومن ثم حين يتم الإمساك بكنّ... هل تعرفين فيما ورطت نفسك الآن؟» نظرت من فوق كتفها، والشوكة في يدها. «هل تظنين أنك تقابلين فتية الآن؟ الفتية الذين لا يكترثون سواء أحببت ذلك أم لا؟ دعيني أخبرك من هو صاحب المنزل الذي دخلته دون أن يدعوك أحد أو يريدك أحد؟ ممّن تتوقعين أن يترك كل شيء، ويعيدك إلى المكان الذي ما كان عليك أن تغادريه. حين كان جندياً في الفيليبين، قتل جندياً آخر لتنافسهما على واحدة من أولئك الزنجيات فأرسل إلى

سجن ليفنويرث. ثم جاءت الحرب وأفرجوا عنه ليشارك فيها. وقد نال ميداليتين، وحين انتهت الحرب أعادوه إلى ليفنويرث حتى استطاع المحامي أن يقنع عضو كونغرس بإخراجه. وعندها استطعت أن أتوقف عن العمل كفتاة شوارع مجدداً..».

همست تمبل، وهي تمسك بالطفل، وتبدو هي نفسها لا شيء أكثر من طفلة جرى تطويلها ولها ساقان طويلتان بالمقارنة مع جذعها، وذلك بثوبها الضئيل وقبعتها المائلة إلى الأعلى: «فتاة شوارع؟».

قالت المرأة: «أجل يا ذات الوجه المصنوع من الطلاء الصقيل! كيف تفترضين أني استطعت أن أدفع للمحامي؟ وهذا هو ذلك النوع من الرجال الذي ستظنين أنه يهتم كثيراً... «وبالشوكة في يدها اقتربت من تمبل وفرقعت بأصابعها بخفة وخبث في وجه تمبل»...بما سيحدث لك، أيتها المومس الصغيرة ذات الوجه الأشبه بوجوه الدمى، والتي تظنّ أنها لا تستطيع الدخول إلى غرفة فيها رجل دون أن... «تحت ثوبها الباهت الألوان تحرك صدرها بعمق وامتلاء. وبينما وضعت يديها على ردفيها وراحت تنظر إلى تمبل بعينين باردتين ومتألقتين». رجل، أنت لم يسبق لك أن شاهدت رجلاً حقيقياً. أنت لا تعرفين ما معنى أن تكوني مرغوبة من رجل حقيقي. واشكري حظك أنك لم تكوني ولن تكوني، لأنك عندئذ ستكتشفين ما هي قيمة هذا الوجه المصنوع من الطلاء الصقيل، وخلال ما يتبقى من الأمر ستظنين أنك تغارين منه بينما أنت خائفة منه. وإن كان رجلاً بما فيه الكفاية ليدعوك بالمومس، ستقولين أجل أجل، وسوف تزحفين عارية في التراب والقذارة من أجل أن يدعوك بتلك الكلمة... أعطني ذلك الطفل. «أمسكت تمبل الطفل، وهي تحدق إلى المرأة، وفمها يتحرك وكأنها كانت تقول أجل أجل أجل. رمت المرأة بالشوكة على الطاولة. قالت وهي تحمل الطفل:

«تحرري». فتح الطفل عينيه وبكى. سحبت المرأة كرسياً وجلست، والطفل في حضنها. قالت: «هل لك أن تناوليني واحداً من تلك الحفاضات المنشورة على ذلك الحبل هناك؟» وقفت تمبل فول الأرضية وشفتاها ما تزالان تتحركان. قالت المرأة: «أنت تخافين من الخروج إلى هناك، أليس كذلك؟» نهضت المرأة.

قالت تمبل: «كلا، سأجلبه..».

«سأجلبه أنا». تشحوط الحذاء الرجالي الثقيل على أرض المطبخ. عادت وسحبت كرسياً آخر وقربته من الموقد، ونشرت الخرقتين المتبقيتين واللباس الداخلي عليه، ثم جلست مجدداً ووضعت الطفل على حضنها. أعول. قالت: «اسكت، اسكت الآن». اكتسب وجهها تحت نور المصباح خاصية هادئة ومتأملة. غيرت حفاض الطفل وأعادته إلى الصندوق. ثم تناولت صحناً من خزانة ذات ستارة مصنوعة من كيس خيش جرى تقسيمه وأخذت الشوكة وتقدمت ونظرت إلى وجه تمبل مرة أخرى.

قالت: «اسمعي. لو حصلت على سيارة لك، فهل سترحلين من هنا؟» حركت تمبل فمها وهي تحدق إليها وكأنها تقوم بتجارب على الكلمات وتختبرها. «هل لك أن تخرجي وتدخلي إلى السيارة وترحلي وألا تعودي أبداً إلى هنا؟».

همست تمبل: «أجل. أي مكان. أي شيء».

ودون أن يبدو أنها حركت عينيها الباردتين إطلاقاً، نظرت المرأة إلى تمبل من أعلاها إلى أسفلها. استطاعت تمبل أن تشعر بعضلاتها وهي تتقلص كما يحدث لأغصان الكرم المقطوعة تحت شمس الظهيرة.

قالت المرأة بلهجتها الهادئة الباردة: «أنت أيتها الحمقاء الصغيرة المسكينة والضعيفة. أنت تعبثين معي».

«كلا، لم أفعل. لم أفعل».

«سيكون لديك شيء ما تقولينه لهم الآن، حين تعودين. أليس كذلك؟» كانت صوتاهما، وهما متقابلتان وجهاً لوجه، أشبه بظلال فوق جدران فارغة متقاربة.

«أنت تعبثين معي».

«أي شيء. كل ما أريده هو الرحيل من هنا. أي مكان آخر».

«لست أخشى من (لي). هل تظنين أنه سيلاحق أي مومس صغيرة جذابة تمر من هنا؟ أنا أخشاك أنت».

«أجل، سأذهب إلى أي مكان».

«أعرف صنفك بين النساء. لقد رأيتهن. كلهن في حالة عدو، ولكنهن لا يسرعن كثيراً. لا يسرعن كثيراً حتى لا يخطئن حين يرين رجلاً حقيقياً. هل تعتقدين أنك حصلت على الرجل الحقيقي الوحيد في العا لم؟».

همست تمبل: «غووان. غووان».

همست المرأة وشفتاها لا تتحركان إلا ما ندر بصوتها الهادئ غير المنفعل: «لقد كدحتُ كالعبيد من أجل هذا الرجل». كأنما كانت تكرر وصفة لصنع الخبز. «عملتُ في النوبة الليلية كنادلة حتى أستطيع أن أزوره أيام الأحد في السجن. عشت لعامين في غرفة واحدة، أطبخ على منفثة غاز، لأني وعدتُه. كذبت عليه وكسبت المال لأخرجه من السجن، وحين أخبرته كيف كسبته، ضربني. والآن عليك أنت أن تأتي إلى هنا وأنت غير مرغوب فيك. لم يطلب منك أحد أن تأتي إلى هنا.

ولا يهتم أحد فيما إذا كنت خائفة أو لسنت كذلك. خائفة؟ ليست لديك الشجاعة لتكوني خائفة حقاً، أكثر من تلك الشجاعة المطلوبة للوقوع في الحب».

همست تمبل: «سأدفع لك. سيعطيني أبي المال." راحت المرأة تراقبها ووجهها ساكن، قاس كما كان وهي تتكلم. "سأرسل لك ثياباً. لديّ معطف فرو جديد. لقد ارتديته منذ عيد الميلاد فحسب. إنه كالجديد تماماً».

ضحكت المرأة. ضحك فمها، دون صوت، دون حركة من وجهها. «ثياب؟ كان لديّ ثلاثة معاطف فرو ذات مرة. أعطيت أحدها إلى امرأة في زقاق قرب حانة. ثياب؟ يا إلهي». التفتت فجأة. «سأحصل على سيارة. ابتعدي عن هذا المكان ولا تعودي أبداً. هل تسمعينني؟».

همست تمبل: «أجل». راحت تراقب المرأة تنقل اللحم إلى الطبق وتصب المرق الدسم فوقه، وهي ساكنة وشاحبة كالمسرنمة. أخرجت من الفرن مقلاة من الخبز الصغير المستدير الشكل ووضعته في طبق. همست تمبل: «هل أستطيع مساعدتك؟» لم تجب المرأة. حملت الطبقين وخرجت بهما. مضت تمبل إلى الطاولة وأخذت لفافة من العلبة ووقفت تحدق بغباء في المصباح. كان أحد جوانب المدخنة قد اسودّ وهناك صدع يمر عبرها بمنحنى فضي نحيل. أشعلت لفافتها من المصباح. عادت المرأة. أمسكت بركن تنورتها ورفعت إبريق القهوة المغطى بالسخام عن الموقد.

قالت تمبل: «هل يمكن لي أن آخذ هذا؟».

«كلا. تعالي لتنالي وجبة عشائك». خرجت.

وقفت ممبل عند الطاولة، واللفافة في يدها. كان ظل الموقد يسقط على الصندوق الذي ينام فيه الطفل. فوق الفراش المتكتل لم يكن ممكناً تمييزه إلا بسلسلة من الظلال الشاحبة في منحنيات صغيرة ناعمة، وذهبت ووقفت لتطل على الصندوق وهي تنظر إلى وجه الطفل الذي بلون الطلاء الصقيل وجفنيه المائلين إلى الزرقة. كانت همسة رقيقة من الظل قد غطت وجهه ومكثت ندية فوق جبينه. كانت يرفع ذراعاً نحيلة تقبع بكف أشبه بعقصة شعر قرب وجنته. انحنت ممبل فوق الصندوق.

همست ممبل: «سيموت». كان ظلها وهي منحنية يبدو للعيان عالياً فوق الجدار، ومعطفها عديم الشكل، وقبعتها مائلة بشكل شاذ فوق شعر بشع وحرّ. همست: «يا للطفل الصغير المسكين، يا للطفل الصغير المسكين». بدأت أصوات الرجال تعلو. سمعت وقع أقدام في البهو، وصرير كراسٍ، وصوت الرجل الذي ضحك بصوت أعلى، ثم ضحك مرة أخرى. التفتت، دون حراك مجدداً، وراقبت الباب. دخلت المرأة.

قالت: «اذهبي وتناولي عشاءك؟».

قالت ممبل: «السيارة. أستطيع الذهاب الآن وهم يتناولون الطعام».

قالت المرأة: «أي سيارة؟ اذهبي وتناولي الطعام. لن يمسّك احد بسوء».

«لست جائعة. لم أذق شيئاً اليوم. ولكني لست جائعة إطلاقاً».

قالت: «اذهبي وتناولي عشاءك».

«سأنتظر وآكل حين تأكلين أنت».

«اذهبي وتناولي عشاءك. عليّ البقاء هنا الليلة لأنجز بعض الأعمال».

الفصل الثامن

دخلت تمبل إلى غرفة الطعام من المطبخ، ووجهها مثبت في تعبير متذلل واسترضائي. كانت عمياء تماماً حين دخلت، وهي تمسك بسترتها من حولها، وقبعتها مرفوعة للأعلى وإلى الخلف بزاوية مستهترة. بعد برهة شاهدت تومي. اتجهت نحوه مباشرة، وكأنها كانت تبحث عنه طوال الفترة. تدخل شيء ما: ذراع قاسية. حاولت تجنبها، وهي تنظر إلى تومي.

قال غووان عبر المائدة وكرسيه يتحرك إلى الخلف مصدراً صوت احتكاك بالأرضية:

«إلى هنا، تعالي إلى هنا».

«في الخارج يا أخي»، قال الذي أوقفها، وقد ميزته على أنه ذاك الذي كان يضحك كثيراً. «أنت ثمل. تعالي إلى هنا يا شابة». كانت ذراعه القاسية قد طوقت خصرها. حاولت التخلص من ذراعه، وهي تبتسم لتومي ابتسامة عريضة. قال الرجل: «تزحزح يا تومي. أليس لديك أي تهذيب، أنت أيها النغل ذو الوجه الكامد؟» ضحك تومي بصوت عال، وأزاح كرسيه وهو يجره فوق الأرضية. شدّها الرجل إليه من خصرها. عبر المائدة وقف غووان، وهو يسند نفسه على المائدة. بدأت تقاوم، وهي تبتسم لتومي وتحاول التخلص من أصابع الرجل.

قال غودين: «توقف عن هذا يا فان».

قال فان: «على حضني هنا تماماً».

قال غودوين: «أطلق سراحها».

قال فان: «من سيجعلني أفعل ذلك؟».

قال غودوين: «أطلق سراحها». أصبحت حرة. بدأت تتراجع ببطء مبتعدة. تجنبتها المرأة وهي تدخل من خلفها حاملة طبق الطعام. غادرت تمبل الغرفة وهي ما تزال تبتسم بتلك التكشيرة المتألمة القاسية. في البهو دارت حول نفسها ثم ركضت. ركضت مغادرة الرواق، نحو الأعشاب وأسرعت في سيرها. ركضت حتى وصلت إلى الدرب وسارت فيه حوالي خمسين ياردة في العتمة، ثم ودون توقف، استدارت وركضت عائدة إلى المنزل وقفزت إلى الرواق وجثمت عند الباب في اللحظة التي كان فيها شخص ما يدخل البهو. كان ذاك هو تومي.

قال: «أوه، ها أنت هنا». دفع بشيء ما نحوها وبارتباك.

قال: «إليك».

همست: «ما هو؟».

«القليل من الطعام. أراهن على أنك لم تأكلي شيئاً منذ الصباح».

همست: «كلا. ليس منذ ذلك الحين حتى».

قال وهو يدس الطعام في يدها: «كلي القليل من الطعام وسوف تشعرين بتحسن. اجلسي هنا وكلي القليل حيث لن يزعجك أحد. اللعنة على أولئك الأشخاص».

استندت تمبل إلى الباب، عبر الشكل المعتم لتومي، ووجهها شاحب كوجه شبح صغير في النور المنكسر من غرفة الطعام. همست: «السيدة... السيدة..».

«إنها في المطبخ. هل تريدين مني أن أعود إلى هناك معك؟» في غرفة الطعام سمع صوت كرسي وهو يجر على الأرض. بين رفّات جفنيه رأى تمبل في الممر، بجسمها الرشيق والساكن للحظة وكأنها تنتظر دوراً متأخراً حتى تلحق به. ثم اختفت كظلّ من حول ركن المنزل. وقف عند الباب، وطبق الطعام في يده. ثم التفت برأسه ونظر نحو البهو وذلك في الوقت الملائم ليراها تسرع عبر العتمة نحو المطبخ. اللعنة على أولئك الأشخاص».

كان يقف هناك حين عاد الآخرون إلى الرواق.

قال فان: «لديه طبق فيه وجبة كاملة. إنه يحاول أن ينال مراده بطبق مليء بالطعام».

قال تومي: «أنال ماذا؟».

ضرب فان الطبق من يد تومي. التفت إلى غوروان. «ألا تحبه؟».

قال غوروان: «كلا. لا أحبه».

قال فان: «ما الذي ستفعله بشأنه؟».

قال غودوين: «فان».

قال فان: «هل تظنّ أنك كبير بما فيه الكفاية بحيث لا تحبه؟».

قال غودوين: «أجل أنا كذلك».

حين عاد فان إلى المطبخ لحق به تومي. توقف عند الباب وسمع فان في المطبخ.

قال فان: «تعالي نذهب في مشوار، يا صغيرتي».

قالت المرأة: «أخرج من هنا يا فان».

قال فان: «تعالي نذهب في مشوار صغير. أنا شخص طيب. ستشهد روبي بذلك».

قالت المرأة: «أخرج من هنا الآن. هل تريد مني أن أنادي على (لي)؟». وقف فان مقابل النور، في قميص وسروال بلون خاكي، ولفافة وضعها خلف أذنه على المنحنى الناعم لشعره الأشقر. وقفت تمبل وراءه خلف كرسي جلست فيه المرأة إلى الطاولة، وفمها مفتوح قليلاً وعيناها سوداوان تماماً.

حين عاد تومي إلى الرواق بالإبريق، قال لغودوين: «لم لا يتوقف هؤلاء الأشخاص عن مضايقة تلك الفتاة؟».

«من يضايقها؟».

«فان يفعل ذلك. إنها خائفة. لم لا يتركونها وشأنها؟».

«لا علاقة لك بهذا الأمر. لا تتدخل في هذا الأمر. هل تسمعني؟»

قال تومي: «على هؤلاء الأشخاص التوقف عن مضايقتها». قعد القرفصاء مستنداً إلى الجدار. كانوا يحتسون الشراب، ويمررون الإبريق جيئة وذهاباً فيما بينهم، ويتحدثون. أصغى إليهم دون اهتمام كاف، ولكنه كان يصغي إلى حكايات فان الفظة والغبية عن حياة المدينة باستمتاع، ويضحك عالياً بين الحين والآخر، ويشرب بدوره. كان وغووان هما المتحدثان، وكان تومي يصغي إليهما. همس لغودوين

الذي كان يجلس في كرسي إلى القرب منه: «هذان الاثنان سيتشاجران في النهاية. اصغ إليهما». كانا يتحدثان بصوت مرتفع؛ تحرك غودوين بسرعة وخفة بعيداً عن كرسيه، وقدماه تقرعان الأرضية بضربات خفيفة. شاهد تومي فان يقف وغودوين يستند منتصب القامة على مؤخرة كرسيّه.

قال فان: «لم أقصد أبداً أن..».

قال غودوين: «لا تقلها إذاً».

قال غووان شيئاً ما. فكر تومي: «يا لذاك الشخص اللعين. لا يمكنه حتى أن يقول المزيد».

قال غودوين: «أنت إخرس».

قال غووان: «كنت أفكر في التكلم عن..». تحرك، تمايل على الكرسي. وقع الكرسي أرضاً. تعثر غووان مصطدماً بالجدار.

قال فان: «يا للرب، سوف..».

قال غووان: «سادة...جينيا؛ لا أكترث...». أزاحه غودوين جانباً بضربة من قفا يده، وأمسك بفان. سقط غووان على الجدار.

قال غودوين: «حين أقول اجلس، فإني أعني ما أقول».

بعد ذلك ساد الصمت لفترة قصيرة. عاد غودوين إلى كرسيه.

بدأوا يتحدثون مجدداً، وهم يمررون الابريق، وراح تومي يصغي. ولكنه سرعان ما فكر بتمبل مجدداً. استطاع أن يشعر بقدميه تكشطان الأرضية وجسده كله يتلوى بألم حاد. همس لغودوين: «عليهم أن يتركوا تلك الفتاة في حالها. عليهم أن يتوقفوا عن مضايقتها».

قال غودوين: «ليس هذا من شأنك. دع كل شخص لعين منهم..».

«عليهم أن يتوقفوا عن مضايقتها».

خرج بوباي من الباب. أشعل لفافة. راقب تومي وجهه وهو يتوهج بين يديه، ووجنتيه في حالة امتصاص. تابع بعينيه المذنّب الصغير وهي يطير نحو الأعشاب. قال في نفسه: «هو أيضاً. اثنان منهم. كان جسمه يتلوى ببطء. «يا للمخلوقة الصغيرة المسكينة. فلأُلعن إن لم أكن أنوي أن اذهب إلى الحظيرة وأبقى هناك، وسأكون ملعوناً إن لم أفعل. نهض وقدماه لا تتركان أي صوت على أرض الرواق. نزل إلى الممر والتفّ من حول المنزل. كان هناك نور في النافذة هناك. قال وهو يتوقف: «ليس لدى أي شخص مصلحة في ذلك المكان. لا بد وأنها تمكث هناك». ومضى نحو النافذة ونظر إلى الداخل. كان الإطار قد أنزل إلى الأسفل. وفوق زجاج ناقص سُمّر لوح من القصدير الصدئ.

كانت تمبل جالسة بانتصاب على السرير، وساقاها مثنيتان تحتها، بينما وضعت يديها في حضنها، وقبعتها مائلة نحو مؤخر رأسها. بدت صغيرة جداً في الحجم، ووضعها الجسماني بحد ذاته ازدراء لعضلات ونُسُج فتاة يزيد عمرها عن السابعة عشرة، وأكثر ملاءمة لفتاة في سن الثامنة أو العاشرة؛ ومرفقاها قريبان من جانبيها، ووجهها ملتفت نحو الباب الذي ثُبت كرسي عليه. لم يكن في الغرفة سوى السرير بلحافه المصنوع من قطع مخيطة من القماش باهت اللون والكرسي. كانت الجدران قد طليت بالجص ذات مرة، ولكن الجص قد تشقق وتساقط في بعض الأماكن كاشفاً عن قطع الخشب الطويلة ومزق القماش العفن. على الجدار عُلق معطف واق من المطر ومطرة بغطاء خاكي.

بدأ رأس تمبل يتحرك. التفت ببطء، وكأنها تتابع مرور شخص

ما خلف الجدار. وقد تابع الالتفات حتى درجة موجعة، على الرغم من أنه لم تتحرك ولا عضلة واحدة، أشبه بواحدة من دمى عيد الميلاد المصنوعة من الورق المعجن المملوءة بالسكاكر، وبقيت تمبل ساكنة في تلك الوضعية. ثم التفتت إلى الخلف، ببطء، وكأنها تقيس وقع خطى غير مرئية ما وراء الجدار، ثم عادت لتنظر إلى الكرسي الذي على الباب وسكنت هناك لبرهة. ثم التفتت إلى الأمام وراقبها تومي وهي تأخذ ساعة يد صغيرة من أعلى جوربها وتنظر إليها. وبالساعة وهي في يدها، رفعت رأسها ونظرت مباشرة إليه، وعيناها هادئتان وفارغتان كثقبين. بعد فترة قصيرة، نظرت إلى الساعة مجدداً وأعادتها إلى جوربها.

نهضت عن السرير وخلعت سترتها ووقفت دون حراك، أشبه بسهم في ثوبها الضئيل، ورأسها منحن، ويداها مشبكتان أمامها. جلست على السرير مجدداً. جلست وساقاها متقاربتان ورأسها منحن. رفعت رأسها ونظرت من حولها في أرجاء الغرفة. كان تومي قادراً على سماع الأصوات القادمة من الرواق المعتم. ارتفعت الأصوات مرة أخرى، ثم تحولت إلى مجرد همهمة.

قفزت تمبل واقفة على قدميها. فكت أزرار ثوبها وذراعاها مقوستان ونحيلتان وعاليتان، وظلها يقلد حركاتها. وبحركة واحدة، كانت قد خلعته بالكامل، وانحنت قليلاً، نحيلة كعود الكبريت في ملابسها الداخلية الخفيفة التي لا تكاد تستر شيئاً من جسمها. برز رأسها مواجهاً الكرسي الذي على الباب. رمت بثوبها بعيداً، ويدها تمتد إلى السترة. تحسستها بأصابعها ثم لبستها بحركة سريعة، وهي تتفحص الأكمام. ثم، دارت حول نفسها وهي تمسك بالسترة عند صدرها ونظرت مباشرة إلى عيني تومي ثم دارت حول نفسها وركضت ورمت بنفسها على الكرسي. همس تومي: «اللعنة على أولئك الأشخاص».

حين نظر إلى داخل الغرفة مجدداً، كانت ممبل تتحرك باتجاهه، وهي تمسك بسترتها من حول جسدها. أخذت المعطف الواقي من المطر من على المسمار، وارتدته فوق سترتها وزرّرته. أنزلت المطرة وعادت إلى السرير. وضعت المطرة فوق السرير والتقطت ثوبها من على الأرض ومسحته بيدها وطوته بعناية ووضعته فوق السرير. ثم قلبت اللحاف وهي تكشف عن الفرشة. لم يكن هناك غطاء للسرير ولا وسادة، وحين لمست الفرشة أصدرت همسة ضعيفة جافة كأنها تصدر عن قشور الذرة.

نزعت حذاءها ووضعته فوق السرير وغطت نفسها باللحاف. استطاع تومي أن يسمع الفرشة وهي تطقطق. لم تستلق فوراً. جلست منتصبة وساكنة، والقبعة مائلة بخلاعة فوق مؤخر رأسها. ثم حركت المطرة والثوب والحذاء إلى جانب رأسها، وجذبت المعطف من حول ساقيها واستلقت وهي تشدّ اللحاف عليها، ثم جلست وأزاحت القبعة وهزت شعرها ووضعت القبعة مع الملابس الأخرى واستعدت للاستلقاء مجدداً. ومن جديد توقفت. فتحت المعطف وأخرجت علبة تجميل من مكان ما، وبينما راحت تراقب حركاتها في المرآة الصغيرة جداً، سرحت شعرها ونكشته بأصابعها وغطت وجهها بالمسحوق ثم أعادت علبة التجميل إلى مكانها ونظرت إلى ساعتها مرة أخرى وزررت المعطف. وضعت الملابس الواحد بعد الآخر تحت اللحاف واستلقت وشدت اللحاف إلى ما تحت ذقنها. كانت الأصوات قد هدأت لبرهة وفي الصمت استطاع تومي أن يسمع الثرثرة المتواصلة لقشور الذرة داخل الفرشة حيث كانت ممبل مستلقية، ويداها متصالبتان فوق صدرها وساقاها وقد تمددتا باستقامة وتراص واحتشام، مثل تمثال فوق ضريح قديم.

كانت الأصوات ساكنة؛ لقد نسيهم تماماً حتى سمع غودوين يقول:

«توقف! توقف عن هذا!» سمع كرسياً يتحطم. سمع قدمي غودوين الخفيفتين بصوتهما المكتوم، وطقطقة الكرسي على امتداد الرواق وكأنما كان شخص ما يرفسه جانباً. وسمع تومي وهو جاثم، ومرفقاه نحو الخارج كمن هو في وضعية قرفصة كما يفعل الدب، أصواتاً جافة وخفيفة مثل كرات البلياردو. قال غودوين: «تومي».

عند الضرورة كان قادراً على التحرك بتلك الخفة الكثيفة والسريعة كالبرق التي للغرير أو الراكون. وقد تمكن من الالتفاف من حول المنزل والوصول إلى الرواق في الوقت الملائم ليرى غووان يصطدم بالجدار ويسقط عليه ثم ينهار بكامل طوله من على الرواق نحو الأعشاب، وبوباي عند الباب، ورأسه مندفعة نحو الأمام. قال غودوين: «أمسك به هناك». قفز تومي على بوباي بهجوم مندفع.

قال بينما كان بوباي يضربه على وجهه بوحشية: «لقد أمسكت بك. ستتوقف أليس كذلك؟ ابق هنا».

توقف بوباي. «يا ليسوع المسيح. أنت تتركهم يجلسون هنا طوال الليل، وهم يتجرعون تلك المشروبات اللعينة. لقد سبق وأخبرتك. يا ليسوع المسيح».

كان لغودوين وفان ظل واحد، مقفل وساكت وغاضب. صرخ فان: «اتركني!» «سأقتل...» قفز تومي نحوهما. دفعا بفان على الحائط وجعلاه ساكناً تماماً دون حراك.

قال غودوين: «هل أمسكت به؟».

«أجل. لقد أمسكت به. أمسكته هنا. لقد ضربته أنت حقاً».

«أقسم بالله، سوف..».

«هيا، هيا، لماذا تريد قتله؟ لا يمكنك أن تأكله، هل يمكنك ذلك؟ تريد من السيد بوباي أن يبدأ بقتلنا جميعاً بمسدسه الآلي ذاك؟».

ثم انتهى كل شيء، شأن هبة مجنونة لريح سوداء، مما ترك فراغاً سلمياً تحركوا فيه بهدوء، فرفعوا غووان من بين الأعشاب بتوجيهات تبودلت ودياً فيما بينهم. حملوه إلى البهو، حيث كانت المرأة واقفة، وإلى باب الغرفة حيث كانت تمبل.

قال فان: «لقد أقفلت الباب. ضرب الباب بقوة. صرخ: «افتحي الباب. إننا نجلب لك زبوناً».

قال غودوين: «صه، لا يوجد قفل له. ادفعه».

قال فان: «بكل تأكيد». رفسه. انهار الكرسي وقفز إلى داخل الغرفة. فتح فان الباب ودخلوا، وفان يحمل ساقي غووان. رفس فان الكرسي عبر الغرفة. ثم رأى تمبل تقف في الركن خلف السرير. كان شعره قد تهدل على وجهه، طويلاً كشعر فتاة. دفعه إلى الخلف بحركة من رأسه. كانت ذقنه مدماة وبصق الدم عن عمد على الأرضية.

قال غودوين وهو يحمل كتفي غووان: «هيا، ضعه على السرير».

رميا بغووان على السرير. كان رأسه الدامي يتدلى من فوق حافته. دفعه فان ثم رماه على الفرشة بقوة. أنّ ورفع يده. ضربه فان على وجهه بكفه.

«فلتبق ساكناً أنت يا..».

قال غودوين: «دعه وشأنه». أمسك بيد فان. ولبرهة حملق واحدهما بالآخر في غضب.

قال غودوين: «قلتُ دعه وشأنه. اخرج من هنا».

همهم غووان: «عليّ حماية... الفتاة....جينيا جم... على السادة المهذبين حماية...».

قال غودوين: «عليك الخروج من هنا الآن».

وقفت المرأة في الباب قرب تومي، وظهرها مستند إلى إطار الباب. تحت سترتها الرخيصة كان ثوب نومها يصل إلى قدميها.

رفع فان ثوب تمبل عن السرير. قال غودوين: «يا فان، قلت لك أن تخرج من هنا».

قال فان: «سمعتك». هزّ الثوب. ثم نظر إلى تمبل في الركن، بذراعيها المتصالبتين ويديها اللتين تمسكان بكتفيها. تحرك غودوين نحو فان. أسقط هذا الثوب من يده ودار من حول السرير. وصل بوباي إلى الباب ولفافة بين أصابعه. قرب المرأة شهق تومي وهو يهسهس عبر أسنانه غير المنتظمة.

شاهد فان يمسك بالمعطف الواقي من المطر من عند صدر تمبل ويمزقه بعنف فينفتح. ثم قفز غودوين ليحول بينهما. شاهد فان ينحني بسرعة، ثم يدور، وتمبل تتلمس المعطف الممزق. كان فان وغودوين الآن في منتصف أرضية الغرفة، وهما يتبادلان الضربات. ثم راقب بوباي وهو يمشي باتجاه تمبل. وبزاوية عينه شاهد فان ممدداً على الأرض وغودوين يقف فوقه، وهو منحن قليلاً، مراقباً ظهر بوباي.

قال غودوين: «بوباي»، ولكن هذا تابع طريقه واللفافة تنفث الدخان من فوق كتفه، ورأسه ملتفتة قليلاً وكأنه لم يكن ينظر إلى حيث هو ذاهب، واللفافة مائلة وكأن فمه كان في مكان ما تحت انعطافة فكه. قال غودوين: «لا تلمسها».

توقف بوباي قبل الوصول إلى تمبل، ووجهه ملتفت جانباً بعض الشيء. كانت يده اليمنى في جيب سترته. تحت المعطف على صدر تمبل استطاع تومي أن يرى حركة اليد الأخرى وهي تفشي ظل حركة نحو المعطف.

قال غودوين: «أبعد يدك. حركها».

حرك بوباي يده. التفت ويداه في جيبي سترته، وهو ينظر إلى غودوين. عبر الغرفة وهو يراقب غودوين. ثم أعطاه ظهره وخرج من الباب.

قال غودوين بهدوء: «هيا يا تومي، أمسك بهذا». حملا فان وأخرجاه من الغرفة. تنحّت المرأة جانباً. استندت إلى الجدار وهي تلملم معطفها. عبر الغرفة وقفت تمبل وقد حشرت نفسها في الركن، وهي تتلمس المعطف الممزق. بدأ غووان يشخر.

عاد غودوين. قال: «الأجدر بك العودة إلى السرير». لم تتحرك المرأة. وضع يده على كتفها. «روبي».

«بينما تنهي أنت الحيلة التي بدأها فان وأنت لم تتركه ينهيها؟ أنت أيها الأحمق المسكين. أنت أيها الأحمق المسكين.

قال: «هيا بنا الآن»، ويده على كتفها. «عودي إلى الفراش».

«ولكن لا تعذْ. لا تكترث بالعودة. لن تجدني هناك. أنت لا تدين لي بشيء. لا تظنّ أنك تدين لي بشيء».

أمسك غودوين بمعصميها وأبعدهما الواحد عن الآخر باطراد. ثم جعل يديها تدوران ببطء واطراد لتصبحا خلفها وأمسكهما بإحدى

يديه. وباليد الأخرى فتح السترة. كان ثوب نومها مخرماً ومخيطاً من قماش الكريب القرنفلي اللون والباهت، وكان قد غُسل وغُسل حتى أضحت التخريمات فيه، كما الثوب الذي كان معلقاً على حبل الغسيل، كتلة من الألياف.

قال: «هاهه، لقد ارتديت ما هو ملائم للرفقة».

«من هو المسئول عن كون هذا الثوب هو الوحيد الذي في حوزتي؟ من المسئول؟ لست أنا. كنت أعطي أمثال هذا الثوب إلى الخادمات الزنجيات بعد ارتدائه لليلة واحدة فقط. ولكن هل تعتقد أن أي زنجية ستقبل بهذا الثوب دون أن تضحك في وجهي؟».

ترك السترة مفتوحة. أطلق يديها فلملمت السترة على جسدها. وبيده على كتفها بدأ يدفعها نحو الباب. قال: «هيا اذهبي». استسلم كتفها لضغطه. تحرك لوحده، بينما راح جسدها يدور على ردفيها، ووجهها مرتد إلى الخلف يراقبه. قال: «تابعي السير». ولكن جذعها التفت لوحده، بينما كفلها ورأسها ما يزالان يلمسان الجدار. التفت وعبر الغرفة ودار بسرعة من حول السرير وأمسك بتمبل من مقدمة المعطف بيد واحدة. بدأ يهزها. راح يهزها وهو ممسك بها من قماش المعطف المتجمع في يده، وجسدها الصغير يقعقع دون صوت داخل المعطف الواسع، بينما تصطدم كتفاها وفخذاها بالجدار. قال: «أنت أيتها الحمقاء الصغيرة! أنت أيتها الحمقاء الصغيرة!» كانت عيناها واسعتين تماماً، وسوداوين تقريباً، ونور المصباح على وجهها والانعكاسان الصغيران جداً لوجهه في بؤبؤي عينيها أشبه بحبتي بازلاء في دواتين.

أطلق سراحها. بدأت تنهار على الأرض، والمعطف يصدر حفيفاً من

حولها. أمسك بها ورفعها وراح يهزها مجدداً، وهو ينظر من فوق كتفه إلى المرأة. قال: «أحضري المصباح». لم تتحرك المرأة. كانت رأسها مطأطئة قليلاً. بدت وكأنها تتأملهما. وضع غودوين يده الأخرى تحت ركبتي تمبل. أحست بأنه سيغمى عليها، ثم وجدت نفسها تستلقي على السرير إلى جانب غووان، وهي على ظهرها، تتقافز مع الاصطكاك المتلاشي لقشور الذرة. راقبته وهو يعبر الغرفة ويرفع المصباح عن رف المدفأة. كانت المرأة قد التفتت برأسها، وهي تلاحقه بنظرها أيضاً، ووجهها يصبح أكثر وضوحاً مع المصباح المقترب في صورة جانبية. قال: «هيا اذهبي». التفتت ووجهها يتحول إلى ظل، والمصباح يسقط نوره الآن على ظهرها ويده التي على كتفها. أعتم ظله الغرفة تماماً، وأغلق هو الباب بذراعه التي أعطت صورة ظلية متراجعة. شخر غووان، وكان كل نفس من أنفاسه يتوقف مختنقاً وكأنه لن يتنفس مرة أخرى.

كان تومي خارج الباب، في البهو.

سأل غودوين: «ألم يهبطوا إلى الشاحنة بعد؟».

قال تومي: «ليس بعد».

قال غودوين: «الأفضل أن تذهب وترى ما جرى». تابعا السير. راقبهما تومي يدخلان عبر باب آخر. ثم مضى هو إلى المطبخ، بصمت على قدميه الحافيتين، وعنقه ممدودة قليلاً وهو يصغي. كان بوباي جالساً في المطبخ، مفرشخاً على كرسي، وهو يدخن. كان فان واقفاً عند الطاولة، أمام شظية من مرآة، يمشط شعره بمشط جيب. فوق الطاولة كانت خرقة مبللة وملطخة بالدم ولفافة مشتعلة. كان تومي مقرفصاً خارج الباب في العتمة.

كان هناك حين خرج غودوين بالمعطف الواقي من المطر. دخل

غودوين المطبخ دون أن يراه. قال: «أين تومي؟» سمع تومي بوباي يقول شيئاً ما، ثم ظهر غودوين وفان يتبعه، والمعطف على ذراعه هو الآن. قال غودوين: «هيا بنا الآن. دعنا ننقل ذلك الشيء إلى الخارج».

بدأت عينا تومي الشاحبتان تلتمعان قليلاً، كعيني هرّ. استطاعت المرأة أن تراهما في العتمة حين زحف داخلاً إلى الغرفة بعد بوباي، وبينما كان بوباي يقف قرب السرير حيث كانت تمبل مستلقية. التمعتا فجأة من قلب العتمة باتجاهها، ثم تلاشتا، واستطاعت سماعه يتنفس إلى القرب منها. ومن جديد التمعتا باتجاهها بغضب وتساؤل وحزن ثم ابتعد مرة أخرى وزحف خلف بوباي وذاك يخرج من الغرفة.

رأى بوباي يعود إلى المطبخ، ولكنه لم يلحق به على الفور. بدأ جسده يتلوى من جديد في تردد مصدوم، وقدماه الحافيتان تهمسان فوق الأرضية بحركة ضعيفة متهزهزة وهو يتأرجح من جانب إلى آخر، ويفرك يديه ببطء على خاصرتيه. قال: «و(لي) أيضاً. و(لي) أيضاً. اللعنة على هؤلاء الأشخاص. اللعنة على هؤلاء الأشخاص». وتسلل مرتين على امتداد الرواق حتى استطاع أن يرى ظلّ قبعة بوباي على أرضية المطبخ، ثم عاد إلى البهو وإلى الباب الذي كانت تمبل مستلقية وراءه وغووان يشخر. في المرة الثالثة شم رائحة لفافة بوباي. قال وهو يتهزهز من جانب إلى آخر بألم موجع وكليل: «لو أنه يبقى على هذا المنوال فحسب. و(لي) أيضاً و(لي) أيضاً».

حين صعد غودوين المنحدر ودخل الرواق الخلفي، كان تومي مقرفصاً خارج الباب من جديد. قال غودوين: «يا للجحيم... لم لم تخرج؟ أنا أبحث عنك منذ عشر دقائق». حملق بغضب إلى تومي ثم نظر نحو المطبخ. قال: «هل أنت جاهز؟» جاء بوباي إلى الباب. نظر غودوين إلى تومي مرة أخرى. «ما الذي كنت تفعله؟».

نظر بوباي إلى تومي. انتصب تومي في وقفته الآن، وهو يحكّ مشط قدمه بالقدم الأخرى وينظر إلى بوباي.

قال بوباي: «ما الذي تفعله هنا؟».

قال تومي: «لا أفعل شيئاً».

«هل تلاحقني؟».

قال تومي: «لا ألاحق أحداً».

قال بوباي: «لا تفعل إذاً».

قال غودوين: «هيا بنا. فان ينتظر». مضيا. لحق بهما تومي. نظر مرة واحدة إلى الخلف باتجاه المنزل، ثم مشى متثاقلاً وراءهما. بين الحين والآخر، كان يشعر بذلك الجيشان الحاد يسيطر عليه، وكأن دمه كان يفور فجأة، ثم يبرد متحولاً إلى ذلك الشعور الحزين الدافئ الذي تمنحهم إياه موسيقى الكمان. همس: «اللعنة على هؤلاء الأشخاص، اللعنة على هؤلاء الأشخاص».

الفصل التاسع

كانت الغرفة معتمة. وقفت المرأة داخل الباب، قبالة الجدار، في السترة الرخيصة وثوب النوم الكريب ذي التخريمات، تماماً داخل الباب الذي لا قفل له. استطاعت أن تسمع غووان يشخر في السرير، والرجال الآخرين يتحركون في أرجاء المنزل، على الرواق وفي البهو والمطبخ، فيتبادلون الحديث وأصواتهم غير ممكن تمييزها عبر الباب. بعد فترة قصيرة، ساد الصمت. ثم ما عادت تستطيع سماع أي شيء إطلاقاً، باستثناء صوت غووان وصوت شهيقه وشخيره وأنينه عبر أنفه ووجهه المحطمين.

سمعت الباب وهو يُفتح. دخل الرجل، دون أن يحاول أن يكون صامتاً. دخل ومرّ على مسافة قدم منها. عرفت أنه غودوين قبل أن ينطق. مضى نحو السرير. قال: «أريد المعطف الواقي من المطر. اجلسي واخلعيه». استطاعت المرأة سماع قشور الذرة في الفرشة حين جلست تمبل في السرير وأخذ غودوين يخلع عنها المعطف. رجع عبر الغرفة وخرج.

وقفت داخل الباب تماماً. استطاعت أن تميزهم جميعاً بالطريقة التي كانوا يتنفسون بها. ثم، ودون أن تكون قد سمعت، فقد أحست أن الباب يُفتح، وبدأت تشم شيئاً ما: كان البريليانتين الذي يستخدمه بوباي ليلمّع به شعره. لم ترَ بوباي إطلاقاً حين دخل ومرّ بها. لم تكن

تعرف أنه دخل بعد. كانت تنتظره؛ حتى دخل تومي وهو يلحق ببوباي. زحف تومي وهو يدخل الغرفة، وأيضاً دون صوت. ما كانت لتميز أنه دخل أكثر من تمييزها لدخول بوباي، لولا عينيه. كانتا تومضان، بارتفاع الصدر، بتساؤل عميق، ثم اختفتا، واستطاعت المرأة عندها أن تشعر به وهو يقرفص إلى القرب منها؛ وعرفت أنه كان ينظر أيضاً إلى السرير الذي كان بوباي واقفاً إلى القرب منه في الظلام، والذي كانت تمبل وغووان يستلقيان عليه، وغووان يشخر ويشهق ويشخر. وقفت المرأة داخل الباب تماماً.

لم تستطع سماع أي صوت من قشور الذرة، لذا بقيت دون حراك قرب الباب، بينما تومي مقرفص إلى القرب منها، ووجهه نحو السرير غير المرئي. ثم شمت رائحة البريليانتين مجدداً. أو بالأحرى أحست أن تومي تحرك من مكانه إلى القرب منها، دون صوت، وكأن التفريغ المختلس لمكانه قد هبّ كنسمة ناعمة وباردة عليها في الصمت الأسود؛ ودون أن تراه أو تسمعه، عرفت أنه قد زحف خارجاً من الغرفة مجدداً، وهو يتبع خطى بوباي. سمعتهما يعبران البهو. كان آخر صوت قد تلاشى خارج المنزل. ذهبت إلى السرير. لم تتحرك تمبل حتى لمستها المرأة. ثم بدأت تقاوم. وجدت المرأة فم تمبل ووضعت يدها فوقه، رغم أن تمبل لم تحاول الصراخ. بقيت مستلقية فوق فرشة قشور الذرة، وهي تتقلب وتتلوى، وتدير رأسها من جانب إلى آخر، وهي تمسك بالسترة بقوة عبر صدرها ولكن دون أن يصدر عنها أي صوت.

قالت المرأة بهمسة نحيلة وضارية: «يا لك من حمقاء! هذه أنا. أنا وحسب».

توقفت تمبل عن تحريك رأسها من جانب إلى آخر، لكنها بقيت تتلوى بجسدها تحت يد المرأة. قالت: «سأحكي لأبي! سأحكي لأبي!»

أمسكت بها المرأة. قالت: «انهضي». توقفت تمبل عن المقاومة. استلقت بسكون إنما بتصلّب. استطاعت المرأة أن تسمع تنفسها العنيف. قالت: «هل لك أن تنهضي وتمشي بهدوء؟».

قالت تمبل: «أجل! هل لك أن تخرجيني من هذا المكان؟ هل لك ذلك؟».

قالت المرأة: «أجل. انهضي». نهضت تمبل وقشور الذرة تهمس. في العتمة الأبعد كان غووان يشخر، بضراوة وعمق. في البداية لم تستطع تمبل الوقوف لوحدها. أمسكت المرأة بها. قالت المرأة: «توقفي عن هذا. عليك أن تفعلي ذلك. عليك أن تبقي هادئة».

همست تمبل: «أريد ملابسي. لا أرتدي شيئاً سوى..».

قالت المرأة: «هل تريدين ملابسك، أم هل تريدين الخروج من هنا فحسب؟».

قالت تمبل: «أجل، إن كنت ستجعلينني أخرج من هنا فحسب».

وعلى أقدامهما الحافية تحركتا كشبحين. غادرتا المنزل وعبرتا الرواق واتجهتا نحو الحظيرة. حين أصبحتا على مسافة خمسين ياردة تقريباً من المنزل توقفت المرأة والتفتت وشدت تمبل إليها، وأمسكت بها من كتفيها، ووجهاهما متقاربان، ثم شتمت تمبل همساً، بصوت ليس أعلى من تنهيدة ومليء بالغضب. ثم دفعتها وتابعتا السير. ولجتا المدخل، كان مظلماً تماماً. سمعت تمبل المرأة وهي تتلمس الجدار. انفتح باب وهو يصدر صريراً. أمسكت المرأة بذراعها وقادتها صعوداً فوق درجة واحدة نحو غرفة مبلطة الأرضية حيث استطاعت أن تشعر بالجدران وتشم رائحة حبوب ضعيفة مغبرة، وأغلقت المرأة الباب من

خلفهما. وبينما كانت تفعل ذلك، اندفع شيء ما على نحو غير منظور إلى القرب منهما في حركات نكش سريعة، وهمسة متلاشية من قدمين كأنما هما قدما جنيّة. أصيبت تمبل بدوار، وهي تدوس شيئاً ما تدحرج تحت قدمها، وقفز نحو المرأة.

قالت المرأة: «إنه مجرد جرذ». ولكن تمبل رمت بنفسها على المرأة وعانقتها بذراعيها محاولة أن ترفع كلا قدميها عن الأرضية.

أعولت: «جرذ؟ جرذ؟ افتحي الباب! أسرعي!»

هسهست المرأة: «توقفي! توقفي!» أمسكت بتمبل حتى هدأت. ثم ركعتا جنباً إلى جنب مستندتين إلى الجدار. بعد فترة قصيرة، همست المرأة: «توجد بعض أكياس بذور القطن هناك. يمكنك الاستلقاء عليها». لم تجب تمبل. التصقت بالمرأة، وجسدها يرتعش ببطء، وبقيتا مقرفصتين هناك في العتمة السوداء مستندتين إلى الجدار.

الفصل العاشر

بينما كانت المرأة تحضر طعام الإفطار، كان الطفل ما يزال نائما، أو سبق له ونام في الصندوق خلف الموقد، سمعت صوتاً متعثراً يقترب عبر الرواق ويتوقف عند الباب. حين التفتت شاهدت الشبح المتوحش والمعطوب والدامي الذي ميزته على أنه غووان. كان وجهه تحت لحية يومين متميزاً وشفته مجروحة. كانت إحدى عينيه مغلقة ومقدمة قميصه وسترته ملطخة بالدماء حتى الخصر. وعبر شفتيه المتورمتين والمتصلبتين كان يحاول أن يقول شيئاً ما. في البداية لم تستطع المرأة فهم ولو كلمة واحدة. قالت: «اذهب واغسل وجهك. انتظر. ادخل إلى هنا واجلس. سأحضر الطست».

نظر إليها وهو يحاول أن ينطق. قالت المرأة: «أوه، إنها بخير. إنها هناك في الأسفل في المذود، نائمة. بقيت معها حتى الفجر. اذهب واغسل وجهك الآن».

أصبح غووان أهدأ قليلاً الآن. بدأ يتحدث عن الحصول على سيارة.

قالت المرأة: «أقرب سيارة ستكون عند دكان (تَل)، على مسافة ميلين من هنا. اغسل وجهك وتناول بعض الفطور».

دخل غووان إلى المطبخ، وهو يتحدث عن الحصول على سيارة. سأحصل على سيارة وأعيدها إلى الكلية. ستقوم واحدة من الفتيات

الأخريات بمساعدتها على التسلل. سيكون الأمر حسناً جداً آنئذ. ألا تظنين ذلك؟» اقترب من الطاولة وتناول لفافة من العلبة وحاول إشعالها بيديه المرتجفتين. وجد صعوبة في وضعها في فمه، ولم يستطع إشعالها إطلاقاً حتى اقتربت المرأة وأمسكت له عود الثقاب. ولكنه أخذ نفساً واحداً فحسب، ثم وقف وهو يحمل اللفافة بيده، وينظر إليها بعينه الواحدة السليمة بنوع من الدهشة الكاملة، ثم رمى باللفافة بعيداً والتفت نحو الباب، وهو يترنح ويحاول أن يتماسك. قال: «سأذهب للحصول على سيارة».

قالت المرأة: «تناول شيئاً من الطعام أولاً. ربما سيفيدك فنجان من القهوة».

قال: «سأذهب للحصول على سيارة». حين عبر الرواق توقف فترة كافية لغسل وجهه بالماء دون أن يحسّن ذلك من مظهره كثيراً.

حين غادر المنزل كان ما يزال يعاني من الدوار وفكر في أنه ما يزال مخموراً. استطاع أن يتذكر بغموض ما الذي حدث. كان يتذكر فان وحادث سيارته على نحو مشوش ولم يعرف أنه قد ضُرب حتى أغمي عليه مرتين. تذكر فقط أنه أغمي عليه في وقت مبكر من الليل، وظنّ أنه ما يزال ثملاً. ولكنه حين وصل إلى حطام سيارته وشاهد الممر وسار فيه حتى النبع، وشرب من الماء البارد، محاولاً أن يرى صورته المنعكسة في سطح الماء المتكسر، همس في نفسه بنوع من اليأس: «يا ليسوع المسيح». فكر في العودة إلى المنزل ليتناول الشراب مجدداً، ثم فكر في مواجهة تمبل، والرجال؛ فكر بتمبل وهي بينهم.

حين وصل إلى الطريق العام كانت الشمس قد ارتفعت في السماء وأضحت دافئة. قال في نفسه: «سأحاول أن أغسل هذه الآثار ثم أعود

ومعي سيارة. سأقرر ما سأقوله لها على الطريق إلى المدينة». راح يفكر بتمبل وهي تعود لتكون بين أشخاص عرفوه، أو قد يعرفونه. قال: «لقد أغمي عليّ مرتين. أغمي عليّ مرتين». همس: «يا ليسوع المسيح، يا ليسوع المسيح». كان جسده يتلوى داخل ملابسه غير اللائقة والملطخة بالدماء بألم نابع من الغضب والعار.

بدأ رأسه يصحو مع الهواء والحركة، ولكنه حين راح يشعر بأنه أفضل ازداد اسوداد المستقبل أمامه. بدأت المدينة والعالم يبدوان كزقاق مسدود (غير نافذ)؛ مكان عليه أن يمشي فيه إلى الأبد، وبدنه كله ينكمش ويجفل من العيون الهامسة حين كان يمر، وحين سيصل في منتصف الصباح إلى المنزل الذي ينشده، فإن فرصة مواجهة تمبل مجددا كانت أكبر من أن يتحملها. وهكذا استأجر سيارة ووجّه الرجل ودفع له أجره ومضى في طريقه. بعد وهلة من الزمن توقفت سيارة كانت تسير بالاتجاه المعاكس فركب فيها.

الفصل الحادي عشر

استيقظت نمبل وقد تحول جسدها إلى كرة منفوخة، مع قضبان نحيلة من نور الشمس تسقط على وجهها أشبه بأضلاع شوكة ذهبية، وبينما راح الدم المتصلب يسيل ويخزها في عضلاتها المتشجنة، فقد تمددت وهي تحدق في السقف. وكان هذا كما الجدران مبنياً من ألواح خشب غير مصقولة رتبت على نحو فج، وكل لوح يفصله عن التالي خيط رفيع من الاسوداد. في الزاوية كانت فتحة مربعة فوق سلّم تؤدي إلى سقيفة الحظيرة المعتمة مع أقلام نحيلة من نور الشمس أيضاً. كانت قطع محطمة من أطقم الجياد اليابسة معلقة على مسامير في الجدار، فاستلقت وراحت تنتف دون اهتمام المادة التي كانت مستلقية عليها. جمعت ما يملأ القبضة منها ورفعت رأسها، فشاهدت ضمن سترتها المفتوحة لحماً عارياً بين صديريتها ولباسها الداخلي وجواربها. ثم تذكرت الجرذ فوقفت وقفزت نحو الباب، وراحت تحاول فتحه وهي ما تزال تمسك بملء قبضتها بذور القطن، ووجهها منتفخ من نوم ابنة السابعة عشر العميق.

كانت تتوقع أن يكون الباب مقفلاً ولفترة من الزمن لم تستطع فتحه، وراحت يداها الخدرتان تخدشان ألواح الخشب غير المصقولة حتى استطاعت أن تسمع أظافر أصابعها. فُتح الباب نحو الخلف متأرجحاً وقفزت هي إلى الخارج. وعلى الفور وثبتْ إلى المذود وراحت تضرب

بابه. كان الرجل الأعمى يهبط المنحدر وهو يجر قدميه، ويضرب الأرض بعكازه، ويده الأخرى على خصره، ممسكاً ببنطاله. عبر المذود وحمالة بنطاله تتدلى من فوق ردفيه، وحذاؤه الرياضي يتجرجر في التبن الجاف للمدخل، ثم توارى عن الأنظار، والعكاز تطقطق بخفة فوق مرابط الجياد الفارغة.

طقطقت عكاز الأعمى مجدداً. أعادت رأسها بقوة إلى الخلف وأغلقت الباب بحيث لا يظهر منه سوى شق صغير، وراقبته وهو يمر، كان أبطأ الآن، ويدفع بحمالة بنطاله نحو كتفه. اعتلى المنحدر ودخل المنزل. ثم فتحت الباب وخطت إلى الخارج بحذر شديد.

مشت بسرعة إلى المنزل وقدماها المغطاتان بالجوارب فحسب تحجمان وتنكمشان على الأرض القاسية، وهي تراقب المنزل. صعدت إلى الرواق ودخلت المطبخ وتوقفت، وهي تصغي في الصمت. كان الموقد بارداً. فوقه كان إبريق القهوة المسودّ ومقلاة متسخة. فوق الطاولة كانت أطباق متسخة مكومة عشوائياً. فكرت: «لم أتناول طعاماً منذ... منذ... البارحة كان يوماً واحداً، ولكني لم أتناول شيئاً البارحة. لم أتناول شيئاً منذ... تلك الليلة التي كانت ليلة حفل الرقص، وأنا لم أتناول أي عشاء. لم أتناول شيئاً منذ عشاء يوم الجمعة. والآن يوم الأحد. فكرت في الأجراس في أبراج الكنائس مقابل السماء الزرقاء، والحمائم تهدل من حول الأبراج مثل أصداء الصوت الجهير لآلة الأرغن. عادت إلى الباب وأطلت. ثم برزت وهي تلفّ سترتها من حول جسدها.

دخلت المنزل وأسرعت إلى البهو. كانت الشمس الآن فوق الرواق الأمامي، وركضت وهي تحرك رأسها كما الونش، وتراقب بقعة الشمس مؤطرة بالباب. كان فارغاً. وصلت إلى الباب الذي إلى يمين المدخل وفتحته وقفزت إلى داخل الغرفة وأغلقت الباب واستندت عليه

بظهرها. كان السرير فارغاً وفوقه لحاف باهت اللون مصنوع من قطع كثيرة من القماش. كانت مطرة بغطاء خاكي اللون وفردة حذاء واحدة على السرير. على الأرض كان ثوبها وقبعتها.

التقطت الثوب والقبعة وحاولت تنظيفهما بيدها وبطرف سترتها. ثم بحثت عن فردة الحذاء الأخرى، حركت اللحاف، وانحنت لتنظر تحت السرير. وأخيراً وجدتها في المدفأة الجدارية ضمن نثار من رماد الحطب بين المنصب الحديد وكومة من الآجر المقلوب، وكانت الفردة قد سقطت على جانبها، وقد امتلأت حتى نصفها بالرماد، وكأنها رُميت أو رُفست إلى ذلك المكان. أفرغتها ومسحتها بسترتها ووضعتها على السرير وأمسكت بالمطرة وعلقتها على مسمار في الجدار. كان مكتوباً عليها الحرفان US ورقم باهت طبع بالإستنسيل الأسود. ثم خلعت سترتها وبدأت ترتدي ملابسها.

تحركت بسرعة، بساقيها الطويلتين، وذراعيها النحيلتين، وردفيها الصغيرين العاليين... فتاة بجسم صغير طفولي لكنها لم تعد طفلة، و لم تصبح امرأة بعد... مدّدت جوربيها وتلوّت وهي تلبس ثوبها الضيق الصغير. فكرت بهدوء وبنوع من الدهشة الفاترة والمنقضية: «أستطيع الآن تحمل أي شيء. أستطيع فعلاً تحمل أي شيء». من أعلى أحد الجوربين أخرجت ساعة يد مربوطة بشريط أسود مقطوع. إنها التاسعة. وبأصابعها مشطت خصلاتها المتلبدة فأخرجت ثلاث أو أربع حبات من بذور القطن. حملت السترة والقبعة وأصغت مجدداً عند الباب.

عادت إلى الرواق الخلفي. كان في الحوض بقايا من الماء القذر. نظفته وملأته بالماء وغسلت وجهها. كانت منشفة متسخة معلقة على مسمار. استخدمتها بحذر شديد، ثم أخرجت علبة تجميل من سترتها وراحت تستخدمها حين وجدت المرأة تراقبها من باب المطبخ.

قالت تمبل: «صباح الخير». كانت المرأة تحمل الطفل على ردفها. كان نائماً. قالت تمبل وهي تنحني بجسمها: «هالو بيبي، هل تريد النوم طوال النهار؟ انظر إلى تمبل». دخلتا المطبخ. صبت المرأة القهوة في فنجان.

قالت: «إنها باردة، على أما أظن. ما لم تكوني راغبة في إيقاد النار. أخرجت من الفرن مقلاة للخبز.

قالت تمبل: «لا» وهي ترتشف القهوة الفاترة، وتشعر بأحشائها وهي تتحرك بتخثرات صغيرة مدغدغة مثل طلقات فالتة. «لست جائعة. لم أتناول شيئاً منذ يومين، ولكنني لست جائعة. أليس هذا مضحكاً؟ لم أتناول طعاماً منذ..». نظرت إلى ظهر المرأة بتكشيرة ثابتة ومسترضية. «ليس لديك حمام، أليس كذلك؟»».

قالت المرأة: «ماذا؟» نظرت إلى تمبل عبر كتفها بينما راحت تمبل تحدق إليها بتلك التكشيرة المتميزة بثقة متملقة ومسترضية. من على أحد الرفوف تناولت المرأة كاتالوغاً وصل بالبريد وانتزعت منه بضع صفحات، وقدمته إلى تمبل: «سيكون عليك أن تذهبي إلى الحظيرة، كما نفعل نحن».

قالت تمبل وهي تمسك الأوراق: «سأفعل ذلك... في الحظيرة؟».

قالت المرأة: «لقد ذهبوا جميعاً. لن يعودوا هذا الصباح».

قالت تمبل: «أجل. الحظيرة».

قالت المرأة: « أجل. الحظيرة. ما لم تكوني أكثر طهارة من أن تفعلي ذلك».

قالت تمبل: «أجل». نظرت إلى الخارج عبر الباب، عبر الفسحة

التي كانت الأعشاب تكسوها بوفرة. بين الفراغات المعتمة بين أشجار الأرز كان البستان مومضاً تحت نور الشمس. لبست السترة والقبعة ومضت نحو الحظيرة، والأوراق التي انتزعت في يدها، وهي مبقعة بصور نماذج صغيرة من دبابيس الثياب وعصّارات الثياب ومسحوق الغسيل، وولجت المدخل. توقفت، وهي تطوي الأوراق وتطويها، ثم تابعت سيرها، بنظرات سريعة خائفة إلى مرابط الجياد الفارغة. عبرت الحظيرة مباشرة. كانت مفتوحة من الخلف، على كومة من أعشاب الجيمسون في ريعان وحشي لزهور باللونين الأبيض والأرجواني الباهت. مشت مجدداً تحت نور الشمس، نحو الأعشاب. ثم بدأت تعدو، وهي ترفع ساقيها مجدداً حتى قبل أن تلمس الأرض، والأعشاب تجلدها بأزهارها الضخمة الرطبة كريهة الرائحة. توقفت وانزلقت عبر حاجز من الأسلاك الصدئة المتدلية وركضت هابطة التل بين الأشجار.

عند أسفل التل، كانت ندبة ضيقة من الرمل تفصل ما بين منحدري وادٍ صغير، تتعرج في سلسلة من البقع المذهلة كلما لمستها الشمس. وقفت تمبل في الرمل، تصغي إلى الطيور بين الأوراق المشمسة، تصغي وتنظر فيما حولها. مضت متتبعة مسار جدول جاف حيث كان بروز صخري يشكل مكاناً منعزلاً أرضه مغطاة بورد بري. كانت أوراق العام الماضي الميتة الساقطة من الأغصان العالية تلتصق بالأوراق الجديدة الخضراء التي لم تسقط على الأرض بعد. وقفت هناك لبرهة وهي تلوي وتلوي الأوراق بين أصابعها في نوع من اليأس. حين نهضت شاهدت فوق الكتلة اللامعة من الأوراق على امتداد ذروة الخندق، الصورة الجانبية لرجل مقرفص.

لبرهة وقفت وراقبت نفسها تعود خارجة من جسدها، وتاركة خلفها إحدى فردتي حذائها. راقبت ساقيها تومض على الرمل، عبر

النقاط التي تتركها أشعة الشمس، ولمسافة بلغت عدة ياردات، ثم تدوّم وتعود أدراجها بسرعة وتختطف فردة الحذاء وتدوّم وتعدو مجدداً.

حين لمحت المنزل كانت أمام الرواق الأمامي. كان الرجل الأعمى جالساً في كرسي، ووجهه مرفوع تحت الشمس. عند حافة الغابة توقفت ولبست حذاءها. عبرت المرجة الخربة وقفزت نحو الرواق وعدت وهي تدخل البهو. وحين وصلت إلى الرواق الخلفي شاهدت رجلاً عند باب الحظيرة، وهو ينظر إلى المنزل. عبرت الرواق في خطوتين واسعتين ودخلت المطبخ، حيث كانت المرأة جالسة إلى المائدة، والطفل على حضنها.

قالت تمبل: «كان يراقبني! كان يراقبني طوال الوقت!» اتكأت قرب الباب، وهي تحدق إلى الخارج، ثم اقتربت من المرأة، ووجهها صغير وشاحب، وعيناها كحفرتين أحرقتا بسيجار، ثم وضعت يدها على الموقد البارد.

سألت المرأة: «من كان؟».

قالت تمبل: «أجل. كان هناك بين الشجيرات، يراقبني طوال الوقت». نظرت باتجاه الباب، ثم عادت لتنظر إلى المرأة، ورأت يدها فوق الموقد. رفعتها بصرخة معولة ووضعتها على فمها بقوة، والتفتت وأسرعت نحو الباب. أمسكت بها المرأة من ذراعها، وهي ما تزال تحمل الطفل بالذراع الأخرى، وقفزت تمبل عائدة إلى المطبخ. كان غودوين قادماً نحو المنزل. نظر مرة واحدة إليهما ثم دخل البهو.

بدأت تمبل بمنازعة المرأة. همست: «دعيني بحالي. دعيني بحالي! دعيني بحالي!» وراحت تموج بجسمها وتندفع به وهي تسحق يد المرأة فوق عضادة الباب حتى تحررت من قبضتها. قفزت من الرواق وعدت

نحو الحظيرة ثم نحو مدخلها وتسلقت السلم ثم صعدت عبر الفتحة التي في السقف، ثم نهضت ثانية على قدميها وأسرعت نحو كومة التبن المتعفن.

راحت تتحرك فجأة على نحو عشوائي في فورة نشاط واهتياج. استطاعت أن ترى ساقيها وهما ما تزالان تعدوان في الفضاء، وسقطت بخفة وصلابة على ظهرها ومكثت ساكنة، وهي تحدق إلى الأعلى نحو ثغرة مستطيلة كانت تنغلق بالتذبذب المطقطق للألواح الخشبية الفالتة. كان غبار خفيف يهطل كما من منخل عبر قضبان نور الشمس.

تحركت يدها تتفحص المادة التي كانت تستلقي عليها، ثم تذكرت الجرذ للمرة الثانية. انتفض جسدها كله في حركة رفض التوائية جعلتها تنهض على قدميها في قشور الذرة الرخوة، حتى أنها مدت ذراعيها واستقامت في وقفتها، وقد وضعت إحدى يديها على زاوية الركن والأخرى على الزاوية الأخرى، ووجهها لا يبعد أكثر من اثنتي عشرة بوصة عن العارضة التي تصل بين عمودين والتي كان الجرذ جاثماً عليها. حدقا الواحد في الآخر لبرهة ثم التمعت عينا الجرذ فجأة كمصباحين كهربائيين صغيرين جداً وقفز باتجاه رأسها عندما قفزت هي نحو الخلف بالضبط، وداست من جديد على شيء تحت قدمها.

سقطت باتجاه الركن المقابل، على وجهها بين القشور وبعض عرانيس الذرة المتناثرة التي التُهمت كل حباتها. اصطدم شيء ما بالجدار وضرب يدها في ارتداده عنه. كان الجرذ في ذلك الركن الآن، على الأرضية. ومن جديد لم يكن وجهاهما أبعد من اثنتي عشرة بوصة الواحد عن الآخر، وعينا الجرذ تومضان وتبهتان وكأنهما تعملان برئتين. ثم انتصب الجرذ، وظهره إلى الركن، وكفاه الأماميان على صدره، وبدأ يصيء باتجاهها بشهقات صغيرة حزينة. ابتعدت زحفاً

على يديها وركبتيها، وهي تراقبه. ثم نهضت على قدميها وقفزت إلى الباب، وراحت تضرب الباب وهي تراقب الجرذ من فوق كتفها وجسدها قد تقوس على الباب، وهي تحك ألواح الخشب بيديها.

الفصل الثاني عشر

وقفت المرأة عند باب المطبخ وهي تحمل الطفل، حتى برز غودوين من المنزل. كان فصّا منخريه بيضاوين تماماً بالمقارنة مع وجهه الأسمر، وقالت: «يا إلهي، هل أنت ثمل أيضاً؟» سار على امتداد الرواق. قالت المرأة: «هي ليست هنا. لن تستطيع إيجادها». مرّ عبرها ورائحة ويسكي قوية وكريهة تفوح منه. التفتت وهي تراقبه. نظر بسرعة في أرجاء المطبخ، ثم التفت ونظر إليها وهي واقفة عند الباب، تسدّه. قالت: «لن تجدها. لقد رحلت». اقترب منها، وهو يرفع ذراعه. قالت: «لا تضع يدك عليّ». أمسك بذراعها، ببطء. كانت عيناه محمرتين قليلاً. كان فصّا منخريه يبدوان كالشمع.

قالت: «أبعد يدك عني. أبعدها». وببطء، جرها من وقفتها على الباب. بدأت تشتمه. «هل تظن أنك قادر؟ هل تظن أني سأسمح لك؟ أو أي مومس صغيرة أخرى؟» وقفا دون حراك، واحدهما في مواجهة الآخر كما في الوضعية الأولى لرقصة ما، وذلك في وقفة قصيرة عضلية رائعة ومتصاعدة.

ودون أي حركة على الإطلاق دفعها بعيداً فجعلها تدور دورة كاملة أوصلتها إلى الطاولة، وذراعها نحو الخلف للتوازن، وجسمها منحن ويدها تتلمس من خلفها الأطباق المتسخة، وهي تراقبه عبر الجسد الساكن للطفل. سار إليها. قالت: «تراجعْ» وهي ترفع يدها

قليلاً، وتريه سكين الجزار. «تراجعْ». تقدم منها بثبات، ثم ضربته هي بالسكين.

أمسك برسغها. بدأت تقاومه. انتزع الطفل منها ووضعه على الطاولة، وأمسك رسغيها بيد وصفعها باليد الأخرى. صدر صوت جاف وفاتر. صفعها مرة أخرى، أولاً على إحدى وجنتيها ثم على الأخرى، وهزّ رأسها من جانب إلى آخر. قال وهو يصفعها: «هذا ما أفعله بهن. أترين؟» أطلق سراحها. تعثرت إلى الخلف وبالطاولة وأمسكت بالطفل وقرفصت بين الطاولة والجدار، وراقبته وهو يلتفت ويغادر الغرفة.

ركعت في الركن، وهي تحمل الطفل. لم يكن هذا قد تحرك. وضعت كفها على إحدى وجنتيه ثم على الأخرى. نهضت ووضعت الطفل في الصندوق وأخذت قبعة شمسية من على مسمار وارتدتها. من على مسمار آخر أخذت معطفاً مخرماً بما كان ذات مرة فرواً أبيض اللون، وحملت الطفل وخرجت من الغرفة.

كان تومي واقفاً في الحظيرة، قرب المذود، ينظر باتجاه المنزل. جلس الرجل العجوز على الرواق الأمامي تحت الشمس. هبطت الدرجات وسارت على طول الممر نحو الدرب وتابعت السير دون أن تنظر إلى الخلف.

حين وصلت إلى الشجرة والسيارة المحطمة، ابتعدت عن الدرب لتدخل ممراً. بعد مائة ياردة أو نحوها وصلت إلى النبع وجلست إلى القرب منه، والطفل في حجرها، وطرف تنورتها يغطي وجهه النائم.

خرج بوباي من بين الشجيرات، وهو يسير بحذر بحذائه الموحل، ووقف ينظر إليها عبر النبع. كانت يده تفرك سترته وكان يلوي لفافة

ثم وضعها في فمه وأشعل عود ثقاب بإبهامه. قال: «يا يسوع المسيح، لقد حذرته من مسألة تركهم جالسين طوال الوقت وهو يتجرعون ذلك الشراب». نظر بعيداً في الاتجاه الذي يقع فيه المنزل. ثم نظر إلى المرأة، إلى أعلى قبعتها الشمسية. قال: «منزل الحمقى. هذا هو حقاً. منذ أربعة أيام فحسب، وجدت نغلاً مقرفصاً هنا يسألني إن كنت أقرأ كتباً. وكأنه سيهاجمني بكتاب أو ما شابه. اصطحبني في نزهة بالسيارة مع دليل الهاتف». نظر مجدداً باتجاه المنزل، وهو يلوي عنقه إلى الأمام، وكأن ياقته كانت شديدة الضيق. نظر إلى أعلى قبعتها الشمسية. قال: «سأذهب إلى المدينة، أترين ذلك؟ سأرحل. لقد اكتفيت من هذا كله». لم ترفع نظرها إليه. عدّلت طرف تنورتها فوق وجه الطفل. مضى بوباي في طريقه، بأصوات خفيفة متفتقة في النباتات التي تحت الأشجار. ثم توقفت. في مكان ما من المستنقع شدا طير.

***

قبل أن يصل إلى المنزل، ترك بوباي الدرب واتبع منحدراً مغطى بأجمة. حين ظهر شاهد غودوين يقف خلف شجرة في البستان، وهو ينظر إلى الحظيرة. توقف بوباي عند حافة الأجمة ونظر إلى ظهر غودوين. وضع لفافة أخرى في فمه ودفع أصابعه في صدرته. عبَر البستان وهو يمشي بحذر. سمعه غودوين ونظر من فوق كتفه. أخرج بوباي عود ثقاب من صدرته وقدحه وأشعل لفافته. نظر غودوين باتجاه الحظيرة مجدداً. وقف بوباي وراح ينظر إلى الحظيرة.

قال: «من هناك في الأسفل؟» لم يقل غودوين أي شيء. نفث بوباي الدخان من منخريه. قال: «سأرحل سريعاً». لم يقل غودوين أي شيء، وبقي يراقب الحظيرة. قال بوباي: «قلت إني سأرحل عن هذا المكان». وبدون أن يلتفت غودوين برأسه شتمه. دخن بوباي بهدوء، واللفافة

تتلوى عبر تحديقته الساكنة والناعمة والسوداء. ثم استدار واتجه نحو المنزل. كان الرجل العجوز جالساً في الشمس. لم يدخل بوباي إلى المنزل. وبدلاً عن ذلك عبر المرج وتوارى ضمن أشجار الأرز فلم يعد يُرى من المنزل. ثم التفت وعبر الحديقة والفسحة التي تغطيها الأعشاب بوفرة ودخل الحظيرة من المؤخرة.

جثم تومي على عقبيه قرب باب المذود، وهو ينظر إلى المنزل. نظر بوباي إليه لفترة قصيرة، وهو يدخن. ثم رمى باللفافة بعيداً ودخل مربطاً للخيل بهدوء. فوق المعلف كان رف خشبي للتبن، تحت فتحة في أرض مخزن التبن. تسلق بوباي الرف ودخل مخزن التبن بهدوء وسترته الضيقة قد أصبحت ذات حواف نحيلة على كتفيه وظهره خلال ذلك.

الفصل الثالث عشر

كان تومي واقفاً في مدخل الحظيرة حين تمكنت تمبل أخيراً من فتح باب المذود. حين ميزته كانت نصف دائخة، فقفزت إلى الخلف ثم دوّمت وعدت نحوه وقفزت وأمسكت بذراعه. ثم رأت غودوين واقفاً عند الباب الخلفي للمنزل فدارت حول نفسها وقفزت عائدة إلى المذود وأحنت رأسها من حول الباب، وصوتها يخرج كأنه صوت فقاقيع في زجاجة. اتكأت هناك، وراحت تخدش الباب بيديها محاولة أن تجذبه وهي تسمع صوت تومي.

«يقول (لي) إنه لن يسبب لك أي أذى. كل ما هو مطلوب منك أن تختفي عن الأنظار..». كان صوته جافاً ليس ضمن وعيها إطلاقاً، ولا حتى عينيه فاتحتي اللون تحت شعره الأشعث. انحنت على الباب وهي تعول، محاولة أن تغلقه. ثم شعرت بيده على فخذها بلمسة خرقاء.»... يقول إنه لن يسبب لك أي أذى. كل ما هو مطلوب منك أن..».

نظرت إليه، إلى يده الخجولة القاسية على ردفها. قالت: «أجل، حسناً. لا تدعه يدخل إلى هنا».

«أتعنين أن عليّ ألا أدعه يدخل إلى هنا؟».

«حسناً. لست أخاف من الجرذان. ابق هنا ولا تدعه يدخل».

«حسناً، سأتدبر الأمر بحيث لا يتمكن أحد من الوصول إليك. سأكون هنا حتماً».

«حسناً، أغلق الباب. لا تدعه يدخل إلى هنا».

«حسناً». أغلق هو الباب. اتكأت هي على الباب، وهي تنظر باتجاه المنزل. دفعها إلى الخلف حتى يتمكن من إغلاق الباب. «لن يسبب لك أي أذى إطلاقاً، هذا ما يقوله (لي). كل ما عليك فعله أن تختفي عن الأنظار».

«حسناً، سأفعل. لا تدعه يدخل إلى هنا.». أغلق الباب. سمعته يغلق مشبك الباب. ثم هزّ الباب.

قال: «إنه موصد. لا يمكن لأحد الوصول إليك الآن. سأبقى هنا».

جثم على عقبيه في القش، وهو ينظر إلى المنزل. بعد فترة قصيرة، شاهد غودوين يصل إلى الباب الخلفي وينظر باتجاهه، والتمعت عينا تومي مجدداً وهو جاثم ممسكاً بركبتيه، والقزحيتان الفاتحتان تظهران لبرهة وتدوران على البؤبؤين كأنهما عجلتين صغيرتين. جثم هناك وشفته مرفوعة إلى الأعلى قليلاً، حتى عاد غودوين إلى المنزل. ثم تنهد، وهو يزفر، ونظر إلى الباب الأبيض للمذود، ومن جديد التمعت عيناه بنار خجولة متلمسة وجائعة، وبدأ يفرك يديه ببطء على ساقيه وهو يؤرجح نفسه قليلاً من جانب إلى آخر. ثم توقف عن ذلك، وأصبح منصلباً، وراقب غودوين يتحرك بسرعة عبر ركن المنزل ثم يدخل بين أشجار الأرز. جثم بتصلبٍ وشفته مكشرة فوق أسنانه المهترئة.

رفعت تمبل رأسها فجأة وهي جالسة بين قشور الذرة، في مهاد عرانيس الذرة المأكولة. سمعت بوباي يعبر أرضية مخزن التبن، ثم

ظهرت قدمه، وهي تتلمس الدرجة العليا للسلم بحذر. هبط، وراح يراقبها من فوق كتفه.

جلست ساكنة تماماً، وفمها فاغر قليلاً. وقف وراح ينظر إليها. بدأ يدفع بذقنه إلى الأمام بسلسلة من الارتعاشات، وكأن ياقته كانت ضيقة جداً. رفع مرفقيه ومسح عليهما بكفه، وحافة سترته، ثم عبر حقل رؤيتها، وهو يتحرك دون صوت، ويده في جيب سترته. حاول فتح الباب. ثم هزه.

قال: «افتح الباب».

لم يصدر أي صوت. ثم همس تومي: «من هناك؟».

قال بوباي: «افتح الباب». فُتح الباب. نظر تومي إلى بوباي. رمش بعينيه.

قال: «لم أعلم أنك هنا». نظر عبر بوباي نحو المذود. وضع بوباي يده على وجه تومي ودفع به إلى الخلف وانحنى عبره وتطلع نحو المنزل. ثم نظر إلى تومي.

«ألم أحذرك من ملاحقتي؟».

قال تومي: «لم أكن ألاحقك. كنت أراقبه هو»، وهو يشير برأسه إلى المنزل.

قال بوباي: «راقبْه إذاً». التفت تومي برأسه ونظر باتجاه المنزل وسحب بوباي يده من جيب سترته.

بالنسبة إلى تمبل الجالسة بين قشور الذرة وعرانيسها، كان الصوت ليس أعلى من صوت قدح عود كبريت: صوت قصير صغير طغى على

المشهد، على اللحظة، بحتمية عميقة، فعزله تماماً؛ وجلست هي هناك، وساقاها ممدودتان باستقامة أمامها، ويداها على حضنها رخوتان والكفان إلى أعلى، وهي تنظر إلى ظهر بوباي الضيق وحواف سترته عبر كتفيه وهو يطلِ من الباب نحو الخارج، والمسدس خلفه، على خاصرته، يتدلى نحيلاً على امتداد ساقه.

التفت ونظر إليها. هزّ المسدس بخفة وأعاده إلى سترته، ثم سار نحوها. في تحركه، لم يصدر عنه أي صوت إطلاقاً. تثاءب الباب المفتوح ثم انصفق على العضادة، ولكنه لم يصدر أي صوت أيضاً. كأنما أصبح الصوت والصمت معكوسين. استطاعت أن تسمع الصمت في حفيف سميك بينما راح بوباي يتحرك باتجاهها عبره، وهو يدفعه جانباً؛ وبدأت هي تقول إن «شيئاً ما سيحدث لي». كانت تقوله للرجل العجوز ذي الخثرتين الصفراوين بدل العينين. صرخت باتجاهه، وهو جالس في كرسيه تحت نور الشمس، ويداه متصالبتان فوق رأس عكازه: «شيء ما يحدث لي!» صرخت: «قلت لك إنه سيحدث لي!» وهي تخرج الكلمات كأنها فقاعات صامتة وحارة نحو الصمت المومض من حولها حتى التفت برأسه والخثرتان البلغميتان فوقها حيث كانت مستلقية تضربان وتجلدان الألواح الخشبية الخشنة والمشمسة. «لقد قلت لك ذلك! كنت أقوله طوال الوقت!».

الفصل الرابع عشر

بينما كانت جالسة قرب النبع، والطفل النائم على ركبتها، اكتشفت المرأة أنها قد نسيت أن تحضر زجاجة إرضاع الطفل. جلست هناك حوالي الساعة بعد أن تركها بوباي. ثم عادت إلى الدرب واتجهت نحو المنزل. حين أصبحت على بعد نصف المسافة عن المنزل، وهي تحمل الطفل بين ذراعيها، مرت بها سيارة بوباي. سمعتها قادمة وخرجت من الدرب ووقفت هناك وراقبتها وهي تهبط التل. كان فيها تمبل وبوباي. لم يقم بوباي بأي إشارة، رغم أن تمبل نظرت بملء عينيها إلى المرأة. من تحت قبعتها نظرت تمبل إلى المرأة مواجهة، دون أي علامة على الإطلاق بأنها ميّزتها. لم يلتفت الوجه، ولم تستيقظ العينان. وبالنسبة إلى المرأة التي على جانب الطريق، كان ذلك الوجه أشبه بقناع صغير خال من الألوان مر بها على خيط ثم ابتعد. مضت السيارة في طريقها، وهي تتمايل وترتجّ في حفر الدرب. تابعت المرأة طريقها نحو المنزل.

كان الرجل الأعمى جالساً على الرواق الأمامي، تحت نور الشمس. حين دخلت إلى البهو، كانت تمشي مسرعة. لم تكن تشعر بالوزن الخفيف للطفل. وجدت غودوين في غرفة نومهما. كان على وشك ارتداء ربطة عنق مهترئة. نظرت إليه فلاحظت أنه قد حلق لحيته للتو.

قالت: «نعم؟ ما الأمر؟ ما الأمر؟»"

قال: «عليّ أن أسير حتى منزل (تل) وأهاتف مأمور الشرطة».

قالت: «المأمور؟ أجل، حسناً». اقتربت من السرير ووضعت الطفل عليه بحرص. قالت: «إلى منزل (تل) إذاً. أجل، لديه هاتف».

قال غودوين: «عليك أن تطبخي. هناك بابا».

«يمكنك أن تعطيه بعض الخبز البارد. لن يمانع. هناك البعض منه ما يزال في الموقد. لن يمانع».

قال غودوين: «سأذهب. عليك أن تبقي هنا».

قالت: « إلى منزل (تل)، حسناً». كان (تل) هو الرجل الذي وجد غووان سيارة عنده، ويبعد منزله مسافة ميلين. كانت أسرة (تل) تتناول طعام العشاء. طلبوا منها أن تتوقف. قالت: «أريد فقط أن أستخدم الهاتف». كان الهاتف في غرفة الطعام حيث كانوا يتناولون الطعام. هتفت وهم جالسون من حول المائدة. لم تعرف الرقم المطلوب. قالت بصبر في سماعة الهاتف: «المأمور». ثم أوصلوها إلى المأمور. "رجل ميت. عليك أن تمر بمنزل (تل) بمسافة ميل تقريباً ثم تنعطف نحو اليمين... أجل، «دارة الفرنسي العتيقة». أجل. أنا السيدة غودوين... غودوين. أجل».

الفصل الخامس عشر

وصل بنبو إلى منزل شقيقته في منتصف فترة ما بعد الظهر. كان يبعد أربعة أميال عن البلدة، جفرسون. كان هو وشقيقته قد ولدا في جفرسون، بفاصل سبع سنوات بينهما، في منزل ما يزالان يملكانه، رغم أن شقيقته أرادت بيع المنزل حين تزوج بنبو من مطلقة رجل اسمه ميتشيل، وانتقل إلى كينستون. لم يقبل بنبو بأن يبيع المنزل، رغم أنه بنى بيتاً من طابق واحد في كينستون بمال مقترض ما يزال يدفع فائدته حتى الآن.

حين وصل، لم يكن في المنزل من أحد. دخل المنزل وكان يجلس في الردهة المعتمة خلف الستائر المغلقة، حين سمع شقيقته تنزل الدرج، وهو ما تزال غير عارفة بوصوله. لم يحدث هو أي صوت. تقدمت من باب الردهة وكادت تعبر منه وتختفي حين توقفت ونظر إليه مباشرة، دون دهشة ظاهرية، بتلك المناعة الهادئة والغبية التي لتماثيل الأبطال. كانت ترتدي ملابس بيضاء اللون. قالت: «أوه، هوريس».

لم ينهض من مكانه. جلس بنوع من الشعور بالذنب الذي لصبي صغير.

قال: «كيف...هل قامت بِل بـ...».

«طبعاً. لقد أرسلت لي برقية يوم السبت. قالت إنك رحلت، وإن

جئت إلى هنا أن أخبرك بأنها عادت إلى موطنها في كنتاكي وأرسلت تدعو ابنتها بِل الصغيرة لتلحق بها».

قال بنبو: «آه، اللعنة».

قالت شقيقته: «لماذا؟ أنت تريد مغادرة البيت، ولكنك لا تريد منها أن تغادره».

بقي يومين في منزل شقيقته. لم تكن تميل إلى الكلام الكثير، وتعيش حياة بلادة وخمول شأن الذرة أو القمح السرمديين في حديقة محمية بدلاً عن حقل، وخلال هذين اليومين كانت تتحرك في أرجاء المنزل بنوع من الاعتراض الهادئ والمضحك قليلاً والمأساوي.

بعد العشاء جلسا في غرفة الآنسة جِني، حيث كانت نرسيسا تقرأ صحيفة ممفيس قبل أن ترافق الصبي إلى سريره. حين خرجت من الغرفة، نظرت الآنسة جِني إلى بنبو.

قالت: «عد إلى بيتك يا هوريس».

قال بنبو: «ليس إلى كينستون. لم أكن أنوي المكوث هنا، على أي حال. لم تكن نرسيسا هي من أسعى إليها. لم أتخلَّ عن امرأة لأسارع فألجأ إلى حمى امرأة أخرى».

قالت الآنسة جِني: «إذا داومت على قول هذا الأمر لنفسك، فقد تصدقه في يوم من الأيام. عندها، ما الذي ستفعله؟».

قال بنبو: «أنت على حق. عندها سيكون علي البقاء في البيت».

عادت شقيقته. دخلت الغرفة بسيماء محددة. قال بنبو: «والآن ما الأمر؟» ام تكن شقيقته قد تحدثت إليه مباشرة طوال اليوم.

قالت: «ما الذي ستفعله يا هوريس؟ لا بد أن لديك أشغال من نوع ما في كينستون لا بد من الاعتناء بها».

قالت الآنسة جِني: «لا بد أن هوريس لديه مثل هذه الأشغال. ما أريد معرفته هو لماذا غادر. هل وجدت رجلاً تحت السرير يا هوريس؟».

قال بنبو: «لست محظوظاً إلى هذا الحد. كان ذلك يوم جمعة، وفجأة عرفت أني ما كنت قادراً على الذهاب إلى المحطة وإحضار علبة القريدس تلك، و..».

قالت شقيقته: «ولكنك كنت تفعل ذلك طوال عشر سنوات».

«أعرف. على هذا النحو أعرف أني لن أعتاد أبداً على شم رائحة القريدس».

قالت الآنسة جِني: «هل هذا هو السبب في تخليك عن بِل؟» نظرت إليه. «لقد استغرق الأمر منك زمناً طويلاً حتى تدرك أنه حين لا تصلح امرأة لأن تكون زوجة جيدة جداً لأحد الرجال، فهي لن تكون غير ذلك مع رجل آخر، أليس الأمر على هذا النحو؟»

قالت نرسيسا: «ولكن أن تغادر دون تفسير للأمر وكأنك مجرد زنجي، وأن تختلط بصانعي الكحول غير الشرعيين والمومسات اللواتي يتصيدن في الشوارع».

قالت الآنسة جِني: «حسناً، لقد ذهب وترك المومس أيضاً. ما لم تكن تنوي السير في الشوارع بتلك العصا البرتقالية في جيبك حتى تصل هي إلى البلدة».

قال بنبو: «أجـل». روى ثانية حكاية الأشخاص الثلاثة، هو

وغودوين وتومي وهم جالسون في الرواق، يشربون من الإبريق ويتبادلون الأحاديث؛ بينما يتلبث بوباي من حول المنزل، فيعرج بين الحين والآخر ليطلب من تومي أن يشعل مصباحاً وينزل إلى الحظيرة معه وتومي يرفض ذلك فيشتمه بوباي، وتومي جالس على الأرض، يفرك قدميه الحافيتين على الألواح الخشبية بصوت واهٍ ومهسهس، ويقهقه بمرح قائلاً: «أليس هو مضحك حقاً؟».

قال بنبو: «يمكن للمرء أن يشعر بالمسدس الذي يحمله كما قد يعرف أن له سرّة. لم يكن يشرب، لأنه قال إن الشراب يصيبه بالمرض في معدته كما لو كان كلباً. كان يرفض الجلوس معنا أو التحدث إلينا. ما كان ليفعل أي شيء: كان يتلبث في أرجاء المكان، وهو يدخن لفافاته، كطفل نكد ومريض.

كنا غودوين وأنا نتبادل الأحاديث. كان رقيباً في سلاح الفرسان في الفيليبين وعلى الحدود، وفي فوج مشاة في فرنسا. لم يذكر لي قط السبب في أنه غيّر سلاحه، فنُقل إلى المشاة وخسر رتبته. ربما يكون قد قتل شخصاً ما، وقد يكون فرّ من الخدمة العسكرية. كان يتحدث عن مانيلا والفتيات المكسيكيات، وذلك الأبله يضحك ضحكاً صاخباً ويشرب من الدورق ويدفع به إليّ: «خذ المزيد». وعندها عرفت أن المرأة كانت خلف الباب تماماً وهي تصغي إلينا. هما ليسا متزوجين شرعاً. أعرف هذا كما أعرف أن ذلك الرجل الشرير ضئيل القامة كان يحمل مسدساً صغيراً مسطحاً في جيب سترته. ولكنها هناك، تقوم بعمل امرأة زنجية، بينما كانت تمتلك الماس والسيارات في زمن العزّ، وقد اشترتها بعملة أصعب من النقود. وذلك الرجل الأعمى، ذلك الرجل العجوز الجالس إلى المائدة هناك، منتظراً أن يطعمه شخص ما، بذلك الجمود الذي يميز العميان، وكأنك تنظر

إلى ما خلف مقل عيونهم بينما يسمعون هم موسيقى لا يمكنك سماعها. وغودوين ذاك يقاد خارج الغرفة وخارج الأرض تماماً حسب ما أعرف. لم أره قط مرة ثانية. لم أعرف من هو ومن هم أقرباؤه. ربما لا أحد. ربما ذلك الفرنسي العجوز الذي بنى الدارة قبل مائة عام لم يكن يريده أيضاً بل تركه هناك حين مات أو انتقل للسكن في مكان آخر».

***

في صباح اليوم التالي حصل بنبو على مفتاح المنزل من شقيقته، ومضى نحو البلدة. كان المنزل في شارع جانبي، غير مسكون الآن منذ عشر سنوات. فتح المنزل، وسحب المسامير من النوافذ. لم يكن الأثاث قد حُرك من مكانه. ارتدى أوفرولاً جديداً وراح ينظف الأرضية بمماسح ودلاء. عند الظهيرة، مضى إلى مركز البلدة واشترى أغطية للسرير وبعض الطعام المعلّب. كان ما يزال يعمل في الساعة السادسة حين وصلت شقيقته وهي تقود سيارتها.

قالت: «تعال إلى بيتي يا هوريس. ألا ترى أنك لا تستطيع القيام بهذا العمل؟».

قال بنبو: «اكتشفت ذلك بعد المباشرة بالعمل بالضبط، وحتى هذا الصباح كنت أظن أن أي شخص بذراع واحدة ودلو من الماء يستطيع غسل الأرضية».

قالت: «هوريس».

قال: «أنا الأكبر سناً. تذكري هذا. سأبقى هنا. لديّ بعض الأغطية». ذهب إلى الفندق لتناول وجبة العشاء. لدى عودته، كانت سيارة شقيقته

مرة أخرى في الطريق الجانبي قرب منزله. كان السائق الزنجي قد أحضر له رزمة من أغطية السرير.

قال الزنجي: «تقول السيدة نرسيسا إن عليك استخدامها». وضع بنبو الرزمة في خزانة وهيأ سريره بالأغطية التي كان قد اشتراها.

في اليوم التالي عند الظهيرة، وبينما كان يتناول طعامه البارد على مائدة المطبخ، شاهد عبر النافذة عربة تتوقف في الشارع، وتنزل منها ثلاث نساء يذهبن ليقفن عند المنعطف وهن يضعن المساحيق دون خجل، ويمسدن تنانيرهن، ويمسحن الواحدة على ظهر الأخرى، ويفتحن الرزم ويخرجن منها الحلي المتنوعة لارتدائها. كانت العربة قد استأنفت سيرها. تبعنها، مشياً على الأقدام، وتذكر هو أن اليوم هو السبت. خلع الأوفرول، ارتدى ملابسه وغادر المنزل.

كان الشارع ينتهي بآخر أوسع منه. إلى اليسار كان يؤدي إلى ساحة، والفسحة بين بنائين سوداء من حشد متواصل وبطيء، كجدولين من النمل، كانت قبة مبنى المحكمة تبرز من فوقهما من بين أجمة من أشجار السنديان والخرنوب المغطاة بمادة تشبه الثلج الخفيف. تابع سيره نحو الساحة. كانت عربات فارغة ما تزال تمرّ به، وعبر هو بالمزيد من النساء الماشيات، السوداوات منهن والبيضاوات، واللواتي لا يمكن الخطأ بشأن لونهن وذاك بسبب الارتباك في أزيائهن وكذلك طريقة مشيهن، معتقدات أن سكان المدينة سيعتبرنهن من سكان المدينة أيضاً، دون أن يخدع الواحد الآخر.

كانت الحارات المجاورة مختنقة بعربات مشدودة إلى الرصيف بأوتاد، والأطقم من الجياد متعاكسة وهي تحك بخطومها عرانيس ذرة منهوشة فوق الأبواب الخلفية للعربات. كانت الساحة مليئة

بسيارات مصطفة على صفين، بينما يحتشد أصحابها وأصحاب العربات في أوفرولات بطيئة وملابس بلون خاكي وأوشحة ومظلات مشتراة بواسطة البريد، يدخلون ويخرجون من المحلات ويلوثون الأرصفة بقشور الفواكه والفستق. كانوا يتحركون كالنائمين بهدوء ودون أن يسمحوا لغيرهم بالعبور، ويملؤون الممرات، ويتأملون في الإسراع النزق لأولئك المرتدين للقمصان والياقات المدينية وذاك بالغموض الواسع والرقيق الخاص بالماشية أو الآلهة؛ إنهم يؤدون وظائفهم خارج الزمن، إذ أنهم تركوا الزمن مستلقياً فوق الأرض البطيئة وغير الممكن قياسها، والخضراء من الذرة والقطن في فترة العصر الصفراء.

تحرك هوريس بينهم، وكان يتم دفعه هنا وهناك بالتيار المتأني دون نفاد صبر. كان يعرف البعض منهم، وكان أغلب التجار وأصحاب المهن يتذكرونه كصبي وفتي وأخ محامي... إلى ما وراء ستار مزبد من أغصان الخرنوب كان قادراً على مشاهدة نوافذ الطابق الثاني الداكنة، حيث كان هو وأبوه يمارسان مهنة المحاماة، وما يزال الزجاج بريئاً من الماء والصابون كما كان آنئذ.... وتوقف بين الحين والآخر وتحادث معهم في أماكن خلفية لا ازدحام ولا سرعة فيها.

كان الهواء المشمس ممتلئاً بأصوات راديوهات وفونوغرافات متنافسة في أبواب مخازن بيع الأدوية والبضائع المتنوعة ومحلات بيع الأجهزة الموسيقية. أمام تلك الأبواب كان حشد يقف هناك طوال النهار، في حالة إصغاء. كانت المقطوعات التي تثيرهم قصائد غنائية بسيطة باللحن والموضوع، تدور حول الجزاء والتوبة مغناة بأدوات معدنية، غير واضحة، مشددة بأصوات ساكنة أو محررة من أجسادها تدوي من خزائن من الخشب المقلّد أو أفواه الأبواق الخشنة فوق

الوجوه المستغرقة، والأيدي البطيئة ذات العقد المشكّلة منذ زمن طويل مثل الأرض المستبدة، كئيبة وقاسية وحزينة.

كان ذاك يوم السبت، في شهر أيار: لا وقت لمغادرة الأرض. ولكن في يوم الاثنين، كانوا يعودون مجدداً، في أغلبهم، ويحتشدون من حول مبنى المحكمة والساحة، ويتاجرون قليلاً في المحلات منذ أن كانوا هنا، في ملابسهم ذات اللون الخاكي والأوفرولات والقمصان الخالية من الياقات. طوال النهار كله كانت مجموعة منهم تقف عند باب بهو الحانوتي، وكان صبية وفتيان يحملون أو لا يحملون كتباً مدرسية يتكئون بأنوف مسطحة على الزجاج، والأجرأ من بينهم والرجال الأصغر سناً للبلدة يدخلون اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة ليروا الرجل المسمى تومي. كان قد سجي على طاولة من الخشب، حافي القدمين، في أوفروله، وخصل شعره التي بيّضتها الشمس على مؤخرة رأسه وقد تلبدت بدم جاف وأحرقها البارود قليلاً، بينما كان المحقق في الوفيات يفحصه، محاولاً التحقق من كنيته. ولكن لا يوجد من يعرفه، ولا حتى أولئك الذين عرفوه منذ خمس عشرة سنة في أنحاء الريف، ولا التجار الذين كانوا قد شاهدوه في أيام السبت في البلدة، ولكن ليس في مرات كثيرة، حافي القدمين، بلا قبعة، بتحديقة فارغة سابحة في عالم آخر، ووجنته قد انتفخت ببراءة من حبة سكاكر قاسية بنكهة النعناع. وعموماً، لم يكن أحد يعرف له كنية.

الفصل السادس عشر

في اليوم الذي جلب فيه المأمور غودوين إلى البلدة، كان هناك مجرم من الزنوج في السجن قتل زوجته؛ ذبحها بموسى بحيث أن رأسها كلها كانت تتأرجح نحو الخلف من تدفق الدم من حنجرتها، وهي تسرع هاربة من باب الكوخ وتخطو ست أو سبع خطوات في الزقاق الهادئ تحت نور القمر. كان يتكئ على النافذة في المساء ويغني. بعد العشاء، كان القليل من الزنوج يتجمعون على امتداد الحاجز - في بذلات أنيقة ومصنوعة من قماش رخيص، وأوفرولات مبقعة بالعرق، كتفاً لكتف - ويغنون في كورس مع القاتل، الأغاني الدينية الشعبية (السبيريتشوال) بينما يبطئ الأشخاص البيض البشرة في سيرهم ويتوقفون في العتمة المورّقة التي كانت في فصل هو الصيف تقريباً، للإصغاء إلى أولئك الذين كان من المؤكد أنه سيموتون وإلى ذاك الذي قد سبق له ومات وهم يغنون أغاني تدور حول السماء وحول كونهم منهكين؛ أو ربما في الفترة الفاصلة بين الأغاني، كان صوت قوي مجهول المصدر يخرج من العتمة الشديدة حيث كان الظل الرث لشجرة السماء التي كانت تغطي مصباح الشارع عند الركن كشبكة، وغنى الصوت بحزن: «أربعة أيام أخرى! وبعدها سيقتلون أفضل مغني باريتون في شمال الميسيسيبي!»

أحياناً، خلال النهار، كان يتكئ هناك، مغنياً لوحده آنئذ، رغم أن طفلاً أو طفلين بثياب رثة ومهملة أو بعض الزنوج الحاملين لسلال

التسليم، على وجه الاحتمال، سيتوقفون عند الحاجز، والرجال البيض الجالسون في كراس مائلة على امتداد جدار المرآب المتسخ بالزيت الذي يقع عبر الشارع سيصغون من فوق أفكاكهم الثابتة. «يوم واحد آخر! ثم أصبح أنا ابن حرام مسكين. قولوا، أليس من مكان لك في الجنة! قل، أليس من مكان لك في الجحيم! قل، أليس من مكان لك في السجن!».

قال غودوين وهو يرفع رأسه الداكن اللون ووجهه النحيل الأسمر المنهك قليلاً: «اللعنة على هذا الشخص، لست في أي وضع يؤهلني لأتمنى لهذا الرجل ذلك النوع من الحظ، ولكن فلألعن... لقد رفض الكلام. «لم أفعل ذلك. أنت تعرف ذلك بنفسك. تعرف أني ما كنت لأفعل ذلك. لن أقول ما أظنه. لم أفعل ذلك. عليهم أن يثبتوا أني فعلته أولاً. فليفعلوا ذلك. أنا بريء. ولكن لو تحدثت، لو قلتُ ما أظنه أو أعتقده، لن أكون بريئاً». كان جالساً على السرير في زنزانته. رفع نظره إلى النوافذ: فتحتان لا تزيدان في كبرهما عن جرحين من سيف.

قال بنبو: «هل هو رام جيد إلى ذلك الحد؟ أن يصيب رجلاً عبر واحدة من تلك النوافذ؟» نظر غودوين إليه. «من؟».

قال بنبو: «بوباي؟».

قال غودوين: «هل فعلها بوباي؟».

قال بنبو: «أليس هو من فعلها؟».

«لقد قلتُ كل ما سأقوله. ليس عليّ أن أبرئ نفسي. وعليهم هم أن يثبتوا أني الفاعل».

قال بنبو: «إذاً، ما الذي تريده من محام؟ ما الذي تريد مني فعله؟».

لم يكن غودوين ينظر إليه. «إذا وعدتني فحسب بالحصول للطفل على المال بحيلة صحفية جيدة حين يكبر بما فيه الكفاية بحيث يتمكن من صنع تغيير ما، ستكون روبي في حال حسن، أليس كذلك يا فتاتي العزيزة؟» وضع يده على رأس المرأة، ممسداً شعرها بيده. جلست على السرير إلى القرب منه، وهي تحمل الطفل في حضنها. كان الطفل مستلقياً في حالة سكون كأنه مخدَّر؛ أشبه بالأطفال الذين يحملهم الشحاذون في شوارع باريس؛ ووجهه الشاحب زلق ومغطى برطوبة خفيفة، وشعره همسة رطبة من الظل عبر جمجمته النحيلة بارزة الشرايين، وهلال رفيع من البياض يظهر تحت جفنيه اللذين بلون الرصاص.

كانت المرأة ترتدي ثوباً من الكريب الرمادي، وقد نظف بأناقة وزين بمهارة باليد. وبالتوازي مع كل درزة كانت تلك السمة الباهتة الضيقة المزجّجة التي يمكن لامرأة أخرى أن تميزها من مسافة مائة ياردة بلمحة واحدة. على الكتف كانت زينة أرجوانية اللون من النوع الذي يمكن شراؤه من مخازن العشر سنتات أو بالبريد. وعلى السرير إلى جانبها كانت قبعة رمادية بخمار مزين بأناقة. نظر بنبو إليها، ولم يستطع أن يتذكر متى شاهد واحدة مثلها من قبل، حين توقفت النساء عن ارتداء أمثالها.

اصطحب المرأة إلى منزله. مشيا، وهي تحمل الطفل بينما حمل هو زجاجة حليب وبعض مواد البقالة وأطعمة محفوظة في العلب. كان الطفل ما يزال نائماً. قال: «ربما تحملينه كثيراً. فلنفترض أننا سنجلب له مربية».

تركها في المنزل وعاد إلى البلدة، إلى مكان فيه هاتف، وهاتف أخته ليطلب منها السيارة. وصلت السيارة إليه. حكى لشقيقته وللآنسة جني عن القضية على مائدة العشاء.

قالت شقيقته بوجه هادئ وصوت غاضب: «ما تفعله مجرد تدخل فيما لا يعنيك! حين أخذت من رجل آخر زوجته وطفلته، ظننت أن ذلك كان أمراً مريعاً، ولكني قلت في نفسي إنه لن يجروٴ على العودة إلى هنا مرة أخرى على الأقل. وحين غادرت ذلك المنزل كزنجي وتخليت عن زوجتك فكرت أنه أمر مريع أيضاً، ولكني لن أدع نفسي أصدق أنك كنت تعني أن تتخلى عنها نهائياً. ثم حين أصررتَ دون أي مبرر إطلاقاً على ترك هذا المنزل وفتح منزلنا، ورحت تنظفه بنفسك، والبلدة كلها تتفرج، ورحت تسكن فيه كمتشرد، وترفض أن تبقى هنا معنا حيث يتوقع منك الجميع ذلك، ويظنون أنه من المضحك ألا تفعل ذلك؛ والآن ها أنت تتورط عن عمد مع امرأة قلت أنت شخصياً إنها كانت مومساً وامرأة مجرم».

«لا أستطيع أن أفعل سوى ذلك. إنها لا تملك شيئاً وليس لها من يعتني بها. ترتدي ثوباً عتيقاً أعادت خياطته وتزيينه، ومن طراز مرت عليه خمسة أعوام، وتحمل ذلك الطفل الذي هو نصف حيّ لا أكثر، وقد لُفّ بقطعة من بطانية مهترئة. وهي لا تطلب أي شيء من أي شخص عدا أن تترك بحالها، وتحاول أن تدبر أمور حياتها، بينما أنتن النساء المحميات الطاهرات..».

قالت الآنسة جني: «هل تريد أن تقول إن صانع مشروبات كحولية غير قانونية ليس معه من المال ما يكفي لتعيين أفضل محام له في البلاد؟».

قال هوريس: «ليس الأمر كذلك. أنا واثق من أنه يستطيع الحصول على محام أفضل. ولكن الأمر وما فيه..».

قالت شقيقته التي كانت تراقبه: «يا هوريس، أين هي تلك المرأة؟»

كانت الآنسة جني تراقبه أيضاً، وهي جالسة نحو الأمام قليلاً في كرسيها المتحرك ذي العجلات. «هل أدخلت تلك المرأة إلى منزلي؟».

«إنه منزلي أنا أيضاً يا حبيبتي». لم تكن تدري أنه كان يكذب منذ عشر سنوات على زوجته حتى يدفع الفائدة على الرهن المفروض على المنزل المجصص الجدران الذي بناه لأجلها في كينستون، حتى لا تؤجر شقيقته المنزل الآخر الذي في جفرسون للغرباء والذي لم تكن زوجته تعرف أن له أي حصة فيه. «طالما كان فارغاً وذلك الطفل..».

«المنزل الذي عاش فيه أبي وأمي وأبوك وأمك، المنزل الذي عشتُ أنا... لن أسمح بذلك. لن أسمح بذلك».

«لليلة واحدة فقط إذاً. سآخذها إلى فندق في الصباح. فكّري بها وحيدة، مع ذلك الطفل... تصوري أنها أنتِ و(بوري)، وزوجك متهم بجريمة قتل تعرفين أنه لم يرتكبها».

«لا أريد التفكير فيها. أتمنى لو أني لم أسمع هذه الحكاية كلها... أن أظن أن أخي... ألا ترى أنك على الدوام مضطر إلى أن تنظف وراءك؟ لا يعني ذلك أن هناك قمامة تخلفها ؛ بل الأمر وما فيه أنك... أنك... ولكن أن تحضر مومساً وقاتلة إلى المنزل الذي ولدت فيه».

قالت الآنسة جني: «هراء. ولكن يا هوريس، ألا يمثل هذا ما يسميه المحامون بالتواطؤ؟ بالتستر على جريمة؟» نظر هوريس إليها. «يبدو لي أنه سبق وكانت لك علاقة صغيرة بهؤلاء الأشخاص أكثر مما ينبغي لك كمحام. ولقد كنت هناك في ذلك المكان حيث حدثت الجريمة قبل وقت ليس بالطويل. قد يبدأ الناس بالظن بأنك تعرف أكثر مما قلته».

قال هوريس: «الأمر هكذا يا سيدة بلاكستون. وأحياناً أتساءل لماذا

لم أصبح غنياً من عملي كمحام. ربما سأصبح كذلك، وهذا سيحدث حين أصبح عجوزاً بما فيه الكفاية لأدرس في كلية الحقوق نفسها التي درستِ أنت فيها».

قالت الآنسة جني: «لو كنت مكانك لكنت سأقود السيارة إلى البلدة الآن وأصطحبها إلى الفندق وأجعلها تستقر هناك. ليس الوقت متأخراً».

قالت نرسيسا: «ولعدتُ إلى كينستون حتى تنتهي هذه القضية كلها. هؤلاء الناس ليسوا ناسك. لم عليك أن تفعل مثل هذه الأمور؟».

«لا أستطيع الوقوف متبطلاً وأنا أرى الظلم..».

قالت الآنسة جني: «لن تتمكن أبداً من تدارك الظلم ياهوريس».

«حسناً، إنها روح السخرية التي تكمن في الأحداث إذاً».

قالت الآنسة جني: «هاهه... لا بدّ أن السبب هو أن امرأة بعينها تعرفها أنت لا تعرف شيئاً عن ذلك القريدس».

قال هوريس: «على أي حال، لقد تكلمت كثيراً جداً. لذا سيكون عليّ أن أثق بأنكما كلتاكما..».

قالت الآنسة جني: «هراء. هل تظنّ أن نارسيسا تود أن يعرف أي شخص أن أياً من أهلها يمكن أن يعرف أشخاصاً من شأنهم أن يفعلوا أي شيء مثل ممارسة الجنس أو السرقة أو النهب وكأنه أمر طبيعي؟» كانت أخته تتمتع بتلك الخاصية. خلال الأيام الأربعة كلها بين كينستون وجفرسون كان هو يعتمد على تلك الكتامة لديها. لم يكن يتوقع منها - ولا من أي امرأة - أي تكترث كثيراً جداً برجل لا هي تزوجته ولا هي حملته لأنها حين كان لديها زوج فقد كانت أهلاً لتعزه

وتقلق عليه. ولكنه كان قد توقع تلك الكتامة حيث أنها تمتعت بها مدة ست وثلاثين سنة.

حين وصل إلى المنزل في البلدة، كان هناك نور في إحدى الغرف. دخل، وعبر الأرضية التي نظفها بنفسه، مكتشفاً في ذلك الحين أنه لا يملك من المهارة بالممسحة أكثر مما كان يتوقعه، وكذلك الأمر بمهارته بالمطرقة الضائعة التي ضرب بها المسامير على النوافذ والمصاريع قبل عشر سنوات؛ وهو الذي لم يتعلم حتى قيادة السيارة. ولكن هذا كان قبل عشر سنوات، والمطرقة استبدلت إذ استخدم واحدة جديدة نزع بها المسامير التي كان قد ثبتها بخرق، وانفتحت النوافذ على مساحات من الأرضية الممسوحة التي بدت كبرك ميتة ضمن العناق الشبحي للأثاث الذي ألبس أغطية أشبه بقلانس.

كانت المرأة ما تزال مستيقظة، مرتدية ملابسها عدا القبعة التي كانت على السرير حيث ينام الطفل. وبوجودهما معاً هناك على السرير، فقد أضفيا على الغرفة خاصية من خواص الترحال أكثر جلاء من النور المؤقت، إيهام أنيق للسرير المرتب في غرفة عابقة من نواحٍ أخرى بالهجر. وكأن الأنوثة كانت تياراً يجري عبر سلك عُلّق على امتداده عددٌ من المصابيح المتشابهة.

قالت: «لديّ في المطبخ بعض الأشياء. لن أتأخر سوى دقيقة واحدة».

كان الطفل مستلقياً على السرير، تحت النور غير المظلل، وتساءل لم ترفع النساء، لدى مغادرة المنزل، الظُلّة عن المصابيح رغم أنهن لا يلمسن أي شيء آخر. نظر إلى الطفل، إلى جفنيه المائلين إلى الازرقاق واللذين كانا يظهران هلالاً واهياً من البياض المائل إلى الزرقة على خديه

بلونهما الرصاصي، والظل الرطب لشعره الذي يغطي جمجمته، ويديه المرفوعتين بكفين مضمومتين، وتتعرقان أيضاً، وراح يفكر: «يا إلهي الطيب. يا إلهي الطيب».

كان يفكر بالمرة الأولى التي رآه فيها، نائماً في صندوق من الخشب خلف الموقد في ذلك المنزل الخرب على مبعدة اثني عشر ميلاً من البلدة؛ ويفكر بوجود بوباي الشرير الذي يتمدد فوق المنزل كظل شيء ما ليس أكبر من عود كبريت يتضاءل على نحو هائل ومنذر بالشر على شيء ما آخر مألوف ويوميّ وأكبر من حجمه بعشرين مرة. وراح يفكر بهما هما الاثنين - بنفسه وبالمرأة - في المطبخ المضاء بمصباح متشقق ومسخم على مائدة عليها أطباق نظيفة وبسيطة، وغودوين وبوباي في مكان ما من العتمة الخارجية الهادئة بحشرات وضفادع مملوءة أيضاً بوجود بوباي في ثيابه السوداء وتهديده المجهول. كانت المرأة قد سحبت الصندوق من خلف الموقد ووقفت تنظر إليه، ويداها ما تزالان مخفيتين في ثوبها الذي لا شكل له. «عليّ أن أبقيه في هذا حتى لا تصل الجرذان إليه».

قال هوريس: «أوه، لديك ابن». ثم أرته يديها، وفتحت يديها بقوة بإيماءة كانت على الفور تلقائية وحيّة وخجلة وفخورة، وقالت له إنه يمكنه أن يحضر لها خلالة لتنظيف الأظافر.

عادت بشيء ملفوف بإحكام بجزء من صحيفة. عرف أنه حفاضَ غُسل مؤخراً، حتى قبل أن تقول هي: «لقد أشعلت ناراً في الموقد. أعتقد أني تجاوزت حدودي».

قال: «طبعاً لا. إنها مجرد مسألة احتياطات قانونية، كما ترين. الأفضل أن يوضع الجميع في حالة انزعاج قليل مؤقت على أن نضع

قضيتنا في موضع الخطر». لم يبد عليها أنها كانت تصغي. نشرت البطانية على السرير ووضعت الطفل فوقها. قال هوريس: «أنت تفهمين كيف هي الأمور، إذا شكّ القاضي بأني كنت أعرف عن القضية أكثر من تسوغه الحقائق... أعني أن علينا أن نحاول إعطاء كل شخص الفكرة بأن اعتقال (لي) بسبب جريمة القتل تلك هو مجرد..».

قالت: «هل تعيش في جفرسون؟» وهي تلف الطفل بالبطانية.

«كلا، أعيش في كينستون. كنت أعيش... لقد مارست المحاماة هنا، على أي حال».

«لديك أقرباء هنا على كل حال. نساء. اعتدن السكن في هذا المنزل».

رفعت الطفل، وهي تحكم البطانية من حوله. ثم نظرت إليه. «لا بأس. أعرف كيف هي الأمور. لقد كنت طيباً معي».

قال: «اللعنة. هل تعتقدين... هيا بنا. فلنذهب إلى الفندق. وعليك أن تنامي جيداً هذه الليلة، وسأكون عندك في وقت مبكر من الصباح. اسمحي لي أن أحمله».

قالت: «أنا أحمله جيداً». بدأت تقول شيئاً ما آخر، وهي تنظر إليه بهدوء لبرهة، ولكنها تابعت السير. أطفأ النور ولحق بها وأقفل الباب. كان قد سبق لها وركبت في السيارة. ركب هو في السيارة أيضاً.

قال: «إلى الفندق يا آيسوم. لم يسبق لي أن تعلمت قيادة السيارات. أحياناً، حين أفكر في كل ذلك الزمن الذي أنفقته دون أن أتعلم فعل الأشياء..».

كان الشارع ضيقاً وهادئاً. وكان مرصوفاً الآن، رغم أنه كان قادراً على التذكر أنه بعد المطر، كان الشارع يتحول إلى قناة من مادة سوداء نصفها تراب ونصفها ماء، مع أخاديد مهمهمة كان هو ونارسيسا يجدّفان وينثران الرُشاش وقد شمرا ملابسهما عالياً وتلوث كفلاهما بالطين، بعد محاولاتهما لتسيير الزوارق المصنوعة بالمدية دون إتقان، أو صنع كرات من الطين بالدوس والدوس على بقعة واحدة مع نسيان مكثف لما فعله الخيميائيون. استطاع أن يتذكر أن الشارع البريء من الإسمنت، كان محاطاً من جانبيه بممرات من الآجر الأحمر رصفت رتيبة ومتفاوتة دون نظام واهترأت متحولة إلى موزاييك أحمر غني بلونه ومتناثر على الأرض السوداء التي لا تصلها أشعة شمس الظهيرة أبداً. في تلك اللحظة كانت طبعات قدميه وقدمي أخته وهما حافيين في الحجر الصناعي في الإسمنت قرب مدخل الممر المخصص للسيارات.

كانت المصابيح غير المنتظمة المركبة تتراكب بالتعاظم تحت قوس محطة وقود عند الركن. انحنت المرأة إلى الأمام فجأة. قالت: «توقف هنا، من فضلك يا بوي[1]. داس آيسوم على المكابح. قالت: «سأنزل هنا وأمشي».

قال هوريس: «لن تفعلي مثل هذا الشيء أبداً. تابع السير يا آيسوم».

قالت المرأة: «كلا، انتظر. سنمرّ الآن على أشخاص يعرفونك. ثم على الساحة».

قال هوريس: «هراء. تابع السير يا آيسوم».

١– بوي: وهي الكلمة التي يستخدمها البيض من سكان الولايات الأمريكية الجنوبية في مخاطبة ذوي البشرة السوداء بغض النظر عن سنّ الشخص المخاطب. والكلمة تعني صبي أو ولد أو خادم.

قالت: «إذاً، اخرج أنت وانتظرنا. يستطيع هو أن يعود مباشرة».

قال هوريس: «لن تفعلي هذا. بحق السماء، أنا... تابع السير يا آيسوم!»

قالت المرأة: «هذا أفضل لك». تراجعت في جلستها في المقعد. ثم انحنت إلى الأمام مجدداً. «اسمعني. لقد كنت طيباً معي. أنت لا تقصد إلا ما هو صحيح، ولكن..».

«أنت تعنين أني لست محامياً بما فيه الكفاية؟».

«أعتقد أني حصلت على ما كان ينتظرني فحسب. لا فائدة من محاربته».

«ليس الأمر هكذا بالتأكيد. إن كنت تشعرين بهذه الطريقة فيما يخص هذه المسألة. ولكنك لا تشعرين بذلك. وإلا كنت ستقولين لآيسوم أن يقود بك السيارة إلى محطة القطار. أليس كذلك؟» كانت تنظر إلى الطفل، وهو متضايق من البطانية التي تغطي وجهه. «هيا ارتاحي هذه الليلة جيداً وسأكون عندك في الصباح الباكر غداً». مرّا بمبنى السجن... مبنى مربع وقد تناثرت عليه شرائح واهية من النور. النافذة المركزية كانت الوحيدة الواسعة بما فيه الكفاية لتسمى نافذة، وكانت قضبان نحيلة تتشابك عليها. فيها كان الزنجي القاتل يتكئ عليها. إلى الأسفل على امتداد الحاجز، كان صف من الرؤوس المغطاة بالقبعات وتلك الحاسرة فوق أكتاف غلّظها العمل الشاق؛ والأصوات الممتزجة ترتفع قوية وحزينة في المساء العليل السطحي، يغنون عن الجنة وهم تعبون. «لا تقلقي قط. الكل يعرف أن (لي) لم يفعلها».

توقفت السيارة عند الفندق، حيث كان باعة جوالون يجلسون في

كراسٍ على امتداد المنعطف وهم يصغون إلى الغناء. قالت المرأة: «عليّ أن..». ترجل هوريس وأمسك بالباب وهو مفتوح. لم تتحرك المرأة. «اسمع، عليّ أن أخبر..».

قال هوريس وهو يمدّ يده: «أجل. أعرف. سأكون هنا غداً صباحاً باكراً». ساعدها على الترجل. دخلا الفندق، والباعة الجوالون يلتفتون ليتطلعوا إلى ساقيها، ومضيا نحو مكتب القبول. لحق بهم صوت الغناء، ولكن الجدران والأنوار أضعفتاه.

وقفت المرأة بهدوء إلى القرب منه، وهي تحمل الطفل، حتى أنهى هوريس التسجيل.

قالت: «اسمع». تابع الحمال سيره وهو يحمل المفتاح، نحو الدرج. لمس هوريس ذراعها، وجعلها تلتفت في ذلك الاتجاه. قالت: «عليّ أن أخبرك».

قال: «في الصباح، سأحضر باكراً». وراح يوجهها نحو الدرج. ما تزال مترددة، وهي تنظر إليه. ثم حررت ذراعها بأن التفتت لتواجهه. قالت: «حسناً إذاً». ثم قالت بصوت هادئ خفيض ووجهها منحنٍ قليلاً نحو الطفل: « ليس معنا أي نقود. سأقول لك الآن. في تلك الدفعة الأخيرة بوباي لم..».

قال هوريس: «أجل، أجل. أول شيء في الصباح. سأحضر مع انتهائك من تناول وجبة الإفطار. ليلتك سعيدة». عاد إلى السيارة، نحو صوت الغناء. قال: «إلى البيت يا آيسوم». انعطفت السيارة ومرت بالسجن مجدداً والشكل المتكئ خلف القضبان والرؤوس على امتداد الحاجز. على الجدار المغطى بالقضبان والشقوق كان الظل المبقّع لشجرة الجنة يرتعد وينبض على نحو هائل رغم أنه لا ريح كانت تهبّ.

راح الغناء، القوي والحزين يتراجع. مضت السيارة في طريقها، بيسر وسرعة، ومرت بشارع ضيق. قال هوريس:هنا، حيث أنت..». كبح آيسوم السيارة.

«قالت السيدة نارسيسا أن أعيدك إلى البيت».

قال هوريس: «أوه، هل فعلت؟ كان هذا أمراً لطيفاً منها. تستطيع أن تقول لها إني غيّرتُ رأيها».

قاد آيسوم السيارة إلى الخلف وانعطف في الشارع الضيق، والأنوار ترتفع وتثقب ما هو أمامها نحو النفق غير المتقن وكأنها في أكثر أعماق البحر عتمة، وكأنها بين الأشكال القاسية المتفرقة التي لا يستطيع حتى النور أن يمنحها لوناً. توقفت السيارة عند الباب وخرج هوريس. قال: «يمكنك أن تقول لها إني لم ألجأ إليها. هل تستطيع تذكر ذلك؟».

الفصل السابع عشر

كانت آخر زهرة لها شكل البوق قد سقطت عن شجرة الجنة على زاوية باحة السجن. كانت الزهور تشكل طبقة سميكة ولزجة تحت الأقدام، حلوة ومفرطة الحلاوة في الأنوف بحلاوة متخمة ومحتضرة؛ وفي الليل الآن كان الظل الرث للأوراق نصف المتفتحة تنبض على النافذة ذات القضبان في ارتفاع وسقوط غير منتظمين. كانت النافذة في الغرفة العمومية، التي كانت جدرانها المطلية بالجير الأبيض ملطخة من الأيدي القذرة، وقد خُربش عليها وخُدشت أسماء وتواريخ وأشعار رديئة النظم تجديفية وداعرة باستعمال قلم رصاص أو مسمار أو سكين. في كل ليلة كان القاتل الزنجي يتكئ هناك، ووجهه وقد ظهر ومربعات منعكسة عليه قرب النافذة من القضبان في الفجوات غير الساكنة للأوراق، ويغنّي مع كورس أولئك الواقفين عند الحاجز في الأسفل.

أحياناً، خلال النهار كان يغني أيضاً، وحيداً إلا حين يمر مارة بطيئون وأولاد الشوارع رثو الثياب وعمال المرآب عبر الطريق. "يوم آخر! لا مكان لك في الجنة! لا مكان لك في الجحيم! لا مكان لك في سجن الأشخاص البيض! يا أيها الزنجي، إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين أنت ذاهب يا أيها الزنجي؟»".

في كل صباح كان آيسوم يحضر زجاجة حليب، كان هوريس يسلمها للمرأة في الفندق، من أجل الطفل. في عصر يوم الأحد، خرج

ليزور شقيقته. ترك المرأة جالسة على السرير في زنزانة غودوين، والطفل على حضنها. حتى هذا الحين كان يرقد في ذلك السكون كأنه مخدَّر، وجفناه مغلقان في هلالين نحيلين، إلا أنه كان يتحرك بين الحين والآخر في ارتعاشات ضعيفة غلوانية، وينشج.

صعد هوريس إلى غرفة الآنسة جني. لم تظهر شقيقته. قال هوريس: «إنه يرفض الكلام. يقول فحسب إن عليهم أن يثبتوا أنه ارتكبها. يقول إنهم لا دليل لديهم ضده، ليس أكثر مما على الطفل. إنه لا يفكر حتى بالكفالة لو استطاع الحصول عليها. يقول إنه في السجن أحسن حالاً. وأعتقد أنه كذلك. إن تجارته في ذلك المكان قد انتهت إلى غير رجعة الآن، حتى لو أن المأمور لم يجد الغلايات ويدمرها..».

«الغلايات؟».

«أجهزته الخاصة بالتقطير. بعد أن سلّم نفسه، راحوا يبحثون حتى وجدوا أجهزة التقطير. كانوا يعرفون ما كان يصنعه، ولكنهم انتظروا حتى وقع بنفسه بين أيديهم. وعندها انقضوا جميعاً عليه. كان الزبائن الجيدون يشترون الويسكي منه ويشربون كل ما يقدمه لهم مجاناً وربما يحاولون ممارسة الجنس مع زوجته من غير معرفته. كان عليك أن تسمعيهم في مركز البلدة. في هذا الصباح استخدمه القسيس المعمداني كمثال في موعظته. ليس كقاتل فحسب بل كزانٍ أيضاً، وكملوّث للجو الديمقراطي - البروتستانتي الحرّ لمقاطعة يوكناباتاوفا. لقد فهمت أن فكرته كانت أن غودوين وتلك المرأة يجب أن يُحرقا كمثال فريد لذلك الطفل؛ الطفل الذي ستتم تربيته وتعليمه اللغة الإنكليزية من أجل الغاية الوحيدة التي تتجلى في تعليمه أنه قد ولد في الخطيئة لشخصين عانيا من النار لأنهما أنجباه. يا للرب الطيب، هل يمكن لرجل، رجل متمدن، أن يطلب جدياً..».

قالت الآنسة جني: «إنهم مجرد معمدانيين. ماذا عن المال؟».

«كان معه القليل منه، مائة وستون دولاراً تقريباً. وكانت مدفونة في علبة صفيح في الحظيرة. سمحوا له بأن ينبشها. يقول: «هذا سيكفي لإعالتها حتى تنتهي هذه القضية. ثم سنخرج أحراراً. وقد كنا ننوي ذلك منذ فترة طويلة. لو أصغيت إليها، لكان قد سبق لنا وغادرنا ذلك المكان. يقول إنها كانت فتاة صالحة. كانت تجلس على السرير إلى القرب منه، وهي تحمل الطفل، وقد أمسك بذقنها وهزّ رأسها قليلاً».

قالت الآنسة جني «من الجيد أن نرسيسا لن تكون عضواً في هيئة المحلّفين تلك».

«أجل، ولكن ذلك الأحمق لا يدعني حتى أذكر أن ذلك الغوريلا كان في ذلك المكان دائماً. قال: (لا يمكنهم أن يثبتوا أي شيء عليّ. سبق لي ووقعت في ورطة. كل من يعرف أي شيء عني يقول إني لن أؤذي حتى عميلاً في وكالة التحقيقات الفدرالية FBI) ولكن لم يكن هذا هو السبب في عدم رغبته في أن يتم ذكر ذلك السفّاح. وهو يعرف أني أعرف أن الأمر ليس كذلك، لأنه تابع الكلام وهو جالس هناك في أوفروله، يلف لفافات التبغ والكيس معلق بين أسنانه. (سأبقى هنا حتى يتم نسيان الأمر. سأكون في حال أفضل هنا. لا يمكنني فعل أي شيء في الخارج، على أي حال. وهذا المال سيعيلها، وربما يذهب شيء منه لك ريثما يتم الدفع لك على نحو أفضل).

«ولكني عرفت ما كان يفكر فيه. قلت: (لم أكن أعلم أنك جبان).

«قال: (افعل ما أقوله لك. سأكون في حال حسن هنا.) ولكنه لا . .». تقدم في جلسته وهو يفرك يديه ببطء. «لإنه لا يدرك... اللعنة، فليقل المرء ما يريده، ولكن هناك فساد حتى في التطلع إلى الشرّ، حتى ولو

صدفةً. لا يمكن للمرء أن يفاوض على السعر، وأن يهرّب مع الفساد. لقد رأيتِ كيف أن نرسيسا، بمجرد أن سمعت عن الأمر، فقد جعلها هذا قلقةَ وشكاكة. أنا أرى أنه... هل تفترضين أنها ظنت أني أجلب تلك المرأة إلى المنزل ليلاً، أو شيء من هذا القبيل؟».

قالت الآنسة جني: «وأنا ظننت ذلك أيضاً، في البداية. ولكني أعتقد الآن أنها علمت بأنك ستعمل على نحو أكثر جدية في سبيل ما تعتقد أنت أنه صحيح، وليس بسبب أي شيء يمكن لأي شخص أن يعرضه عليك أو يمنحك إياه».

«هل تعنين أنه ستدعني أفكر أنهم لم يملكوا أي مال حين قالت هي..».

دخلت نرسيسا: «ولم لا؟ ألست تقوم بما هو مطلوب بدونه؟»

قالت الآنسة جني: «كنا نتحدث للتو عن القتل والجريمة».

قالت نرسيسا: «آمل أن تكونا قد انتهيتما إذاً». لم تجلس.

قالت الآنسة جني: «لنرسيسا أحزانها أيضاً. أليس كذلك يا نرسيسا؟».

قال هوريس: «وماذا عن الآن؟ هي لم تمسك بـ (بوري) وأنفاسه تنم عن شربه للكحول، أليس كذلك؟».

«لقد نكث حبيبها بعهده لها. لقد تركها وتخلى عنها».

قالت نرسيسا: «يا لك من حمقاء إلى أبعد حد».

قالت الآنسة جني: «أجل يا سيدي. لقد تخلى عنها غووان ستيفنز. هو لم يعد حتى من الحفل الراقص في أكسفورد ليودعها. بل كتب لها

رسالة فحسب». بدأت تفتش في كرسيها. "والآن أجفل في كل مرة يرن فيها جرس الباب، إذ أحسب أن أمّه..».

قالت نرسيسا: «يا آنسة جني، أعطني رسالتي».

قالت الآنسة جني: «انتظري. هاهي. والآن ما رأيك بكل هذا كعملية دقيقة في القلب البشري دون مخدر؟ لقد بدأت أصدق كل ما أسمعه عن أن الشبان والشابات الآن يتعلّمون جميع الأمور الخاصة حتى يتزوجوا، وهي الأمور التي كنا مضطرين إلى الزواج حتى نتعلمها».

أخذ هوريس منها الورقة الوحيدة.

***

«نرسيسا يا عزيزتي،

ليس لهذه ترويسة، وأتمنى لو لم يكن لها تاريخ. ولكن لو كان قلبي فارغاً مثل هذه الصفحة، فما كان من شأن هذا أن يكون ضرورياً البتة. لن أراك مرة أخرى. لا أستطيع أن أكتبها، فلقد مررت بتجربة لا أستطيع... مواجهتها. ليس لديّ سوى شق واحد في الظلام، ألا وهو أني لم أقم بإيذاء أحد سوى نفسي بحماقتي، ولن تعرفي أبداً مدى حماقتي هذه. لا حاجة بي إلى القول بأن الأمل بالا تعرفيه أبداً هو السبب الوحيد الذي يدفعني إلى عدم رؤيتك مجدداً. فكري بي جيداً بقدر ما تستطيعين. أتمنى لو كان لي الحق لأقول لك: إن عرفت بحماقتي، فلا تجعلي ذلك سبباً للانتقاص مني».

(غ.)

***

قرأ هوريس الرسالة، الورقة الوحيدة. حملها بين يديه. لم يقل أي شيء لفترة قصيرة من الزمن.

قال هوريس: «يا للرب الطيب، لقد أخطأ أحدهم فحسبه من رجال عصابة الميسيسيبي في قاعة الرقص».

قالت نرسيسا: «لو كنت في مكانك..». وبعد برهة، قالت: «كم سيدوم هذا بعد الآن يا هوريس؟».

«لن يدوم أطول مما أستطيع تدبره. إن كنت تعرفين أي وسيلة أستطيع من خلالها إخراجه من السجن في الغد فقولي لي».

قالت: «هناك وسيلة واحدة». نظرت إليه لبرهة، ثم استدارت باتجاه الباب. «أي طريق سلكها بوري؟ سيكون الغداء جاهزاً خلال وقت قصير». خرجت.

قالت الآنسة جني: «وهل تعرف ما هي تلك الوسيلة إن لم يكن لديك أي عزم».

«سأعرف إن كان لديّ عزم أم لا حين تقولين لي ما هي الوسيلة الأخرى».

«عد إلى بِل (زوجتك). عد إلى بيتك».

***

كان القاتل الزنجي سيشنق يوم سبت دون احتفال، وسيدفن دون مُلابسة: في إحدى الليالي سيكون آخذاً بالغناء عند النافذة ذات القضبان وبالصياح نحو الظلام الرقيق الكبير لليلة من ليالي أيار (مايو). وفي الليلة التالية سيكون قد ولّى، تاركاً النافذة لغودوين. كانت محاكمة

غودوين ستجري في حزيران (يونيو) دون أن يسمح بالإفراج عنه بكفالة. ولكنه كان ما يزال مصراً على عدم السماح لهوريس بأن يفشي بأن وجود بوباي في مشهد الجريمة.

قال غودوين: «أقول لك إنهم لا يملكون أي دليل ضدي».

قال هوريس: «وكيف تعرف ذلك؟».

«حسناً، مهما كان ذلك الدليل الذي لديهم ضدي، فلدي الفرصة للنجاة في المحكمة. ولكن لو وصل الخبر إلى ممفيس بأني قلت إنه كان في أي مكان قريب من هناك، فما هي الفرصة أمامي للعودة إلى هذه الزنزانة بعد إدلائي بشهادتي؟».

«لديك القانون، العدالة والمدنية».

«أكيد. لو أنفقت بقية حياتي وأنا أقعي في ذلك الركن هناك». قاد هوريس نحو النافذة. «هناك خمس نوافذ في ذلك الفندق هناك تطل على هذه النافذة. ولقد رأيته يشعل أعواد الكبريت بمسدس من مسافة عشرين قدماً. حسناً، اللعنة على كل هذا الأمر، فأنا لن أتمكن أبداً من العودة إلى هنا من قاعة المحكمة في اليوم الذي سأدلي فيه بشهادتي هذه».

«ولكن هناك ما يسمى بإعاقة سير العد...».

«إعاقة اللعنة. فليثبت هو أني فعلتها. وُجد تومي في الحظيرة، وقد أطلقت النار عليه من الخلف. فليجدوا المسدس. كنتُ هناك، أنتظر... أحاول الهروب. كنت أستطيع الهروب، ولكني لم أفعل. أنا من بلّغ المأمور. بالطبع وجودي هناك وحيداً باستثنائها هي وبابا، بدا أمراً سيئاً. لو كانت تلك خدعة، ألن يقول لك الحس السليم بأني كنت سأخترع ما هو أفضل من هذا؟».

قال هوريس: «أنت لا تحاكم بالحس السليم. ستحاكم من قبل هيئة المحلّفين».

«إذاً دعهم يفعلوا ما بوسعهم. هذا كل ما لديهم ليفعلوه. الرجل الميت في الحظيرة، و لم يلمسه أحد. وأنا وزوجتي وطفلي وبابا في المنزل. لا شيء في المنزل جرى لمسه. أنا من نادى على المأمور. كلا، كلا. أعرف كيف تكون لي فرصتي على هذا النحو. ولكن دعني أفكر في ذلك الشخص، وليست هناك فرصة لذلك. أعرف ما سأحصل عليه».

قال هوريس: «ولكنك سمعت صوت إطلاق النار. لقد سبق لك وقلت ذلك».

قال: «كلا، لم أفعل. لم اسمع أي شيء. لا أعرف أي شيء عن الأمر... هل لك أن تنتظر لدقيقة في الخارج بينما أكلم روبي؟».

مرت خمس دقائق قبل أن تنضم إليه روبي. قال: «هناك شيء ما يخص هذا الأمر وهو أني لا أعرف بعد؛ وأنك أنت و(لي) لم تخبراني بعد. هناك شيء ما حذّرك هو منه للتو بألا تقوليه لي. أليس الأمر كذلك؟ مشت إلى القرب منه حاملة الطفل. كان ما يزال ينشج بين الحين والآخر، ويقلّب جسده النحيل بارتعاشات مفاجئة. حاولت تهدئته، فدندنت له، وهزهزته بين ذراعيها.قال هوريس: «ربما تحملينه كثيراً جداً. ربما لو تركتِه في الفندق..».

قالت: «أعتقد أن (لي) يعرف ما يفعله».

«ولكن على المحامي أن يعرف جميع الحقائق، كل شيء. إنه الوحيد الذي يمكنه أن يقرر ما يقوله وما لا يقوله. وإلا فلماذا تتعاقدون مع

محام؟ هذا أشبه بأن تدفعي لطبيب أسنان ليعالج أسنانك ثم أن ترفضي السّماح له بأن ينظر إلى داخل فمك، ألا ترين ما أعنيه؟ أنت لا تعاملين طبيب الأسنان أو طبيب الصحة على هذا النحو». لم تقل هي شيئاً، ورأسها مطأطئة فوق الطفل. كان يعول.

قالت: «اسكت، اسكت الآن!»

«بل وأسوأ من ذلك، فهناك شيء يسمى إعاقة سير العدالة. افترضي أنه أقسم بأنه لم يكن من أحد هناك، افترضي أنه سيكون على وشك أن تبرأ ساحته... وهذا ليس محتملاً... ويأتي فجأة شخص ما شاهد بوباي في ذلك المكان، أو شاهد سيارته تغادر. عندها سيقولون إنه لو أن (لي) لم يقل الحقيقة عن شيء غير هام، فلماذا نصدقه حين يكون عنقه مهدداً بحبل المشنقة؟».

وصلا إلى االفندق. فتح الباب لها. لم تنظر إليه. قالت وهي تدخل: «أظن أن (لي) يعرف ما هو الأفضل». أعول الطفل مطلقاً صرخة نحيلة فيها نشيج وألم». قالت: «اسكت. ششششششش».

كان آيسوم مشغولاً بإحضار نرسيسا من حفل. كان الوقت متأخراً حين توقفت السيارة عند الركن وأقلّته. كان القليل من الأنوار قد بدأ يضاء، وبدأ الرجال يعودون إلى الساحة بعد العشاء. ولكن كان الوقت ما يزال مبكراً بعد ليبدأ القاتل الزنجي بالغناء. قال هوريس: «الأجدر به أن يغني بسرعة أيضاً. أمامه يومان بعد فحسب». ولكن المغني لم يظهر بعد. كان واجهة السجن تطل على جهة الغرب، وكان نور واه أخير بلون النحاس يتلبث فوق القضبان المتشابكة الداكنة وعلى الكتلة الشاحبة ليد، وما كان هناك ريح إلا بالكاد لتعصف بخيط أزرق رفيع من الدخان الذي طفا نحو الخارج وتلاشى برثاثة. "لو لم يكن الأمر

سيئاً بما فيه الكفاية أن يكون زوجك هناك، دون ذلك الوحش المسكين الذي يعدّ أنفاسه المتبقية له بأعلى صوته..».

قالت نرسيسا: «ربما سينتظرون ويشنقوهما معاً. يفعلون ذلك أحياناً، أليس كذلك؟» في تلك الليلة أشعل هوريس ناراً صغيرة في المدفأة. لم يكن الجو بارداً. كان يستخدم غرفة واحدة فقط الآن، ويتناول وجباته في الفندق. كانت بقية المنزل مقفلة من جديد. حاول أن يقرأ، ثم تخلى عن ذلك وخلع ملابسه وذهب إلى السرير، وهو يراقب النار تموت في المدفأة. سمع ساعة البلدة تدق الثانية عشرة. قال: «حين ينتهي هذا الأمر كله، أعتقد أني سأسافر إلى أوربا. أنا في حاجة إلى التغيير. إما أنا أو الميسيسيبي، واحد».

ربما سيتجمع القليل منهم بعد على امتداد الحاجز، بما أن هذه ستكون ليلته الأخيرة. كان شكله المكتنز صغير الرأس يتمسك بالقضبان، كما قد تفعل الغوريلا، ويغني، بينما ينبض ويتغير على ظله، فوق الفوهة ذات المربعات للنافذة، الحزن الرث لشجرة الجنة، وقد سقطت منها الآن آخر زهرة في لطخات لزجة فوق الرصيف. تقلب هوريس مرة أخرى في السرير. قال: «عليهم أن ينظفوا تلك الفوضى اللعينة من على الرصيف. اللعنة. اللعنة. اللعنة».

تأخر في النوم صباح اليوم التالي. لقد شاهد نور النهار. أيقظه شخص يطرق على الباب. كانت الساعة هي السادسة والنصف. ذهب إلى الباب. كان بواب الفندق يقف هناك.

قال هوريس: «ما الأمر؟ هل هي السيدة غودوين؟».

قال الزنجي: «تقول لك أن تأتي حين تصحو من النوم».

«قل لها سأكون هناك خلال عشر دقائق».

حين دخل إلى الفندق مرّ بشاب يحمل حقيبة سوداء صغيرة مثل التي يحملها الأطباء. صعد هوريس الدرج. كانت المرأة واقفة في الباب في المفتوح وهي تتطلع إلى أسفل نحو البهو.

قالت: «لقد أحضرت الطبيب أخيراً، ولكني أردت على أي حال..». كان الطفل راقداً في السرير، بعينين مغلقتين، متورداً ومتعرقاً، ويداه المضمومتان فوق رأسه في هيئة مصلوب، وكان يتنفس بشهقات قصيرة مع صفير. «كان مريضاً طوال الليلة الماضية. ذهبت وجلبت بعض الأدوية وحاولت أن أبقيه هادئاً حتى طبع الصباح. وأخيراً أحضرت الطبيب». كانت تقف قرب السرير، وتتطلع إلى الطفل.

قالت: «كانت هناك امرأة. فتأة شابة».

قال هوريس: «آه... أوه، أجل. الأجدر بك أن تخبريني عن ذلك».

فصل الثامن عشر

قاد بوباي السيارة بسرعة ولكن دون أي خاصية تدل على العجلة أو الهروب، على طول الطريق الترابي ثم الرملي. كانت تمبل إلى جواره. كانت قبعتها منحشرة على مؤخرة رأسها، وشعرها يخرج من تحت الحافة المجعدة في كتل ملبدة. بدا وجهها كوجه مسرنمة، وهي تتمايل باضطراب مع تمايل السيارة. كانت تتمايل على بوباي، فترفع يدها بفعل منعكس مضطرب. وبدون أن يرفع يديه عن المقود كان هو يدفعها بمرفقه. قال: «استجمعي قواك. هيا بنا، الآن».

قبل أن يصلا إلى الشجرة مرّا بالمرأة. كانت تقف قرب الدرب، حاملة الطفل، وطرف ثوبها قد طوي فوق وجهه؛ ونظرت هي إليهما، بهدوء من تحت القبعة الشمسية الباهتة، وهي تخفق بسرعة ضمن وخارج رؤيا تمبل دون أن يبدر عنها أي حركة أو إشارة. حين وصلا إلى الشجرة، قاد بوباي السيارة بعيداً عن الدرب واتجه بها بصخب نحو الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة وعبر قمة الشجرة الساقطة ثم عاد بها إلى الدرب مرة أخرى في دفع سريع لعيدان القصب كما قد يفعل رماة البنادق على امتداد الخندق دون أن يخفف من سرعته. قرب الشجرة كانت سيارة غووان مائلة على جنبها. نظرت تمبل إليها بغموض وبلاهة وهي تصبح أيضاً في الخلف.

عاد بوباي للقيادة في الحفر الرملية. ولكن لم يكن هناك هروب

في العملية. كان يؤدي عمله بنكد شرير، وكان ذلك كل ما في الأمر. كانت سيارة قوية. حتى في الرمل كانت تسير بسرعة أربعين ميلاً بالساعة، وحتى عبر الجدول الضيق نحو الطريق العام، ومن هناك انعطف وسار شمالاً. وبينما هي جالسة إلى جانبه، وقد استجمعت قواها ضد الرجرجات التي سبق لها الآن وتحولت إلى هسهسة متزايدة للحصى، حدقت تميل بفتور نحو الأمام بينما بدأ الطريق الذي عبرته البارحة يتراجع نحو الخلف تحت العجلات كما ملفّ الخيوط، وهي تشعر بدمها يتسيّل ببطء داخل خاصرتيها. جلست بضعف في ركن المقعد وهي تراقب التراجع المطرد لأشجار الصنوبر في مشاهد مفتوحة تتناثر فيها أشجار القرانيا الذاوية ونباتات البردي؛ حقول خضراء بقطن جديد وخالية من أي حركة، هادئة، وكأن يوم الأحد كان خاصية للجوّ والنور والظل... كانت جالسة وساقاها متقاربتان معاً، وهي تصغي إلى التسيّل الحار والدقيق لدمها، وهي تقول بفتور لنفسها: "ما زلت أنزف. ما زلت أنزف».

كان نهاراً مشرقاً ولطيفاً، صباحاً بهيجاً مترعاً بذلك البهاء الرقيق الذي لا يصدّق لشهر أيار (مايو)، الحافل بوعد الظهيرة والحرارة، مع غيوم بدينة عالية أشبه بكتل كبيرة من الكريم المخفوق العائمة بخفة كانعكاسات في مرآة، وتعدو ظلالها برزانة عبر الطريق. كان ربيعاً أرجوانياً. وأشجار الفاكهة، ذات الأزهار البيضاء، كانت أوراقها صغيرة حين نضجت الأزهار. لم تصل بتاتاً إلى ذلك البياض الذي عرفه الربيع السابق. كما أن أشجار القرانيا تزهر إزهاراً كاملاً بعد نضج الأوراق أيضاً، في تراجع أخضر قبل التصاعد التدريجي. أما الليلك والحلوة وذات البرعم الأحمر وحتى أشجار الجنة الرثة فلم يسبق لها أن كانت أجمل ممّا هي عليه الآن ومومضة، مع رائحة حريفة تهب لمسافة مائة ياردة على الهواء الرائع لنيسان(أبريل) وأيار (مايو). كانت نباتات

الجهنمية على الشرفات كبيرة بحجم كرة السلة ومعلقة كالبالونات؛ وبينما راحت تنظر بخواء وغباء إلى جانب الطريق المندفع بدأت تمبل بالصراخ.

بدأت بالعويل ثم ارتفع هذا العويل، فأوقفته فجأة يد بوباي. وبيديها اللتين كانت في حجرها، وهي تجلس بانتصاب، عادت لتصرخ، وهي تتذوق طعم أصابعه اللاذع والقاسي، بينما أبطأت السيارة في سيرها وهي تزعق على الحصى، فأحست تمبل بسريان دمها السري. ثم أمسك بها من مؤخرة عنقها فجلست دون حراك، وفمها مدوّر وفاغر ككهف صغير فارغ. أرجح لها رأسها.

قال: «اخرسي. اخرسي»، وهو يمسك بها لتصمت. انظري إلى نفسك. هنا». وبيده الأخرى أمال المرآة التي على الزجاج الأمامي للسيارة ونظرت هي إلى صورتها، إلى القبعة المرفوعة عالياً وشعرها الملبّد وفمها المدوّر. بدأت تفتش في جيوب سترتها وهي تنظر إلى صورتها المنعكسة. أفرج عنها فأخرجت علبة التجميل وحدقت في المرآة وهي تئنّ قليلاً. وضعت بعض البودرة على وجهها وأحمر الشفاه على فمها ورتبت قبعتها، وهي تنشج في المرآة الصغيرة جداً التي على حجرها، بينما كان بوباي يراقبها. أشعل لفافة تبغ. قال: «ألستِ خجلة من نفسك؟».

أنّت قائلة: «ما زال يتدفق. أستطيع أن أشعر به يتدفق». ونظرت إليه وقد رفعت قلم أحمر الشفاه عالياً وفتحت فمها مرة أخرى. أمسك بها من مؤخرة عنقها.

«أوقفي هذا الآن. ألن تخرسي؟».

نشجت قائلة: «أجل».

«أريد أن أراك وأنت تفعلين ذلك. هيّا. رتبي نفسك».

خبأت علبة التجميل. انطلق هو بالسيارة مجدداً.

بدأ الطريق يزدحم بسيارات المتعة: سيارات يوم الأحد... الملفوفة منها والصغيرة والمغطاة بالوحل من طراز فورد وتشيفروليت. مرت سيارة من طراز أكبر حجماً بالصدفة وهي تسير بسرعة، بنساء ملفّعات وسلال كبيرة مغطاة بالغبار؛ وشاحنات محملة بأشخاص ريفيين بوجوه خشبية في ملابس مثل الخشب الملون المنحوت بعناية. وبين الحين والآخر كانت تمر عربة كبيرة أو أخرى صغيرة. أمام كنيسة ذات هيكل أتلفته العوامل الجوية بنيت على تلة، كان البستان مليئاً بالجياد المربوطة إلى الطّوَل وسيارات وشاحنات مدمرة. تراجعت الغابات وبدأت تظهر الحقول. بدأت المنازل تصبح أكثر تواجداً. على الأفق، فوق الأسطح وفوق برج كنيسة أو برجين، كان الدخان معلقاً.

بدأت تمبل تنظر فيما حولها، كمن يستيقظ من النوم. قالت: «ليس هنا! لا أستطيع..».

قال بوباي: «اسكتي الآن».

أنّت قائلة: «لا أستطيع... يمكنني... أنا جائعة. لم أتناول أي طعام منذ..».

«آه، لستِ جائعة. انتظري حتى نصل إلى البلدة».

نظرت من حولها بعينين مبهورتين زجاجتين. «ربما يكون هنا أشخاص..». انعطف بالسيارة نحو محطة وقود. نشجت: «لا أستطيع الخروج. وما زال يتدفق، صدق ما أقوله».

«ومن طلب منك الخروج؟» ترجل من السيارة ونظر إليها عبر عجلة القيادة. «لا تتحركي». راقبته وهو يعبر الشارع ويدخل من أحد الأبواب. كان دكاناً قذراً لبيع الحلويات. اشترى علبة لفافات تبغ ووضع واحدة في فمه. قال: «أعطني قطعتي سكاكر».

«من أي نوع؟».

قال: «سكاكر». تحت جرس زجاجي على النضد كان طبق من السندويشات. أخذ واحدة ونقف دولارا على النضد والتفت متجهاً نحو الباب.

قال المستخدم: «إليك الباقي».

قال: «احتفظ به. ستصبح غنياً على نحو أسرع».

حين شاهد السيارة كانت فارغة. توقف على مسافة عشرة أقدام منها وأمسك السندويشة بيده اليسرى، بينما انحدرت اللفافة غير المشتعلة إلى ذقنه. شاهده الميكانيكي وهو يعلّق الخرطوم وأشار بإبهامه نحو زاوية البناء.

وراء زاوية البناء كان الجدار يشكل منحنى. في الكوة كان هناك برميل مليء بقصاصات معدنية ومطاطية. بين البرميل والجدار كانت تميل مقرفصة. همست: «لقد رآني تقريباً! كان ينظر إليّ تقريباً!»

قال بوباي: «من؟» نظر إلى الشارع. «من رآك؟».

«كان قادماً باتجاهي تماماً! فتى. من الكلية. كان ينظر باتجاهي..».

«هيا بنا. اخرجي من هنا».

«كان ينظر..». أمسك بها بوباي من ذراعها. قرفصت في الركن،

وهي تشدّ الذراع التي كان يمسك بها، ووجهها الشاحب يتطلع من حول الركن.

«هيا بنا الآن». ثم وضع يده خلف عنقها وأمسك بها.

«أوه»، أعولت بصوت مخنوق. كأنما كان هو يرفعها ببطء بتلك اليد الواحدة. ولأنها توقعت ذلك، لم تكن هناك أي حركة بينهما. جنباً إلى جنب، وتقريباً بطول واحد، بدا الاثنان لائقين وكأنهما بالضبط شخصان يعرفان واحدهما الآخر، وقد توقفا ليمضيا بعض الوقت قبل الدخول إلى الكنيسة.

قال: «هل ستأتين؟ هل ستفعلين؟».

«لا أستطيع. لقد نزل حتى جواربي الآن. انظر». رفعت تنورتها بحركة مجفلة ثم أنزلتها ونهضت مجدداً، وجذعها مقوس نحو الخلف، وفمها الصامت فاغر حين أمسك بها. أطلق سراحها.

«هل ستأتين الآن؟».

خرجت من خلف البرميل. أمسك بذراعها.

أنّت قائلة: «إنه يغطي كل ظهر سترتي. انظر».

«أنت في حال حسنة. سأحضر لك سترة أخرى غداً. هيا بنا». عادا إلى السيارة. عند الركن، توقفت مرة أخرى. همس دون أن يلمسها: «تريدين المزيد منه، أليس كذلك؟ هل تريدين؟» تابعت السير وركبت السيارة بهدوء. أمسك بعجلة القيادة. «إليك هذه السندويشة التي أحضرتها لك». أخرجها من جيبه ووضعها في يدها. «هيا بنا الآن. كليها». قضمت قضمة واحدة منها بطاعة. انطلق بالسيارة واتخذ

طريق ممفيس. ومن جديد، والسندويشة التي قضمت منها في يدها، توقفت عن المضغ وفغرت فاها في ذلك التعبير المستدير اليائس لطفلة. ومن جديد تركت يده عجلة القيادة وأمسكت بمؤخرة عنقها بينما جلست هي دون حراك، تحدق فيه، وفمها مفتوح والكتلة نصف الممضوغة من الخبز واللحم على لسانها.

وصلا إلى ممفيس في منتصف فترة ما بعد الظهر. عند سفح الجرف تحت الشارع الرئيسي، انعطف بوباي بالسيارة نحو شارع ضيق ذي منازل بهياكل ملطخة بسواد الدخان وصفوف من الشرفات الخشبية بنيت نحو الخلف في باحات خالية من العشب، وبين الحين والآخر شجرة وحيدة وشديدة الاحتمال من نوع رديء... ماغنوليا نحيلة مقطوعة الأغصان... شجرة دردار أو شجرة خرنوب قزمة ذات أزهار شاحبة رمادية اللون.... مرصّعة بالنهايات الخلفية للمرائب؛ كومة من الخردة في باحة خالية؛ كهف ذو باب واطئ ذو مظهر مريب حيث يمكن أن يُرى نضد مغطى بقماش مزيّت وصفّ من المقاعد لا ظهر لها، وإبريق قهوة معدني ورجل بدين في مئزر قذر يضع عود أسنان في فمه، يخرج لبرهة من الظلام بتأثير يبدو كصورة فوتوغرافية مشؤومة وبلا معنى وسيئة الصنع.

من الجرف، وإلى ما وراء صف من أبنية المكاتب تبرز شرفاتها بحدة أمام السماء المشمسة، جاء صوت حركة السير... أبواق السيارات، عربات الترولي... تمر عالية على ضفة النهر. في نهاية الشارع، برزت عربة ترولي في الفجوة الضيقة بتأثير يشبه السحر ويتلاشى بصلصلة هائلة. في شرفة على الطابق الثاني كانت زنجية شابة في ملابسها الداخلية فحسب، تدخن لفافة تبغ بتجهم؛ وذراعاها متكئتان على الدرابزين.

أوقف بوباي السيارة أمام أحد المنازل الكامدة ذات الطوابق الثلاثة،

والذي كان مدخله مخفياً بحاجز مشبك قذر يميل بانحراف قليلاً. في المرج المعشب الكالح أمامه كان اثنان من تلك الكلاب الصغيرة ذات الفرو الصوفي، البيضاء، والأشبه بالديدان، أحدهما بشريط قرنفلي اللون والآخر بشريط أزرق من حول عنقيهما، يتحركان بحركة متناقضة كسولة وبذيئة. تحت نور الشمس كانت فروتاهما تبدوان وكأنهما غسلتا بالبنزين.

استطاعت تمبل أن تسمعهما فيما بعد خارج بابها، وهما يقفقفان ويضربان الباب بأقدامهما، أو يندفعان نحو الداخل حين تفتح الخادمة الزنجية الباب، فيتسلقان السرير ويتمددان عليه أو يقفزان إلى حضن الآنسة ريبا بأصوات مخرخرة وصاخبة، وهما يتدحرجان في المدى الهوائي الواسع لصدرها ويلعقان القدح المعدني الذي كانت تحركه بيد مثقلة بالخواتم وهي تتكلم.

«يمكن لأي شخص في ممفيس أن يخبرك من هي ريبا ريفرز. اسألي أي رجل في الشارع، أكان شرطياً أم لا. لقد كان لديّ بعض من أكبر الرجالات في ممفيس هنا بالضبط في هذا المنزل، مصرفيون ومحامون وأطباء... كلهم. كان لديّ مديرا شرطة يتجرعان الجعة هنا في غرفة الطعام، والمفوض نفسه في الطابق العلوي مع إحدى فتياتي. وقد سكرا فحطما الباب وهو في الداخل ووجداه عارياً تماماً وهو يرقص رقصة الرجل الاسكوتلندي. رجل في الخمسين من عمره، وطوله سبع أقدام وبرأس بحجم حبة الفستق السوداني. كان رجلاً طيباً. وكان يعرفني. الجميع يعرف ريبا ريفرز. أنفقوا أموالهم هنا كالماء الجاري، لقد فعلوا ذلك. إنهم يعرفونني. لم أغش أحداً، يا حبيبتي». راحت تشرب الجعة وتتنفس بقوة في الإبريق، واليد الأخرى، وعليها خواتم بماسات صفراء كبيرة بحجم الحصى، كانت تضيع بين موجتي صدرها العارمتين.

كانت أقل حركة منها تبدو وكأنها تُنجز باستهلاك للنفس خارج عن أي تناسب مع المتعة التي يمكن لهذه الحركة أن تمنحها إياها. ما أن دخلا المنزل، بدأت هي تحكي لتمبل عن مرض الربو الذي تعاني منه، بينما كانت تجهد نفسها وهي تصعد الدرج أمامهما، وتزرع قدميها بثقل في خفّ غرفة النوم الصوفي، وفي يدها مسبحة خشبية والقدح في الأخرى. كانت قد عادت للتو من الكنيسة، في ثوب أسود حريري، وقبعة زينت بالأزهار على نحو فظّ. كان النصف الأسفل للإبريق ما يزال مندى من الشراب البارد في داخله. كانت تتحرك بثقل من فخذ ضخم إلى آخر، والكلبان يجهدان تحت قدميها، وهي تتحدث بثبات عبر كتفها بصوت أمومي أبحّ وبأنفاس متقطعة.

«يعرف بوباي أنه من غير الممكن أن يحضرك إلى مكان أفضل من منزلي هذا. لقد كنت ألحّ عليه؛ منذ كم من السنين وأنا ألحّ عليك كي أحضر لك فتاة، يا عزيزي؟ ما أريد قوله هو أن الشاب لا يمكنه أن يعيش بعد الآن دون فتاة أكثر من..». كانت تلهث، وراحت تشتم الكلبين تحت قدميها، وتتوقف لتدفعهما جانباً. قالت: «ابتعدا أنتما إلى هناك»، وهي تهزّ مسبحتها باتجاههما. زمجرا باتجاهها بقوة شريرة، وكشرا عن أسنانهما، فاتكأت على الجدار وبدرت عنها رائحة الجعة، ويدها على صدرها، وفمها فاغر، وعيناها مثبتتان في حملقة من الرعب الحزين من التنفس كله وهي تحاول أن تستنشق بعض الهواء، والإبريق عبارة عن ومضة قصيرة وثخينة وناعمة كفضة كامدة رفعت في العتمة.

انعطف الدرج الضيق على نفسه في تتابع من الامتدادت الشحيحة. كان النور الساقط عبر باب ذي ستارة سميكة أمام وعبر نافذة في نهاية كل ممر، نوراً ذا خاصية منهكة. خاصية مستنفدة: معطلة، مستهلكة... اهتراء طويل المدى شأن بركة ماء فاسدة لا يصلها نور الشمس والضجيج

الحيوي لنور الشمس والنهار. كانت هناك رائحة فاسدة لطعام مخالف للأصول، رائحة كحولية، وبدت ثمبل حتى في جهلها وكأنها محاطة بتشوش شبحي من الملابس الحميمة والهمسات السرية للحم البشري، المبتذل والمنتهك مراراً، والحصين خلف كل باب صامت كانتا تمران به. إلى الخلف منها ومن حولها، ومن حول قدمي الآنسة ريبا، كان الكلبان يتدافعان في ومضات تكشف حفاضيهما، وبراثنهما تطقطق على الشرائط المعدنية التي تثبت البساط الذي على الدرج.

فيما بعد، وهي مستلقية في السرير، ومنشفة تغطي أسفل ظهرها العاري، استطاعت أن تسمعهما يتنشقان ويئنان خارج الباب. كانت سترتها وقبعتها معلقتين على مسامير دقت في الباب، وثوبها وجواربها على كرسي، وبدا لها أنها تستطيع سماع صوت الماء المتناثر من ألواح الخشب المستخدمة في الغسيل في مكان ماء، ورمت بنفسها مجدداً في ألم طلباً للستر كما حدث حين خلعوا عنها لباسها الداخلي.

قالت الآنسة ريبا: «حسناً، حسناً، لقد نزفت أربعة أيام أنا نفسي. إنه لا شيء. سيوقفه (كوين) في دقيقتين، وستقوم (ميني) بغسلها وكيّها جميعاً قبل أن تعرفي ذلك. ذلك الدم سيساوي لديك ألف دولار يا حبيبتي». رفعت الابريق، والزهور التي على قبعتها تحتضر بصلابة، وهي تومئ برأسها بتحية شراب شريرة (كأنها تقول بصحتك). قالت: «يا لنا نحن الفتيات المسكينات». كانت الستائر المغلقة المتكسرة إلى أشكال عديدة كالبشَرة العجوز، تتحرك بضعف مع الهواء المومض، فتنفث في الغرفة على موجات ضعيفة صوت حركة سير يوم الأحد، الاحتفالية، سريعة الزوال. استلقت ثمبل دون حراك في السرير، وساقاها ممدودتان باستقامة ومتقاربتان، تحت أغطية تصل إلى ذقنها ووجهها صغير وشاحب، مؤطر بشعرها الكثيف المنتشر. أنزلت الآنسة ريبا

القدح وهي تشهق طلباً للهواء. وبصوتها الأبح الضعيف راحت تحكي لتمبل كم هي محظوظة.

«كل فتاة في المقاطعة كانت تحاول كسب ودّه، يا حبيبتي. هناك امرأة متزوجة وضئيلة القد تمر أحيناً بنا هنا، وقد عرضت على (ميني) خمسة وعشرين دولاراً لتجعله يدخل الغرفة، وهكذا هي الأمور. ولكن هل تظنين أنه كان ينظر حتى مجرد النظر إلى واحدة منهن؟ وهناك فتيات يحصلن على مائة دولار في الليلة الواحدة. كلا يا سيدي. لقد أنفق ماله بسخاء، ولكن هل تعتقدين أنه كان ينظر إلى واحدة منهن باستثناء مراقصتها؟ لقد عرفت دائماً أنه لن يهتم بأي واحدة من هؤلاء العاهرات العاديات اللواتي هنا. كنت أبلغهن، أقول لهن، إن الواحدة منكن التي ستنال منه ستلبس الماس. كنت أعرف أنه لن يهتم بأي واحدة من هؤلاء العاهرات العاديات، والآن ستقوم ميني بغسلها وكيّها بحيث لن تعرفي أن الأمر قد حصل».

همست تمبل: «لا أستطيع ارتداءها ثانية. لا أستطيع».

«ليس عليك فعل ذلك، إن كنت لا تريدين. يمكنك أن تعطيها إلى ميني، رغم أني لا أعرف ما ستفعله بها باستثناء ربما أنها...». عند الباب كان الكلبان قد بدأا يصدران أصواتاً أعلى كالنشيج. اقترب صوت أقدام. فُتح الباب. دخلت خادمة زنجية وهي تحمل صينية عليها زجاجة سعتها ربع غالون من الجعة وكأساً من الجين، والكلبان يدوران من حول قدميها. «وغداً ستفتح المخازن وسنذهب أنا وأنت للتسوق، كما قال لنا أن نفعل. وكما قلت لك، فالفتاة التي تحصل عليه ستلبس الماس: سترين إن لم أكن..». التفتت، بجسمها الهائل وقد رفعت القدح الكبير، بينما راح الكلبان يتسلقان السرير ثم يصعدان إلى حضنها، وهما يعضان واحدهما الآخر بقوة. ومن وجهيهما المجعدين عديمي

الشكل كانت عيون تشبه الخرز تحملق بوحشية مترعة بالغضب، وقد فغرا فاهيهما بلونهما القرنفلي كاشفين عن أسنان كالإبر. قالت الآنسة ريبا: «ريبا! انزلي! وأنت يا سيد بينفوردا» وبينما راحت تنزلهما، كانت أسنانهما تطقطق على يديها. "لقد عضضتني للتو، أنت... هل عضضت الآنسة... ما اسمك يا حبيبتي: لم أسمعه جيداً».

همست تمبل: «تمبل».

«أعني اسمك الأول يا حبيبتي. لا نتعامل بالرسميات هنا».

«هذا هو: تمبل. تمبل دريك».

«اسمك هذا خاص بالذكور، أليس كذلك. هل غسلت ملابس الآنسة تمبل يا ميني؟».

قالت الخادمة: «اجل يا سيدتي. إنها تجف الآن خلف الموقد». جلبت الصينية وهي تدفع بالكلاب جانباً بحذر بينما راح هذان يطقطقان بأسنانهما عند عقبيها.

«هل غسلتها جيداً؟».

«لقد استغرق مني غسلها كثيراً من الوقت. يبدو ذلك الدم وكأنه أصعب دم ممكن...». وبحركة تشنجية تقلبت تمبل في السرير وأخفت رأسها تحت الأغطية. شعرت بيد الآنسة ريبا.

«حسناً، حسناً. هيا بنا هيا. تناولي الشراب. هذا الشراب على حسابي. أنا لن أترك أي فتاة تخص بوباي..».

قالت تمبل: «لا أريد المزيد».

قالت الآنسة ريبا: «هيا هيا. اشربيه وسوف تشعرين بتحسن».

رفعت رأس تمبل. تمسكت تمبل بالأغطية حتى حنجرتها. قربت الآنسة ريبا الكأس من شفتيها. تجرعته، وتقلبت مجدداً وهي تتمسك بالأغطية من حولها، وعيناها واسعتان وسوداوان فوق الأغطية. قالت الآنسة ريبا وهي تضع يدها على الأغطية: «أراهن أنك جعلكت المنشفة».

همست تمبل: «لا، إنها بحالة جيدة. ما تزال هنا». انكمشت وهي ترتعد: استطاعتا أن تريا رعدة ساقيها تحت الأغطية.

قالت الآنسة ريبا: «هل اتصلت بالدكتور كوين يا ميني؟».

«نعم يا سيدتي». كانت ميني تملأ القدح الكبير من الزجاجة، وقد راح الندى يصاحب ارتفاع الشراب في المعدن. «يقول إنه لا يقوم بمعايدة المرضى عصر أيام الأحد».

«هل أخبرته من هي التي تطلبه؟ هل قلت له إن الآنسة ريبا تريده؟».

«نعم يا سيدتي. يقول إنه لا..».

«عودي وقولي لابن.... ذاك، قولي له إني سوف... كلا... انتظري». نهضت بثقل. «يمكن لجوابه هذا أن يؤدي به إلى السجن ثلاث مرات». تهادت في مشيتها نحو الباب، والكلبان يتجمعان من حول خفيها المصنوعين من اللباد. لحقت بها الخادمة وأغلقت الباب. استطاعت تمبل أن تسمع الآنسة ريبا وهي تشتم الكلبين خلال نزولها الدرج ببطء هائل. تلاشت الأصوات.

كانت الظلال تهب بثبات على النوافذ بأصوات حارشة ضعيفة. بدأت تمبل تسمع صوت ساعة. كانت هذه فوق عباءة وضعت على مشبّك مليء بأوراق خضراء محززة. كانت الساعة من الخزف الصيني المزين بالأزهار، ومدعومة بأربع جنيات من الخزف الصيني. كان لها

عقرب واحد فقط مدرّج ومذهّب، وفي منتصف المسافة بين العاشرة والحادية عشرة، وتضفي على الوجه الفارغ خلاف ذلك خاصية التوكيد الواضح، وكأنما ليس لها أي علاقة بالزمن.

نهضت تمبل عن السرير. أمسكت بالمنشفة من حول جسدها وتسللت نحو الباب، بأذنين حادتين، وعينين عمياوين قليلاً بسبب الجهد المبذول في الإصغاء. كان الوقت هو الغسق. في مرآة كامدة، كان مستطيل شفاف من الغسق آخذ بالتلاشي. لمحت نفسها كشبح نحيل، كظل شاحب يتحرك في العمق الأقصى للظل. وصلت إلى الباب. وعلى الفور بدأت تسمع مائة صوت متضارب في تهديد وحيد متلاق في نقطة واحدة، وراحت تخدش الباب بجنون حتى وجدت الرتاج، فأسقطت المنشفة لتغلقه. ثم التقطت المنشفة وقفزت ووجهها ملتفت جانباً إلى السرير ورفعت الأغطية حتى ذقنها واستلقت هناك، وهي تصغي إلى الهمس السري لدمها.

طرقوا الباب لبعض الوقت قبل أن تصدر هي أي صوت. قالت الآنسة ريبا وهي تلهث بقسوة: «إنه الطبيب يا حلوتي. هيا وكوني فتاة طيبة».

قالت تمبل وصوتها ضعيف وضئيل: «لا أستطيع. أنا في السرير».

«هيا بنا الآن. يريد هو أن يعالجك». كانت تلهث بقسوة. «يا إلهي، لو أنني أستطيع فحسب أن أتنفس تنفساً صحيحاً مرة أخرى. لم أعرف التنفس الصحيح منذ..». كانت تمبل تسمع صوت الكلبين عند أسفل الباب. «يا حلوتي».

نهضت من السرير وهي تمسك بالمنشفة من حول جسدها. سارت بصمت إلى الباب.

قالت الآنسة ريبا «يا حلوتي».

قالت تمبل: «انتظري. دعيني أرجع إلى السرير».

قالت الآنسة ريبا: «يا لها من فتاة طيبة. كنت أعرف أنها ستتصرف على هذا النحو الحسن».

قالت تمبل: «عدّي حتى العشرة الآن». ثم قالت وهي تقف عند الباب: « هل لك أن تعدي حتى العشرة الآن؟» سحبت الرتاج بهدوء، ثم التفتت وأسرعت نحو السرير وقدماها الحافيتان يسمع صوتهما على الأرضية وهو يخفت أكثر فأكثر.

كان الطبيب رجلاً بديناً بشعر خفيف وجعد. كان يضع نظارات ذات إطار مصنوع من قرون الحيوانات، مما لا يضفي على عينيه أي تحريف إطلاقاً، وكأنما كانت من الزجاج الصافي، وهو يلبسها من أجل اللياقة فحسب. راقبته تمبل وهو عبر الأغطية، وهي تتستر بها حتى حنجرتها. همست: «اجعلهم يغادرون. لو أنهم يغادرون فحسب».

قالت الآنسة ريبا: «حسناً، حسناً، سيقدم لك العلاج».

تمسكت تمبل بالأغطية.

قال الطبيب: «لو أن السيدة الصغيرة تسمح فحسب..». كان شعره يتلاشى بدقة من جبينه. أما فمه فكان مزموماً عند زاويتيه، وشفتاه ممتلئتين ورطبتين وحمراوين. خلف النظارات بدت عيناه كعجلتي دراجة صغيرتين تسيران بسرعة مدوخة، كبندقتين معدنيتين. مدّ يداً ثخينة بيضاء تحمل خاتماً ماسونياً، مغطاة بالزغب الأحمر الناعم حتى البراجم الثانية. كان هواء بارد يتسلل إلى جسدها، وتحت فخذيها، وكانت عيناها مغمضتين، وهي تستلقي على ظهرها وساقاها

متقاربتان، وبدأت تبكي بيأس وتذلل، كطفلة في غرفة انتظار طبيب الأسنان.

قالت الآنسة ريبا: «حسناً، حسناً، خذي رشفة أخرى من الجين يا حلوتي، ستجعلك تشعرين بتحسن».

***

في النافذة، كان الظل المتشقق الذي يتثاءب بين الحين والآخر على الإطار، يدخل الغسق إلى الغرفة في موجات باهتة. من تحت الظل كان غسق بلون الدخان يبرز في نفحات بطيئة مثل دخان الإشارة من بطانية، ويتكثف في الغرفة. كانت التماثيل الصغيرة المصنوعة من الخزف الصيني التي تحمل الساعة تومض في ثنيات: ركبة، مرفق، خاصرة، ذراع، صدر، في أوضاع من الوهن الشهواني. يصبح وجه الزجاج أشبه بمرآة، ويبدو كأنه يحمل كل النور المتردد، يحمل في الأعماق الهادئة لمحة هادئة من الزمن المحتضر، بعقرب واحد كمحارب قديم تقاعد عن الحروب. الساعة العاشرة والنصف. استلقت تمبل في السرير، وهي تنظر إلى الساعة وهي تفكر في الساعة العاشرة والنصف.

كانت ترتدي ثوباً كبيراً جداً من قماش الكريب، أسود مقابل الشراشف الكتانية، شعرها الأسود دون نظام رغم تمشيطه، أما وجهها وحنجرتها وذراعاها خارج الأغطية فهي رمادية. بعد أن غادر الآخرون الغرفة، تمددت لفترة ورأسها وكل جسدها تحت الأغطية. وبقيت على هذه الحال حتى سمعت الباب يغلق وصوت الأقدام الهابطة، والصوت الخفيف المتواصل للطبيب وأنفاس الآنسة ريبا المكابدة وقد أصبحا بلون الغسق في البهو الكئيب ثم تلاشيا. ثم قفزت من السرير وأسرعت نحو الباب وأغلقت الرتاج ثم عادت

بسرعة إلى السرير ورمت بالأغطية فوق رأسها مرة أخرى، وهي تتمدد في عقدة محكمة حتى استنفدت الهواء.

كان نور أخير بلون الزعفران يجثم فوق السقف وأعلى الجدران، وقد سبق واكتسب لوناً أرجوانياً من الأبنية الشاهقة المسننة للشارع الرئيسي، عالياً أمام السماء الغربية. راقبته وهو يبهت حين راحت التثاؤبات المتتابعة للظلّ تبتلعه. شاهدت النور الأخير يتكثف في وجه الساعة، وشاهدت القرص يتغير من ثقب مدور في العتمة إلى قرص معلّق في العدم، في الفوضى الأصلية، ويتغير بدوره إلى كرة كريستالية تحمل في أعماقها الساكنة والخفية الفوضى المنظمة للعالم المعقد والظليل الذي تدوّمه الجوانب ذات الندوب إلى الأمام بسرعة تسبب الدوار نحو ظلام يتلبث بكوارث جديدة.

كانت تفكر في الساعة العاشرة والنصف. إنها ساعة ارتداء الملابس للذهاب إلى حفل راقص، هذا إن كنتِ ذات رواج وشعبية بما فيه الكفاية بحيث تتأخرين عن الموعد المحدد. سيكون الجو رطباً من كثرة الاغتسالات التي تمت مؤخراً، وربما تكون البودرة تحت النور مثل التبن في مستودع القش في الحظيرة، والواحدة تنظر إلى الأخرى، وتقارن وتتكلم عما إذا كان باستطاعتكِ أن تتسببي في المزيد من الضرر لو كنت قادرة فحسب على المشي فوق الأرضية وأنت كما أنت الآن. البعض لا يفعلن، وعلى الأغلب أولئك اللواتي لهن سيقان قصيرة. البعض منهن جيدات، ولكنهن كن يرفضن فحسب. وهن لا يقلن السبب. أما الأردأ بينهن على الإطلاق فتقول إن الشبان يظنون أن جميع الفتيات قبيحات باستثناء أمر واحد هو حين يكن مرتديات ملابسهن. تقول إن الأفعى كانت ترى حواء منذ بضعة أيام، ولكنها لم تلاحظها حتى جعلها آدم تضع ورقة التين. قلن كيف تعرفين ذلك؟ فقالت لأن الأفعى

كانت هناك قبل آدم، فهو كان أول من طرد من الجنة؛ كان هناك طوال الوقت. ولكن لم يكن هذا ما عنينه، وقلن: كيف تعرفين ذلك؟ وفكرت ممبل كيف كانت تلك مستندة إلى طاولة الزينة وبقية الفتيات في دائرة من حولها بشعورهن الممشطة وأكتافهن التي تفوح منها رائحة الصابون المعطر والبودرة الخفيفة في الجو وأعينهن مثل السكاكين حتى أنك كنت تستطيعين أن تري لحمها حيث كانت العيون تلمسها، ولكن عينيها في وجهها القبيح جريئتان وخائفتان وشجاعتان؛ وهن كلهن يقلن: وكيف عرفت؟ حتى أخبرتهن ورفعت يدها وأقسمت على ذلك. كان ذلك حين التفتت الأصغر سناً بينهن وخرجت مسرعة من الغرفة. وقد حبست نفسها في الحمام وقد سمعنها وهي تتقيأ.

فكرت في الساعة العاشرة والنصف صباحاً. صباح يوم الأحد، والأزواج يتمشون نحو الكنيسة. تذكرت أن اليوم ما يزال هو الأحد، الأحد نفسه، وذلك وهي تنظر إلى اللمحة المتلاشية الهادئة للساعة. ربما كانت العشرة والنصف هذا الصباح، تلك الساعة العاشرة والنصف. إذاً، أنا لست هنا، هكذا فكرت. هذه ليست أنا. أنا في الكلية. لديّ موعد هذه الليلة مع... فكرت بالطالب الذي كان لها موعد معه. ولكنها لم تستطع أن تتذكر من كان ذاك الطالب. كانت تبقي المواعيد مكتوبة على «راشيتة»[1] فحص اللغة اللاتينية، لذا لم تكن مضطرة للقلق عمن يكون صاحب الموعد. كانت سترتدي ملابسها فحسب، وبعد فترة قصيرة سيأتي صاحب الموعد ليصطحبها. قالت: « الأفضل أن أنهض وأرتدي ملابسي»، وهي تنظر إلى الساعة. نهضت وعبرت

١- راشيتة: الاسم الذي يطلقه الطلاب في سورية على الورقة التي تكتب عليها معلومات ويحاول الطالب في الفحص أن يستفيد منها دون أن يلاحظ المراقبون ذلك.

الغرفة بهدوء. راقبت وجه الساعة، ولكن على الرغم من أنها كانت قادرة على رؤية اضطراب مشوش من نور واهٍ وظلّ من رسم هندسي صغير جداً يتأرجح عبره، إلا أنها لم تستطع أن ترى نفسها. فكرت: «إنه قميص النوم هذا»، وهي تنظر إلى ذراعيها، وصدرها الذي يبرز من تحت ستار متلاشٍ كانت أصابع قدميها تطلّ منه في فواصل زمنية شاحبة وسريعة وهي تمشي. سحبت الرتاج بهدوء وعادت إلى السرير واستلقت هناك ورأسها محاطة بذراعيها.

كان هناك نور ما يزال في الغرفة. وجدت أنها تسمع صوت ساعة يدها. وأنها كانت تسمعه منذ بعض الوقت. اكتشفت أن المنزل كان مليئاً بالضجيج الذي كان يتسلل إلى الغرفة مكتوماً وغير ممكن تمييزه، وكأنه يأتي من مسافة. رنّ جرس ما رنيناً خافتاً وحاداً في مكان ما. صعد شخص ما الدرج في ملابس ذات حفيف. مرت القدمان عبر الباب وصعدتا درجاً آخر وتوقفتا. أصغت إلى ساعة يدها. أُدير محرك سيارة تحت نافذتها بصرير لناقل الحركة. ومن جديد رنّ الجرس الضعيف، حاداً ولفترة طويلة. وجدت أن النور الباهت الذي ما يزال في الغرفة قادم من مصباح الشارع. ثم أدركت أن الوقت ليل وأن الظلام البعيد مليء بأصوات المدينة.

سمعت الكلبين وهما يصعدان الدرج في خربشة جنونية. مرت الضجة بالباب وتوقفت، ثم أصبحت ساكنة تماماً؛ ساكنة حتى أنها كادت تراهما وهما يقرفصان هناك في العتمة على الجدار، ويراقبان الدرج. كان اسم أحدهما هو «السيد فلان». هكذا فكرت تمبل وهي تنتظر سماع صوت قدمي الآنسة ريبا على الدرج. ولكن لم تكن تلك هي الآنسة ريبا. كان صوت القدمين ثابتاً وخفيفاً جداً. فتح الباب، واندفع الكلبان في غشاوتين لا شكل لهما واندفعا إلى ما تحت السرير

وقرفصا هناك، وهما يئنّان. قال صوت ميني: «أنتما أيها الكلبان! لقد جعلتماني أهرق هذا». دخل النور إلى الغرفة. كانت ميني تحمل صينية. قالت: «لقد جلبت لك بعض طعام العشاء. أين ذهب الكلبان؟».

قالت تمبل: «تحت السرير».

اقتربت ميني ووضعت الصينية على السرير ونظرت إلى تمبل، ووجهها اللطيف عارف وهادئ. قالت: «هل تريدين مني أن..». وهي تمدّ يدها. أدارت تمبل وجهها سريعاً إلى جانب. سمعت ميني تركع، وهي تداهن الكلبين، والكلبان يعضان وينشجان كمن هو مصاب بالربو ويطقطقان بأسنانهما. قالت ميني: «"اخرجا الآن.هيا. إنهما يعرفان ما تفعله الآنسة ريبا حين تصر على أن تثمل. أنت يا سيد بينفورد؟».

رفعت تمبل رأسها. «السيد بينفورد؟».

قالت ميني: «إنه ذاك ذو الشريط الأزرق». انحنت ومدت ذراعها للكلبين. كانا متراجعين إلى الجدار عند رأس السرير، وهما يعضان بأسنانهما ويكشران عن أنيابهما نحوها في رعب جنوني». السيد بينفورد كان رجل الآنسة ريبا. كان صاحب الملك هنا لأحد عشر عاماً حتى توفي قبل عامين. في اليوم التالي جلبت الآنسة ريبا هذين الكلبين، وسمت أحدهما السيد بينفورد، والثاني الآنسة ريبا. وكلما تذهب إلى المقبرة، تبدأ بالشرب مثلما فعلت هذا المساء، ثم يهربان هما منها. ولكن السيد بينفورد عانى منها بالتأكيد. في المرة الأخيرة رمته من نافذة الطابق العلوي نحو الأسفل ثم هبطت إلى الطابق السفلي وأفرغت خزانة السيد بينفورد ورمت بكل ما فيها إلى الشارع، عدا الملابس التي دُفن بها.

قالت ممبل: «أوه، لا عجب أنهما خائفان. ليبقيا هنا تحت السرير. لن يزعجاني».

«أعتقد أني مضطرة إلى ذلك. لن يغادر السيد بينفورد هذه الغرفة، أبداً». توقفت من جديد، ونظرت إلى ممبل. قالت: «تناولي هذا العشاء. ستشعرين بتحسن. لقد جلبت لك قليلاً من الجبن أيضاً».

قالت ممبل وهي تلتفت بوجهها جانباً: «لا أريد أياً منه». سمعت ميني تغادر الغرفة. أغلق الباب بهدوء. تحت السرير كان الكلبان يجثمان عند الجدار في رعب شديد وجنوني.

كان النور معلقاً من وسط السقف، تحت ظلة محززة من ورق وردي اللون وقد اسمرّت من حيث نفخها المصباح. وكانت الأرضية مغطاة بسجادة مزينة ولونها أحمر داكن وقد ثبتت بشرائح. أما الجدران ذات اللون الزيتوني فكانت تحمل علامات الطباعة المؤطرة. على النافذتين كانت ستائر ذات تخريمات من صنع الآلات وقد اكتسبت لون الغبار، وكأنها شرائح من الغبار المتخثر. كانت الغرفة كلها ذات مظهر من اللزوجة العفنة والاحتشام. في المرآة المتموجة لخزانة رخيصة مطلية بالورنيش ذات أدراج، كما في بركة ماء راكد، بدا وكأنما يتلبث فيها أشباح منهكون من تلميحات شهوانية وشهوات ميتة. في الركن، وفوق قطعة قماش مزيّنة باهتة ومجرحة وضعت فوق السجادة، كانت مغسلة تحمل طاسة كبيرة رسمت عليها أزهار وإبريق وصفّ من المناشف، وفي الركن من خلفها إناء لفضلات الشاي والقهوة وقد ألبس أيضاً ورقاً ملوناً بلون الورد ومحززاً.

تحت السرير لم يصدر أي صوت عن الكلبين. تحركت ممبل قليلاً. تلاشت الشكوى الجافة للفرشة ونوابضها تحت الصمت الرهيب الذي

كانا يجثمان فيه. فكرتْ بهما، بفروتيهما الصوفيتين وانعدام الشكل لديهما، بوحشيتهما ونكدهما ودلالهما والرتابة الفارغة لحياتهما المحمية التي تتم مقاطعتها دون تحذير بلحظة غير ممكن فهمها من الرعب والخوف من أن يتم إفناؤهما جسدياً على اليد التي كانت ترمز على نحو مألوف إلى الهدوء المرخّص لحياتهما.

كان المنزل مترعاً بالأصوات. أصوات لا يمكن تمييزها، وبعيدة، تصل إليها بخاصية استيقاظ وانتعاش وكأن المنزل نفسه كان نائماً، وهاهو يوقظ نفسه مع الظلام. سمعت شيئاً ما ربما كان انفجاراً للضحك بصوت نسائي حاد. وكانت روائح مشبعة بالبخار تأتي من الصينية وتهب على وجهها. أدارت رأسها ونظرت إليها، وإلى الأطباق المغطاة وغير المغطاة المصنوعة من الخزف الصيني السميك. في وسطها كان كأس من الجين الباهت اللون، وعلبة لفافات تبغ وعلبة كبريت. نهضت متكئة على مرفقيها، وهي تمسك بالثوب الذي انزلق. رفعت الأغطية عن قطعة ستيك سميكة وبطاطا وبازلاء وخبز مدوّر. وهناك كتلة قرنفلية اللون غير ممكن تمييزها أو معرفة اسمها، وقد ميزتها ببعض الحسّ – وربما بالرفض – على أنها نوع من الحلوى. رفعت الثوب المنزلق إلى الأعلى مرة أخرى، وفكرت بهم أولئك الذين يأكلون هناك في الكلية في صخب مرح، ضمن ضجيج مرح من الأصوات والأشواك المطقطقة. فكرت بأبيها وإخوتها على مائدة العشاء في البيت. فكرت بالثوب المستعار والآنسة ريبا تقول إنهما ستذهبان للتسوق غداً. «وأنا ليس معي سوى دولارين فقط»، هكذا فكرت.

حين نظرت إلى الطعام وجدت أنها ليست جائعة على الإطلاق، ولم تكن تريد حتى النظر إليه. رفعت الكأس وتجرعته في دفعة واحدة، ووجهها متجهم، ثم أعادته إلى مكانه، وأدارت وجهها بسرعة عن

الصينية وراحت تفتش بأصابعها عن اللفافات. حين أرادت أن تقدح عود الكبريت نظرت إلى الصينية مجدداً، وأخذت قطعة بطاطا بحذر بين أصابعها وأكلتها. أكلت واحدة أخرى، واللفافة غير المشتعلة في يدها الأخرى. ثم وضعت اللفافة جانباً وأمسكت بالسكين والشوكة وبدأت تأكل، وهي تتوقف بين الحين والآخر لترفع الثوب نحو كتفيها.

حين انتهت من الطعام أشعلت لفافة. سمعت الجرس مجدداً، ثم جرساً آخر بأسلوب مختلف قليلاً. وعبر اندفاعة حادة من صوت المرأة سمعت باباً وهو ينصفق بقوة. صعد شخصان الدرج ومرا بالباب. سمعت صوت الآنسة ريبا وهو يدوي من مكان ما وأصغت إليها وهي تجاهد صاعدة الدرج ببطء. راقبت تمبل الباب حتى انفتح ووقفت الآنسة ريبا فيه، والقدح الكبير في يدها. كانت ترتدي الآن ثوباً منزلياً منتفخاً وقبعة الأرامل مع خمار. دخلت وهي ترتدي خفيها المزينين برسوم الأزهار والمصنوعين من اللباد. تحت السرير كان الكلبان يصدران صوتاً مخنوقاً ومتسقاً يدل على اليأس الكامل.

كان الثوب غير المزرر من الخلف معلقاً على كتفي الآنسة ريبا. كانت قد وضعت يدها المليئة بالخواتم فوق صدرها، والأخرى تحمل القدح الكبير عالياً. أما فمها المفتوح المرصع بحشوات الأسنان الذهبية فقد كان فاغراً من الجهد الكبير الذي تبذله في التنفس.

قالت: «يا إلهي يا إلهي». خرج الكلبان من تحت السرير وانطلقا نحو الباب في حركة مضطربة جنونية. وبينما اندفعا بالقرب منها التفتت ورمتهما بالكأس التي اصطدمت بعضادة الباب فتناثر الشراب على الجدار وارتدت بقعقعة بائسة. تنفست مع صفير وأمسكت بصدرها. اقتربت من السرير ونظرت إلى تمبل عبر الخمار. قالت وهي تعول وتختنق، وخواتمها تلتمع في ومضات حارة في صدرها المتموج:

«كنا سعيدين كزوج من الحمام. ثم كان عليه أن يموت ويتركني وحيدة». تنفست مع صفير وفمها فاغر، مشكلاً الألم المستور لرئتيها المخذولتين، وعيناها باهتتان ومستديرتان بحيرة مجروحة، وجاحظتان. صرخت بصوت قاس مختنق: «كزوج من الحمام».

***

ومن جديد أدرك الوقت الإيماءة الميتة خلف زجاج الساعة. كانت ساعة يد ممبل على الطاولة قرب السرير تشير إلى العاشرة والنصف. ولساعتين كانت قد اضطجعت دون إزعاج، وهي تصغي. كانت قادرة على تمييز الأصوات الآن من تحت الدرج. كانت تسمعها لبعض الوقت، وهي تستلقي في عزلة الغرفة العتيقة والعفنة. فيما بعد كان بيانو آلي يبدأ بالعزف. بين الحين والآخر كانت تسمع مكابح سيارة في الشارع تحت النافذة، في إحدى المرات صعد صوتان يتشاجران بمرارة إلى الظل وتحته.

سمعت صوت شخصين - رجل وامرأة - يصعدان الدرج ويدخلان الغرفة المجاورة لغرفتها. ثم سمعت الآنسة ريبا تجاهد في صعود الدرج وتمرّ ببابها، وهي مستلقية في السرير وعيناها مفتوحتان وساكنتان، فسمعت الآنسة ريبا تطرق بقوة على الباب المجاور بالقدح الكبير المعدني وتصرخ عبر خشب الباب. وراء الباب كان الرجل والمرأة هادئين تماماً، إلى حد أن ممبل فكرت في الكلبين مجدداً، فكرت فيهما وهما يجثمان لصق الجدار تحت السرير في نوبة شديدة من الرعب واليأس. سمعت صوت الآنسة ريبا يصرخ مبحوحاً على الخشب الفارغ. ثم تلاشى الصراخ في شهيق مرعب؛ ثم علا مرة أخرى وهي تشتم الرجل بفظاظة وقوة. خلف الجدار لم يصدر عن الرجل والمرأة أي صوت. مكثت ممبل وهي تنظر إلى الجدار الذي كان صوت الآنسة ريبا خلفه قد علا مجدداً وهي تطرق الباب بالقدح الكبير.

لم تر تمبل بابها ولا سمعته حين فُتح. كل ما حدث أنها نظرت باتجاهه بعد فترة من الزمن لم تعرف مقدارها، فشاهدت بوباي يقف هناك، وقبعته مائلة فوق وجهه. وبدون أن يصدر عنه أي صوت دخل وأغلق الباب والرتاج واقترب من السرير. وبينما بدأت تنكمش ببطء في السرير وهي تشد الأغطية حتى ذقنها، وتراقبه عبر الأغطية. اقترب ونظر إليها. تلوى جسدها ببطء بحركة انكماش على نفسها في عزل كامل وكأنها كانت مقيدة إلى برج كنيسة. كشرت باتجاهه، وفمها ملتو فوق البورسلان القاسي المتذلل لتكشيرتها.

حين وضع يده عليها بدأت تنشج. همست: «لا، لا، قال إني لا أستطيع الآن، هكذا قال..». رمى بالأغطية إلى الخلف وأزاحها جانباً. تمددت دون حراك، وكفاها مرفوعان، ولحمها تحت جلد خاصرتها ينكمش نحو الخلف في انهيار جنوني كما يحدث للناس الخائفين في حشد منهم. راقبت وجهه، فرأت أنه بدأ يرتعش وينفعل كوجه طفل على وشك البكاء، وسمعته وهو يبدأ بإصدار صوت كالنشيج. أمسك بأعلى الثوب. أمسكت بمعصميه وبدأت تتقلب من جانب إلى آخر، وتفتح فمها لتصرخ. أغلقت يده فمها فأمسكت معصمه واللعاب يسيل بين أصابعه، وجسدها يتقلب بجنون من فخذ إلى فخذ، ورأته يجثم قرب السرير ووجهه ملتو فوق ذقنه الغائبة، وشفتاه المائل لونهما إلى الزرقة تصدران صوتاً كصهيل الجياد. إلى ما وراء الجدار كانت الآنسة ريبا تملأ البهو والمنزل بصراخ قاس مختنق من الشتائم البذيئة.

الفصل التاسع عشر

قال هوريس: «ولكن تلك الفتاة كانت على ما يرام. تعرفين أنها كانت كذلك حين غادرت المنزل. حين رأيتها في السيارة معه. كان يوصلها فحسب إلى البلدة. كانت على ما يرام. تعرفين أنها كذلك».

كانت المرأة جالسة على حافة السرير، وهي تنظر إلى الطفل. كان يرقد تحت البطانية الباهتة اللون والنظيفة، ويداه مرفوعتان قرب رأسه، وكأنه مات في حضور ألم لا يحتمل لم يجد الوقت الكافي ليلمسه. كانت عيناه نصف مفتوحتين، وكان محجراهما يتراجعان نحو الجمجمة فلا يظهر منهما إلا البياض، بلون الحليب غير الدسم. كان وجهه ما يزال رطباً من التعرق، ولكن تنفسه كان أسهل. لم يعد يتنفس بتلك الشهقات الضعيفة التي يصاحبها الصفير كما كان حين دخل هوريس الغرفة. على كرسي قرب السرير كان قدح مليء حتى نصفه بالماء الذي حال لونه قليلاً، مع ملعقة فيه. عبر النافذة المفتوحة كانت تأتي الضجة المتعددة المصادر للساحة - سيارات، عربات، وقع خطا الأرجل على الرصيف في الأسفل - ومنها كان هوريس قادراً على أن يرى دار المحكمة، ورجالاً يقذفون الدولارات (المعدنية) إلى الأمام والخلف بين حفر في الأرض تحت شجرة الخرنوب وشجرات السنديان المائي.

تأملت المرأة في الطفل بحزن. «لا أحد يريدها هناك. لقد أخبرهم (لي) أن عليهم ألا يحضروا نساء إلى هناك، وأنا قلت لها قبل أن يحل

الظلام إنهم ليسوا من صنفها من الناس وإن عليها أن تبتعد عن المكان. ولكن ذلك الشخص هو الذي أحضرها. كان هناك على الرواق معهم، وهو ما يزال يشرب، لأنه حين دخل ليتناول طعام العشاء كان لا يستطيع السير إلا بالكاد. لم يحاول حتى أن يغسل الدم عن وجهه. شبان صغار جداً في السن يعتقدون أنه بسبب خرق (لي) للقانون يكون مسموحاً لهم أن يأتوا إلى هناك ويعاملوا منزلنا كـ .... الأشخاص الراشدون سيئون، ولكنهم على الأقل يعتبرون شراء الويسكي كشراء أي شيء آخر. أما أولئك الذين هم من أمثاله، فهم صغار في السن إلى حد أنهم لا يدركون أن البشر لا يخرقون القانون لمجرد الاحتفال بعيد ما». استطاع هوريس أن يرى يديها المنقبضتين وهما تتلويان في حجرها. «يا إلهي، لو استطعت أن أتصرف على هواي، لشنقتُ كل رجل يصنعه أو يشتريه أو يشربه؛ كل واحد منهم».

«ولكن لماذا توجب أن أكون أنا، نحن؟ ما الذي فعلتُه له أو للفتيات من صنفها؟ قلت لها إن عليها أن تبتعد عن المكان. قلت لها: «لا تبقي هنا حتى يحل الظلام». ولكن ذلك الشخص الذي أتى بها كان قد ثمل مرة أخرى، وراح هو و(فان) يتشاجران. لو أنها توقفت فحسب عن التسكع في المكان الذي كانوا يرونها فيه. ما كانت لتبقى في أي مكان. كانت تخرج من باب وخلال دقيقة كانت تدخل مسرعة من الاتجاه الآخر. ولو أنه ترك (فان) وشأنه، لأنه كان على (فان) أن يعود على الشاحنة في منتصف الليل، وكان من شأن بوباي أن يجعله يحسن التصرف. وكانت تلك هي ليلة السبت أيضاً، وهم ساهرون طوال الليل يشربون على أي حال، وأنا التي عانت خلال ذلك كله وكنت أقول لـ (لي) إن علينا أن نرحل عن ذلك المكان، وأنه كان في طريق مسدودة، وكانت تنتابه تلك النوبات كما جرى في الليلة الماضية ولا طبيب ولا هاتف. ثم كان عليها هي أن تأتي إلى هناك، بعد أن كدحتُ من أجله،

وكدحتُ من أجله». كانت ساكنة دون حراك، ورأسها منحن ويداها ما تزالان في حجرها، كانت في تلك الحالة السكونية التي لمدخنة تبرز فوق منزل مدمر بعد إعصار.

«كانت تقف في الركن خلف السرير وهي ترتدي ذلك المعطف المطري. كانت خائفة جداً حين أدخلوا ذلك الشاب وقد تغطى بالدماء. وضعوه على السرير وضربه (فان) مرة أخرى وأمسك (لي) بذراع (فان)، وهي واقفة هناك وعيناها أشبه بثقبين في واحد من تلك الأقنعة. كان المعطف المطري معلقاً فوق الجدار فوق سترتها. كان ثوبها مطوياً وموضوعاً على السرير. رموا بالشاب فوقه تماماً، بدمائه وأجمعه، وقلت: «يا إلهي، هل أنت ثمل أيضاً؟». ولكن (لي) نظر إلي فحسب ورأيت أن أنفه كان قد سبق وأصبح أبيض اللون، وهذا ما يحدث حين يثمل.

«لم يكن هناك أي قفل على الباب، ولكني فكرت بأنهم سرعان ما سيرحلون لينظروا في أمر الشاحنة، وعندها سأتمكن من فعل شيء ما. ثم جعلني (لي) أخرج أنا أيضاً وأخرج المصباح من الغرفة، لذا كان عليّ الانتظار حتى عادوا إلى الرواق قبل أن أتمكن من العودة. وقفت عند الباب تماماً. كان الشاب يشخر، على السرير هناك، ويتنفس بصعوبة، وقد تعرض أنفه وفمه للضرب الشديد مجدداً، وكنت أستطيع سماعهم أولئك الذين يجلسون في الرواق. ثم خرجوا من المنزل، إلى ما حوله وخلفه أيضاً، وكنت قادرة على سماعهم. ثم ساد الصمت.

«وقفت هناك، عند الجدار. كان يشخر ويختنق بأنفاسه ويئنّ، نوعاً ما، وكنت أفكر في تلك الفتاة المستلقية هناك في الظلام، وعيناها مفتوحتان، وهي تصغي إليهم، وأنا التي عليها أن تقف هناك، منتظرة منهم الرحيل حتى أستطيع أن أفعل شيئاً ما. طلبت منها أن ترحل. قلت:

«ما ذنبي أنا إن لم تكوني متزوجة؟ لا أريدك أن تكوني هنا بقدر ما تريدين أنت البقاء هنا». قلت: «لقد عشت حياتي دون أي مساعدة من أشخاص من صنفك؛ فأي حق لديك حتى تنتظري مني مساعدتك؟».

«ثم سمعت الباب يفتح. كنت أستطيع تمييز (لي) من طريقة تنفسه. سار إلى السرير وقال: «أريد المعطف المطري. انهضي واخلعيه»، واستطعت سماع قشور الذرة تطقطق وهو يخلعه عنها، ثم خرج من الغرفة. لقد أخذ المعطف فحسب وخرج. كان ذلك معطف (فان).

«وأنا كان قد سبق لي وتسكعت كثيراً في أرجاء ذلك المنزل ليلاً، وأولئك الرجال هناك، رجال يعيشون على حساب (لي)، رجال ما كانوا سيبذلون أي جهد من أجله لو تم اعتقاله، حتى أني أصبحت قادرة على معرفة كل واحد منهم من طريقة تنفسه، وكنت أستطيع تمييز بوباي من رائحة تلك المادة التي يضعها على شعره. كان تومي يلاحقه. دخل من الباب خلف بوباي ونظر إليّ واستطعت أن أرى عينيه اللتين كعيني هرّ. ثم اختفت عيناه واستطعت أن أشعر به وهو يقرفص نوعاً ما بقربي، واستطعنا سماع بوباي وهو هناك عند السرير وذلك الشاب يشخر ويشخر.

«كنت أستطيع سماع أصوات صغيرة واهية لا غير، صادرة عن قشور الذرة، لذا عرفت أن الأمر على ما يرام بعد، وخلال دقيقة عاد بوباي ولحق به تومي، وهو يزحف من خلفه، ووقفت هناك حتى سمعتهم يهبطون جميعاً باتجاه الشاحنة. ثم ذهبت إلى السرير. حين لمستُها بدأت تقاوم. كنت أحاول أن أضع يدي فوق فمها حتى لا يصدر عنها أي صوت، ولكنها بقيت صامتة. لقد تمددت هناك وهي تتقلب في السرير وتدير رأسها من جانب إلى آخر، وتمسك بسترتها.

«قلت لها: «أيتها الحمقاء! إنها أنا... المرأة»».

قال هوريس: «ولكن تلك الفتاة كانت بخير. حين كنت عائدة إلى المنزل في صباح اليوم التالي بعد مشكلة زجاجة الطفل، رأيتها وعرفت أنها كانت بخير». كانت الغرفة تطل عل الساحة. عبر النافذة استطاع أن يرى الشبان وهم يرمون بالدولارات المعدنية في باحة دار المحكمة، والعربات تمر أو تُربط إلى سلاسل الموقف المخصص لذلك. واستطاع أن يسمع وقع خطوات وأصوات الأشخاص على الرصيف البطيء المتمهل تحت النافذة. كان الناس يشترون أشياء مريحة لأخذها إلى البيوت وتناولها على موائد هادئة. «أنت تعرفين أنها كانت بخير».

***

في تلك الليلة خرج هوريس ليزور شقيقته في سيارة مستأجرة. لم يهاتفها. وجد الآنسة جني في غرفتها. قالت: «حسناً، نرسيسا سوف..».

قال هوريس: «لا أريد أن أراها. أعرف لماذا لم يعُدْ فتاها اللطيف كريم الأصل ذاك؛ السيد المهذب الفرجيني. أعرف لماذا لم يعُدْ».

«من؟ غووان؟».

«أجل، غووان. وبحق الرب، الأجدر به ألا يعود. يا إلهي، حين أفكر بأنه أتيحت لي الفرصة..».

«ماذا؟ ما الذي فعله؟».

«لقد حمل فتاة حمقاء صغيرة معه إلى هناك في ذلك اليوم وثمل ثم هرب وتخلى عنها. هذا ما فعله. ولولا تلك المرأة... وحين أفكر بأشخاص من أشباهه ما يزالون يمشون على الأرض مع تلك الحصانة فقط لأن لديهم بذلة ذات ذيل كالبالون ومروا بالتجربة المذهلة، تجربة

الدراسة في جامعة فرجينيا... في أي قطار أو في أي فندق، في الشارع، في أي مكان، هل تفهمين قصدي..».

قالت الآنسة جني: «أوه، لم أفهم في البدء من كنت تعني. حسناً، أنت تتذكر تلك المرة الأخيرة حين كان هنا، بعد وصولك للتو؟ في اليوم الذي رفض فيه البقاء لتناول العشاء ومضى إلى أكسفورد؟».

«أجل. وحين أفكر أستطيع التذكر».

«لقد طلب من نرسيسا أن تتزوجه. قالت له إن طفلاً واحداً يكفيها».

«قلتُ إنها قاسية القلب. لا تستطيع أن تقتنع بما هو أقل من إهانة».

«عندها جن جنونه وقال إنه سيذهب إلى أكسفورد، وهناك كانت امرأة كان هو واثقاً إلى حد معقول من أنه لن يبدو لها سخيفاً، أو ما شابه من الكلام. حسناً إذاً». نظرت إليه وعنقها منحن لتتمكن من الرؤية عبر نظارتها. «سأعلن أن الأب أمر مضحك، ولكن دع رجلاً يتصرف بشؤون أنثى ليست من أقربائه... ما الذي يجعل رجلاً يظنّ أن اللحم الأنثوي الذي يتزوجه أو ينجبه قد يسيء التصرف، أما ذاك الذي لا يتزوجه ولا ينجبه فهو سيسيء التصرف حتماً؟».

قال هوريس: «نعم. والحمد لله أنها ليست من لحمي ودمي. أستطيع أن أتقبل أن تتعرض للتعرف على وغد ما بين الحين والآخر، ولكن أن أفكر أنها في أي لحظة قد تتورط مع شخص أحمق».

«حسناً ما الذي ستفعله بشأن ذلك؟ هل ستشن نوعاً ما من أنواع الحملات الحمائية؟».

«سأفعل ما قالته. سأجعلهم يسنون قانوناً يلزم كل شخص بإطلاق النار على أي رجل تحت الخمسين من العمر يصنع الويسكي أو يشتريه أو يبيعه أو يفكر فيه... أستطيع مواجهة الوغد، ولكن أن أفكر في أنها قد تكون عرضة للأذى من قبل أي رجل أحمق..».

عاد إلى البلدة. كان الليل دافئاً والظلام مترعاً بصوت الزيزان التي نمت أجنحتها للتو. كان يستخدم سريراً وكرسياً واحداً ومكتباً نشر عليه منشفة ووضع عليها فراشيه وساعة يده وغليونه وكيس تبغه، وصورة لابنة زوجته، (بل الصغيرة)، مسندة إل كتاب. فوق السطح المكسو بطبقة رقيقة لامعة للصورة كان انعكاس قوي للضوء. أزاح الصورة الفوتوغرافية حتى أصبح الوجه واضحاً. وقف أمامها، وهو ينظر إلى الوجه الجميل الغامض الذي كان ينظر بدوره إلى شيء ما يقع إلى ما وراء كتفه، خارج كرتونة الصورة الميتة. كان يفكر بعريشة العنب في كينستون، بالغسق الصيفي وهمهمة الأصوات التي تعتم متحولة إلى صمت مع اقترابه، هو الذي لم يكن ينوي لهما، لها، أي أذى، وهو الذي ما كان ينوي لها ما هو أقل من الأذى، يا إلهي الطيب. الأصوات التي تعتم متحولة إلى الهمسة الباهتة لثوبها الأبيض، إلى الهمسة الرقيقة والحثيثة الخاصة بفصيلة الثدييات لذلك الكائن الصغير الذي لم ينجبه والذي تخمرت فيه برقة بعض التعاطف الحار مع العنب المزهر.

تحرك فجأة. تحركت الصورة وكأنما طوعاً وانزلقت قليلاً عن توازنها المتقلقل على الكتاب. لم تعد الصورة واضحة بسبب الانعكاس القوي للضوء عليها، كشيء ما مألوف يُرى مشوهاً تحت ماء صافٍ. نظر إلى الصورة المألوفة بنوع من الرعب واليأس الهادئين، إلى وجه أكثر قدماً في الخطيئة مما سيكون له هو أن يصبح عليه أبداً، وجه أغبش أكثر ممّا هو جميل؛ وإلى عينين سريتين أكثر منهما لطيفتين. وحين حاول الوصول

إليها أوقعها بشكل مستوٍ. ومن جديد راح الوجه يتأمل برقة خلف السخرية الضاحكة والمتصلبة للفم المطلي بأحمر الشفاه، والذي يفكر بشيء ما موجود إلى ما وراء كتفه. استلقى في السرير وهو بملابسه، والنور مضاء، حتى سمع ساعة دار المحكمة تدق معلنة الساعة الثالثة. ثم غادر المنزل وهو يضع ساعته على معصمه وكيس التبغ في جيبه.

كانت محطة القطار تبعد ثلاثة أرباع الميل عن منزله. أما غرفة الانتظار فيها فكانت مضاءة بمصباح وحيد، وفارغة باستثناء رجل واحد يرتدي الأوفرول وهو نائم على أحد المقاعد، ورأسه على سترته المطوية، وهو يشخر؛ كما كانت هناك امرأة في ثوب من قماش قطني وتضع شالاً داكناً وترتدي قبعة جديدة مزينة بأزهار قاسية وذابلة وذلك باستقامة وبشكل غير ملائم على رأسها. كانت رأسها مطأطئة. ربما كانت نائمة. أما يداها فكانتا متصالبتين على رزمة ملفوفة بالورق على حضنها، وعند قدميها كانت حقيبة ملابس من القش. عندها وجد هوريس أنه نسي غليونه.

جاء القطار فوجده وهو يمشي جيئة وذهاباً على امتداد الرصيف المغطى بالرماد. صعد الرجل والمرأة إلى القطار والرجل يحمل سترته المجعدة، والمرأة الرزمة والحقيبة. تبعهما إلى عربة النهار المليئة بالشخير، والأجساد المتمدد نصفها على الممر وكأنها تعرضت لموت فاجئ وعنيف، بأفواه فاغرة وأعناق ملويةٍ بعنق كأنها تنتظر ضربة السكين.

غلبه النعاس. استمر القطار في سيره وهو يطقطق، توقف، ارتجّ. استيقظ ثم غلبه النعاس من جديد. هزه شخص ما فأيقظه من نومه ليرى فجراً بلون زهرة الربيع، بين وجوه منتفخة غير حليقة غسلت قليلاً وكأنما بالوصمة النهائية المسببة للشحوب التي لكارثة ما، وجوه يرمش واحدها للآخر بعيون ميتة تعود فيها الشخصية بموجات سرية مبهمة.

نزل من القطار، تناول طعام الفطور، وركب قطاراً آخر، فدخل عربة كان فيها طفل يعول بيأس. راح هو يسحق قشور الفستق السوداني تحت قدميه خلال تحركه نحو آخر العربة التي تفوح منها رائحة نشادر بائتة حتى وجد مقعداً إلى القرب من رجل. بعد لحظة انحنى الرجل إلى الأمام وبصق مضغة تبغ بين ركبتيه. نهض هوريس بسرعة وتقدم نحو الأمام ليدخل عربة المدخنين. كانت ممتلئة أيضاً، والباب بينها وبين العربة المخصصة حصراً للزنوج مفتوحاً يتأرجح. وقف في الممر فاستطاع أن ينظر إلى الأمام نحو ممر آخذ بالتناقص من ظهور مقاعد مغطاة بالقطيفة الخضراء تعلوها قنابل مدفع كروية تلبس القبعات وتتأرجح في انسجام؛ بينما راحت هبّات من الكلام والضحك تعصف رجوعاً وتبقي الهواء اللاذع في حركة مضطردة من حيث كان الرجال البيض يجلسون ويبصقون في الممر.

نزل من القطار مرة أخرى ليركب آخر. كان الحشد المنتظر مؤلفاً نصفه من شبان في ملابس جامعية مع شارات صغيرة ملغزة وضعت على قمصانهم وصدراتهم، وفتاتين بوجهين صغيرين مطليين بالمساحيق وملابس ضئيلة براقة كأنهما زهرتان اصطناعيتان متشابهتان محاطتان بنحلات لامعات وقلقات. حين وصل القطار اندفعوا بمرح نحو الأمام وهم يتكلمون ويضحكون، ويدفعون بالمناكب الأشخاص الأكبر سناً بوقاحة مرحة ويتصادمون ويدفعون المقاعد إلى الخلف ويستقرون في جلساتهم، ويلتفتون بوجوههم من الضحك، وجوههم الباردة التي كانت ما تزال متحدية عندما تحركت ثلاث نساء كهلات عبر العربة وهن ينظرن دون ثقة يميناً وشمالاً إلى المقاعد المشغولة.

جلست الفتاتان معاً، وخلعتا قبعتين بلون بنّي وأزرق، ورفعتا يدين رشيقتين وراحتا تسويان بأصابع حسنة الشكل رأسيهما القريبتين

الواحدة من الأخرى واللتين كان ممكناً رؤيتهما بين المرفقين المبسوطين والرأسين المنحنيتين لشابين كانا يتعلقان بظهر المقعد ومحاطين بشرائط قبعات من مختلف الارتفاعات حيث كان أصحابها يجلسون على أذرعة المقاعد أو يقفون في الممر؛ ثم ظهرت الآن قلنسوة الجابي وهو يندفع بينهم بصرخات بائسة وشاكية، كأنه طير.

ترنم قائلاً: «التذاكر. التذاكر من فضلكم». لبرهة أوقفوه هناك، لم يعد يُرى منه سوى قلنسوته. انسلّ شابان بسرعة نحو الخلف ثم إلى المقعد خلف هوريس. استطاع أن يسمعهما وهما يتنفسان. إلى الأمام كانت قاطعة التذاكر الخاصة بالجابي قد طقت مرتين. وصل إلى الخلف. ترنم: «تذاكر». أخذ تذكرة هوريس وتوقف حيث كان الشابان يجلسان.

قال أحدهما: «لقد سبق لك وأخذت تذكرتي».

قال الجابي: «وأين إيصالك؟».

«لم تعطنا أي إيصال. وأنت حصلت على التذكرتين على أي حال. كانت تذكرتي برقم..». مرر رقماً ما بلسان زلق، وبلهجة صريحة وسارة. «هل لاحظت رقم تذكرتك يا (شاك)؟».

كرر الشاب الآخر رقماً وبلهجة صريحة وسارة. «لا شك أن لديك تذكرتانا. انظر لترى». بدأ يصفر من بين أسنانه لحناً راقصاً متقطعاً وغير موسيقي.

قال الآخر: «هل تتناول طعامك في غوردون هول؟».

«كلا، لدي رائحة أنفاس طبيعية كريهة». تابع الجابي سيره. وصل التصفير إلى مستوى عال، وراح الشاب يصفق بيديه على ركبتيه، ويصرخ

ده... ده... ده. ثم صرخ صرخة خالية من المعنى ودورانية. بالنسبة إلى هوريس كان الأمر أشبه بالجلوس أمام سلسلة من الصفحات المطبوعة التي يتم قلبها في لمحات جنونية تاركة سلسلة من الاستحضارات على الذهن، لا رأس لها ولا ذيل.

«لقد سافرت مسافة ألف ميل دون تذكرة».

«ومارج أيضاً».

«وفعلتْ بِث الشيء نفسه».

«ده... ده... ده».

«ومارج أيضاً».

«سأثقب خاصتي ليلة الجمعة».

«ياي».

«هل تحب الكبد؟».

«لا أستطيع الوصول إلى ذلك الحد البعيد».

«ياي».

صفّرا وراحا يضربان بأعقابهما على الأرضية بصوت مرتفع وجنوني، وهما يقولان: «ده... ده... ده». دفع الأول بمقعده إلى الخلف باتجاه رأس هوريس. نهض الشاب من مكانه. قال: «هيا بنا. لقد ذهب بالفعل». ومن جديد ارتج المقعد باتجاه هوريس وراقبهما هذا وهما يعودان لينضما إلى المجموعة التي سدّت الممر، وشاهد أحدهما يضع يده الجريئة الخشنة على واحد من الوجهين اللامعين الرقيقين

المرفوعين باتجاههما. إلى ما وراء المجموعة كانت امرأة ريفية تحمل طفلاً بين ذراعيها تقف مستندة إلى مقعد. وبين الحين والآخر كانت تنظر نحو الخلف إلى الممر المسدود والمقاعد الفارغة إلى ما بعد.

في أكسفورد نزل بين حشد منهم عند المحطة. كانوا حاسري الرؤوس وفي ملابس براقة، ويحمل بعضهم كتباً بأيديهم بين الحين والآخر، وهم محاطون بأعداد كبيرة من القمصان الملونة. كانوا لا يتركون مجالاً للمرور فيما بينهم وأيديهم تتأرجح مع أيدي مرافقيهم؛ أشياء تتعرض للمس العرضي بالأيدي كما قد تفعل الجراء، وهاهم يصعدون ببطء التل باتجاه الكلية ويؤرجحون أردافهم الصغيرة، وينظرون إلى هوريس بعيون باردة فارغة وهو ينزل عن الممشى حتى يتخطاهم.

عند أعلى التل كانت ثلاثة ممرات تتفرع عبر بستان عريض ضمن مجازات ضيقة، وتلتمع وراءه أبنية من الآجر الأحمر أو الحجر الرمادي حيث كان جرس عالي الرنين وصافيه قد بدأ يرن. أصبح الموكب مؤلفاً من ثلاثة تيارات راحت تتناقص بسرعة فلا يتبقى سوى الأزواج المتمهلين في السير الذين يؤرجحون الأيدي ويسيرون على نحو غريب الأطوار ويتمايل الواحد منهم على ألآخر وهم يصوؤن كالجراء بالعبث العشوائي المجهد الخاص بالأطفال.

كان الممر الأعرض يؤدي إلى مكتب البريد. دخل وانتظر حتى فرغت نافذة الاستعلامات.

«أحاول أن أجد فتاة اسمها تمبل دريك. ربما أكون مررت بها للتو ولم ألحظها..».

قال الموظف: «إنها لم تعد بين طلابنا. تركت الكلية منذ أسبوعين». كان شاباً: وجه بليد أملس خلف نظارات مصنوعة من قرون الحيوانات،

وشعره معتنى به جيداً. بعد برهة من الزمن وجد هوريس نفسه يسأل بهدوء:

«ألا تعرف أين ذهبت؟».

نظر الموظف إليه. انحنى باتجاهه وأخفض صوته: «هل أنت رجل آخر من رجال التحرّي؟».

قال هوريس: «أجل. أجل. لا يهم. لا يهم». ثم سار بهدوء وهبط الدرج نحو نور الشمس مجدداً. وقف هناك بينما رحن يعبرن من على جانبيه بتيار مضطرد من الألبسة الملونة الصغيرة والأذرع العارية والرؤوس اللامعة المتقاربة، بذلك التعبير البارد البريء والجريء والمتماثل الذي كان يعرفه جيداً في أعينهن وفوق الطلاء الوحشي المتماثل على أفواههن. كأنهن موسيقى تتحرك، أو العسل الذي صُبّ تحت نور الشمس؛ وثنيّ وسريع الزوال وهادئ، يوحي برقة بكل الأيام الضائعة والمتع المتفوق عليها، تحت الشمس. كانت أعمدة لا قمم لها وأبراج تبدو عائمة فوق غيمة خضراء في خراب بطيء مقابل الريح الجنوبية الغربية، لامعة ومرتعدة من الحرارة، تقبع في فرجات مفتوحة من لمحات سرابية من الحجر أو الآجر، موحية بالشر، غير محسوسة، رقيقة. وهو واقف هناك يصغي إلى الجرس ذي الوحي الديني العذب، ومفكراً: ماذا الآن؟ ماذا الآن؟ ومجيباً لنفسه بنفسه: عجباً، لا شيء. لقد انتهى الأمر.

عاد إلى المحطة قبل ساعة من موعد وصول القطار، وفي يده غليونه المملوء بالتبغ إنما غير المشتعل. في المرحاض شاهد على جدار قذر وملطخ اسمها وقد خُربش بقلم رصاص: تمبل دريك. قرأه بهدوء، ورأسه مطأطئة، وهو يمس بأصابعه الغليون غير المشتعل.

قبل نصف ساعة من وصول القطار بدأن بالتجمع، يهبطن التل ويتجمعن على امتداد رصيف المحطة بضحكات رقيقة ولامعة وصاخبة، وسيقانهن الشقراء رتيبة، وأجسادهن تتحرك باستمرار داخل ملابسهن الضئيلة بذلك العبث الحرج والشهواني للشابات.

كان قطار العودة يتضمن عربة بولمان مريحة. صعد إلى عربة النهار. لم يكن فيها سوى راكب واحد غيره: رجل في وسط العربة، قرب النافذة، حاسر الرأس، يستند إلى الخلف في مقعده، ومرفقه على حافة النافذة وسيجار غير مشتعل في يده المزينة بالخواتم. حين تحرك القطار وهو يمر بالحشود الناعمة في حركة خلفية متزايدة، نهض المسافر الآخر وتقدم نحو عربة النهار. كان يحمل معطفاً على ذراعه وقبعة من اللباد متسخة وقذرة. وبطرف عينه رأى هوريس يده تتحسس جيب صدره، ولاحظ كثافة الشعر الذي يزين عنق الرجل الواسع والطري والأبيض. فكر هوريس: «كأنما باستخدام المقصلة»، وهو يراقب الرجل يعبر الحمّال مجانبةً في الممر ويختفي، وهو يبتعد عن ناظريه وعن ذهنه من خلال وضعه قبعته على رأسه. أسرع القطار في سيره وهو يتمايل عند المنعطفات، ويهرع عبر منزل ما بين الحين والحين، عبر مجازات ووديان حيث كانت نباتات القطن الجديدة تتحرك ببطء في صفوف أشبه بالمراوح.

خفف القطار من سرعته. ارتج القطار مرة أخرى، وصدرت أربع صفرات عنه. دخل الرجل صاحب القبعة المتسخة وأخرج سيجاراً من جيب قميصه عند الصدر. سار على الممر بسرعة وهو ينظر إلى هوريس. أبطأ السير، والسيجار بين أصابعه. ارتج القطار مجدداً. مدّ الرحل يده بسرعة وأمسك بظهر المقعد المواجه لهوريس.

قال: «أليس هذا هو القاضي بنبو؟» رفع هوريس نظره نحو وجه

عريض منتفخ دون أي علامة تدل على السنّ أو الفكر إطلاقاً.... امتداد فخم من اللحم على كلا جانبي أنف صغير غير حاد، كمن يتطلع من فوق هضبة ذات سفوح شديدة الانحدار، ولكن على الرغم من ذلك هناك خاصية متعذر تعريفها ذات إيهام دقيق، وكأن «الخالق» قد أكمل نُكتته بأن أضاء الاستهلاك السخيّ من المعجون بشيء قُصد منه أصلاً أن يكون لمخلوق ما ضعيف واكتسابي مثل السنجاب أو الجرذ. قال وهو يمد يده للمصافحة: «ألست أخاطب القاضي بنبو؟ أنا السيناتور سنوبس، كلاينس[1] سنوبس.

قال هوريس: «أوه، أجل. شكراً. ولكني أعتقد أنك تغالي في توقعاتك. آمل بالأحرى».

لوّح الآخر بالسيجار، واليد الأخرى مرفوعة الكف، والأصبع الوسطى قد حال لونها قليلاً عند قاعدة الخاتم الضخم، في وجه هوريس. صافح هوريس اليد ثم حرر يده. قال سنوبس: «ظننت أني ميزتك عندما صعدت إلى القطار في أكسفورد، ولكني... هل لي أن أجلس؟» وكان قد سبق له وراح يدفع ركبة هوريس بساقه. رمى بالمعطف – معطف من نسيج صوفي رديء أزرق اللون ذي ياقة قذرة من المخمل – على المقعد وجلس مع توقف القطار. «نعم يا سيدي، أنا سعيد دائماً بمشاهدة أي من الشبان، في أي وقت..». انحنى من فوق هوريس وأحدق النظر عبر النافذة إلى محطة صغيرة داكنة، وفيها لوح استعلامات ملغز كتب عليه بالطباشير؛ وحدق إلى شاحنة سريعة تحمل قن دجاج مصنوع من الأسلاك يحوي طيرين وحيدين، وإلى ثلاثة أو أربعة رجال يلبسون الأوفرولات وقد استندوا براحة إلى الجدار وهم يمضغون. «طبعاً أنت لم تعد في مقاطعتي، ولكن أصدقاء المرء يظلون

١ – كلاينس هو الاسم «كلارينس» كما يلفظه هذا السيناتور.

أصدقاء، مهما كانت طريقة تصويتهم. لأن الصديق صديق سواء كان قادراً على أن يقدم لي أي شيء أم لا..». عاد للجلوس والسيجار غير المشتعل بين أصابعه». أنت لم تحضر إلى هنا قاطعاً كل ذلك الطريق من البلدة الكبيرة إذاً».

قال هوريس: «لا».

«في أي مرة تصل فيها إلى جاكسون، سيسرني أن أستضيفك وكأنك ما تزال من سكان مقاطعتي. لا يمكن لرجل أن يكون مشغولاً إلى حد لا يكون لديه معه وقتاً يوفره لأصدقائه القدماء، هذا ما أقوله. هيا دعنا ننظر في الأمر، أنت الآن في كينستون، أليس كذلك؟ أعرف أعضاء مجلس الشيوخ ممن هم من مقاطعتك، ولكني لا أتذكر أسماءهم».

قال هوريس: «أنا لا أعرفها أيضاً». انطلق القطار. انحنى سنوبس نحو الممر، وتطلع نحو الخلف. كانت بزته الرمادية الفاتحة اللون قد كويت ولكنها لم تُنظف. قال: «حسناً». نهض وحمل معطفه. «في أي مرة تكون فيها في المدينة... هل أنت ذاهب إلى جفرسون، على ما أعتقد؟».

قال هوريس: «أجل».

«سأراك مرة أخرى إذاً».

قال هوريس: «لم لا تركب هنا في الخلف؟ ستجد المكان أكثر راحة».

قال سنوبس وهو يلوح بسيجاره: «سأذهب إلى الأمام لأدخن. سأراك مجدداً».

«تستطيع التدخين هنا. لا توجد أي سيدات».

قال سنوبس: «أكيد. سأراك في هولي سبرينغز». عاد باتجاه عربة النهار واختفى عن الأنظار والسيجار في فمه.

تذكره هوريس فقد عرفه قبل عشر سنوات كشاب ضخم مملّ وابن لصاحب مطعم وعضو في أسرة كانت تنتقل من حي «فرنتشمانز بند» إلى جفرسون خلال السنوات العشرين الماضية، في مجموعات من البشر؛ أسرة ذات تفرعات كافية بحيث تتمكن من انتخابه إلى مجلس الشيوخ دون اللجوء إلى صناديق الاقتراع.

جلس هادئاً تماماً، والغليون البارد في يده. نهض وتقدم عبر عربة النهار، ثم دخل عربة المدخنين. كان سنوبس في الممر، وفخذه مستندة إلى ذراع أحد المقاعد حيث كان يجلس أربعة رجال، مستخدماً السيجار غير المشتعل ليشير به. جعله هوريس يلاحظه وأشار إليه من المدخل. بعد برهة انضم سنوبس إليه ومعطفه على ذراعه.

قال هوريس: «كيف تجري الأمور في العاصمة؟».

بدأ سنوبس يتحدث بصوته الأجش الجازم. وتدريجياً بدأت تظهر صورة من الخداع والفساد الحقير من أجل غايات حمقاء وتافهة، وكل هذا يتم في غرف الفنادق التي يقوم فيها الحمالون بستراتهم المتفخة باستخدام الفرشاة بحركات سريعة سرية ليفرشوا بها تنانير ضمن أبواب سريعة للخزائن. قال: «في أي وقت تتواجد فيه في البلدة، سأود أن أرتب جولة للجماعة من الأصدقاء. اسأل أي شخص في البلدة، وسيقولون لك إن كانت الجولة قائمة. كلاينس سنوبس سيعرف أين هي. لديك قضية صعبة جداً هناك في بلدتك الأم، هذا ما سمعته».

قال هوريس: «لا أستطيع أن أعرف بعد. توقفت اليوم في أكسفورد، في الجامعة، وتحدثت إلى بعض أصدقاء ابنة زوجتي. واحدة من أفضل صديقاتها لم تعد تحضر إلى الكلية. إنها فتاة من جاكسون اسمها تمبل دريك».

كان سنوبس يراقبه بعينين غبيتين صغيرتين وغير شفافتين. قال: «أوه، أجل، إنها ابنة القاضي دريك. تلك التي هربت من البيت».

قال هوريس: «هربت؟ ألم تهرع عائدة إلى البيت؟ ما المشكلة؟ هل فشلت في دراستها؟».

«لا أعرف. حين نشرت الصحيفة الخبر، ظن الناس أنها هربت مع شخص ما. واحدة من تلك الزيجات الملائمة».

«ولكنها حين عادت إلى البيت، عرفوا أن الأمر ليس كذلك، حسب ما أظن. حسناً، حسناً، ستدهش بل. ما الذي تفعله تلك الفتاة التي هربت في الوقت الحاضر؟ هل تتجول في أنحاء جاكسون على ما أفترض؟».

«إنها ليست هناك».

قال هوريس: «ليست هناك؟» استطاع أن يشعر بالشخص الآخر يراقبه. «أين هي؟».

«أرسلها أبوها إلى مكان ما في الشمال مع إحدى عماتها. ميتشيغان. نشر الخبر في الصحف بعد يومين من ذلك».

قال هوريس: «أوه». كان ما يزال ممسكاً بالغليون البارد، وقد اكتشف أن يده كانت تبحث في جيبه بحثاً عن عود ثقاب. سحب

نفساً عميقاً. «تلك الصحيفة الجاكسونية جيدة جداً. إنها تعتبر أكثر الصحف موثوقية في الولاية، أليس كذلك؟».

قال سنوبس: «بكل تأكيد. هل كنت في أكسفورد محاولاً أن تعرف مكانها؟».

«كلا. كلا. بل صدف أن قابلت إحدى صديقات ابنتي التي أخبرتني أنها تركت الكلية. حسناً، سأراك في هولي سبرينغز».

قال سنوبس: «بكل تأكيد». عاد هوريس إلى البولمان وجلس وأشعل الغليون.

حين أبطأ القطار عند هولي سبرينغز، ذهب إلى بهوة المدخل، ثم عاد إلى العربة بسرعة. برز سنوبس من عربة النهار حين فتح الحمال الباب وأنزل درجة الهبوط والصعود وفي يده كرسي صغير بلا ظهر. نزل سنوبس. أخرج شيئاً من جيب صدرته وأعطاها إلى الحمال. قال: «إليك يا جورج، خذ سيجاراً».

نزل هوريس. مضى سنوبس في طريقه، والقبعة المتسخة تعلو بمسافة نصف رأس على أي رأس أخرى. نظر هوريس إلى الحمال.

«لقد أعطاك إياه، أليس كذلك؟».

وضع الحمال السيجار على كفه. ثم دسه في جيبه.

قال هوريس: «ما الذي ستفعله به؟».

قال الحمال: «لن أعطيه لأي شخص أعرفه».

«هل يفعل ذلك غالباً؟».

«ثلاث أو أربع مرات في العام. يبدو أني دائماً ما أصادفه أيضاً... شكراً».

رأى هوريس سنوبس يدخل غرفة الانتظار. خرجت القبعة المتسخة والعنق العريض من ذهنه تماماً. حشا الغليون مجدداً.

من مسافة صف كامل من الأبنية سمع صوت القطار المتجه إلى ممفيس وهو يدخل. كان القطار عند الرصيف حين وصل إلى المحطة. وقف سنوبس وهو يتحدث إلى شابين يرتديان قبعتي قش جديدتين، وهناك شيء يذكر بالوعّاظ في كتفيه السميكين ملامحه. صفّر القطار. صعد إليه الشابان. تراجع هوريس إلى ركن المحطة.

عندما وصل قطاره، صعد إليه سنوبس قبله ودخل إلى عربة المدخنين. أفرغ هوريس غليونه ودخل عربة النهار ووجد مقعداً في المؤخرة يقابل الاتجاه المعاكس.

الفصل العشرون

حين كان هوريس يغادر المحطة في جفرسون، أبطأت سيارة متجهة إلى البلدة إلى القرب منه. كانت تلك هي التاكسي التي اعتاد أن يذهب بها إلى منزل شقيقته. قال السائق: «سأوصلك هذه المرة».

قال هوريس: «أنا شديد الامتنان». ركب السيارة. وحين دخلت إلى الساحة، كانت ساعة دار المحكمة تشير إلى الثامنة وعشرين دقيقة فقط، ولما لم يكن هناك أي نور في غرفة الفندق، قال هوريس: «ربما يكون الطفل نائماً. هل لك أن تنزلني عند الفندق..». ثم وجد أن السائق كان يراقبه بنوع من الفضول الحذر.

قال السائق: «أنت كنت خارج البلدة اليوم».

قال هوريس: «أجل. ما الأمر؟ ما الذي حدث هنا اليوم؟».

«هي لم تعد تقيم في الفندق الآن. سمعت أن السيدة ووكر قد أدخلتها السجن».

قال هوريس: «أوه، سأنزل عند الفندق».

كان البهو فارغاً. بعد لحظة ظهر مالك الفندق: رجل مشغول بشعر رمادي حديدي، وقد وضع في فمه عود أسنان. كانت صدرته مفتوحة على كرش مرتبة. لم تكن المرأة هناك. قال: «إنهن نساء الكنيسة».

أخفض من نبرة صوته، وعود الأسنان بين أصابعه. «أتين هذا الصباح. لجنة بحالها منهن. أعتقد أنك تعرف كيف تجري مثل هذه الأمور».

«تقصد أن تقول إنك سمحت للكنيسة المعمدانية بأن تملي عليك من يكون نزلاؤك؟».

«إنهن أولئك السيدات. أنت تعرف كيف يجري الأمر حين يكنّ مصممات على أمر ما. الأجدر بالرجل أن يستسلم ويفعل ما يردنه. طبعاً، بالنسبة إليّ..».

«أقسم بالله إنه لو كان هناك رجل..».

قال المالك: «أخفض صوتك، فأنت تعرف كيف هي الأمور حين يأتين..».

«ولكن بالطبع لم يكن هناك رجل... وبالطبع أنت تسمي نفسك رجلاً، وهذا الرجل يسمح لـ ..».

قال المالك بلهجة استرضائية: «لدي موقف خاص يدعوني إلى المحافظة على مصلحتي، هذا إن نظرت جيداً في المسألة». تراجع قليلاً إلى الخلف واستند إلى المكتب. «أعتقد أني أستطيع أن أقرر من سيمكث في داري ومن لا يمكث. وأعرف المزيد من الأشخاص هنا ممن يجدر بهم أن يفعلوا الأمر نفسه. لست مديناً بالفضل لأي شخص. ولا لك أيضاً على أي حال».

«أين هي الآن؟ أم أنهن قدنها بالسيارة إلى خارج البلدة؟».

قال المالك وهو يدير ظهره: «ليس من شأني أن أعرف أين يذهب الناس بعد أن يخرجوا من هنا. أعتقد أن شخصاً ما آواها على أي حال».

قال هوريس: «أجل. المسيحيون. المسيحيون». التفت نحو الباب. ناداه المالك. التفت إليه. كان هذا يخرج ورقة من طاقات البريد. عاد هوريس إلى المكتب. كانت الورقة قد وضعت على المكتب. كان المالك يتكئ ويداه على المكتب وعود الأسنان مائل بين أسنانه.

قال: «قالت إنك ستدفعها».

دفع الفاتورة، وهو يعد المال بيدين مرتجفتين. دخل باحة السجن ومضى نحو البوابة وطرقها. بعد فترة قصيرة من الزمن، وصلت امرأة طويلة ونحيلة وشعثاء الشعر تحمل مصباحاً وتمسك بسترة رجل عبر صدرها. حدقت إليه وقالت قبل أن يتمكن هو من الكلام:

«أنت تبحث عن السيدة غودوين على ما أعتقد».

«أجل. كيف...؟».

«أنت المحامي. لقد رأيتك من قبل. إنها هنا. وهي نائمة الآن».

قال هوريس: «شكراً. شكراً. عرفت أن شخصاً ما... لم أصدق ذلك..».

قالت المرأة: «أعتقد أني أستطيع دائماً أن أوفر سريراً لامرأة وطفل. لا يهمني ما يقوله (إد). هل كنت تريدها في أمر خاص؟ إنها نائمة الآن».

«كلا، كلا. أردت فحسب أن..».

راقبته المرأة عبر المصباح. «لا حاجة لإزعاجها إذاً. يمكنك القدوم صباحاً لنجد لها مكاناً تقيم فيه. لا داعي للعجلة».

***

في عصر اليوم التالي، ذهب هوريس لزيارة شقيقته وفي سيارة مستأجرة أيضاً. سألها عما جرى. «سأضطر إلى أخذها إلى المنزل الآن».

قالت نرسيسا: «ليس إلى منزلي».

نظر إليها. ثم بدأ يحشو غليونه ببطء وعناية.

«إنها ليست مسألة اختيار يا عزيزتي. عليك أن تري ذلك».

«ليس في منزلي. اعتقدت أننا توصلنا إلى تسوية فيما يخص هذا الأمر».

أشعل عود الكبريت وأشعل الغليون ووضع العود بعناية في المدفأة. «هل تدركين أنها طُردت إلى الشارع عملياً؟ أنها..».

«لن يكون في ذلك مشقة. لا بد أنها معتادة على ذلك».

نظر إليها. وضع الغليون في فمه وراح يدخنه بعناية، وهو يراقب يده ترتجف فوق الغليون. «اسمعي. في الغد ربما سيطلبون منها مغادرة البلدة. والسبب هو فحسب أنه صدف أنها ليست متزوجة من الرجل الذي تحمل ابنه في هذه الشوارع المقدسة. ولكن من أخبرهم؟ هذا ما أريد أن أعرف. أعرف أنه لا يوجد في جفرسون من كان يعرف ذلك باستثناء..».

قالت الآنسة جني: «كنتَ أول من سمعته يحكيها. ولكن نرسيسا، لماذا..».

قالت نرسيسا: «ليس في منزلي».

قال هوريس: «حسناً». راح يدخن الغليون باضطراد. قال بلهجة جافة وخفيفة: «هذا يضع حداً للأمر بالطبع».

نهضت. «هل لك أن تبقى هنا الليلة؟».

«ماذا؟ كلا. كلا. سأقول لها إني سأزورها في السجن و..». مصّ الغليون. «حسناً، لا أفترض أن هذا الأمر مهم. آمل ألا يكون كذلك».

كانت ما تزال واقفة، واستدارت. «هل ستبقى أم لا؟».

قال هوريس: «أستطيع حتى أن أخبرها أن عجلة السيارة انثقبت. ليس الزمن بالشيء الرديء على أي حال. استخدميه بالشكل الصحيح وتستطيعين أن تمطّي أي شيء، مثل شريط مطاطي، حتى ينقطع في مكان ما، وها أنت ستبقين بكل المأساة واليأس في عقدتين صغيرتين بين الإبهام والأصبع من كل يد.

قالت نرسيسا: « هل ستبقى أم لا؟».

قال هوريس: «أعتقد أني سأبقى».

كان في السرير. وكان مستلقياً هناك في الظلام لحوالي الساعة، حين فتح باب الغرفة، وربما شاهده أو أحس به يفتح. كانت تلك شقيقته. استوى مستنداً على مرفقه. كانت تتشكل أمامه بغموض وتقترب من السرير. وصلت ونظرت إليه. «إلى متى ستستطيع أن تبقى على هذا النحو؟».

قال: «حتى الصباح فحسب. سأعود إلى البلدة. لا حاجة بك إلى رؤيتي مجدداً».

وقفت قرب السرير دون حراك. بعد برهة، هبط صوتها البارد الحازم: «أنت تعرف ما تعنيه».

«أعد بألا أحضرها إلى منزلك مرة أخرى. تستطيعين إرسال إيسوم

ليختبئ في سرير الكانّا[1] Canna». لم ترد عليه بشيء. «طبعاً أنت لا تعترضين على سكني هناك، أليس كذلك؟»

«لا يهمني أين ستسكن. والسؤال هو أين أسكن أنا، في هذه البلدة. سأضطر إلى البقاء هنا. ولكنك رجل. لا تكترث كثيراً بهذه الأمور. تستطيع الابتعاد عن المكان».

قال: «أوه». ثم صمت. وقفت وهي تنظر إليه من فوق، دون حراك. تكلما بهدوء وكأنهما يناقشان ورق الجدران أو الطعام.

«ألا ترى أن هذه البلدة هي موطني حيث عليّ أن أقضي بقية حياتي. هنا حيث ولدتُ. لا يهمني أي مكان آخر قد تذهب أنت إليه ولا ما ستفعله. لا يهمني كم من النساء لديك ولا من هنّ. ولكني لا أستطيع ترك أخي يتورط مع امرأة هي مضغة في الأفواه. لا أتوقع منك أن تراعيني، وإنما أطلب منك أن تراعي ذكرى أبينا وأمنا. خذها إلى ممفيس. يقولون إنك رفضت أن تدع الرجل يخرج من السجن بكفالة. خذها إلى ممفيس. يمكنك أن تفكر بكذبة ما لتبرر له ذلك، أيضاً».

«أو، إذاً أنت تظنين ذلك، هل تفعلين؟».

«لا رأي لي في ذلك. لا يهمني الأمر. هذا ما يفكر فيه الناس في البلدة. لذا لا يهم سواء كان صحيحاً أم لا. ما يهمني هو أنك تجبرني على قول الأكاذيب من أجلك. ارحل عن هذا المكان يا هوريس. أي شخص عداك سيدرك أنها قضية قتل بدم بارد».

«وقد حدث ذلك بسببها هي، بالطبع. أفترض أنهم يقولون هذا

١- الكانا: شجرة استوائية.

أيضاً، وكل هذا ناجم عن قدسيتهم العطرة وكلية القدرة. هل قالوا إني أنا من قتله أم ليس بعد؟».

«لا فرق فيما يخص من قتله. ولكن السؤال هو: هل ستبقى أنت متورطاً في الأمر؟ حين سبق للناس أن صدقوا أنك وهي تتسللان في العتمة إلى منزلي ليلاً؟» كان صوتها البارد الحازم يشكل كلماتها في العتمة فوقها عبر النافذة، وفوق العتمة التي تهب كان يأتي الضجيج الناعس للزيزان والجداجد.

قال: «وهل تصدقين ذلك؟».

«لا يهم ما أصدق. ارحل بعيداً يا هوريس. أنا أطلب منك ذلك».

«وأتركها... وأتركهم، هكذا؟».

«وكّل لهما محامياً، إن كان ما يزال يصر على أنه بريء. أنا سأدفع التكاليف. يمكنك أن تجد محامياً للقضايا الجنائية أفضل منك. لن تعرف هي ذلك. ولن تكترث هي حتى بالأمر. ألا تستطيع أن ترى أنها تخدعك فحسب لتخرجه من السجن مقابل لا شيء؟ ألا تعرف أن المرأة لديها مال أخفته في مكان ما؟ ستعود أنت إلى البلدة غداً، أليس كذلك؟» التفتت، وبدأت تتلاشى في الاسوداد. «لن تغادر قبل أن تتناول وجبة الفطور».

***

في صباح اليوم التالي على مائدة الفطور، قالت شقيقته: «من سيكون المحامي للطرف الآخر من القضية؟».

«النائب العام. لماذا؟».

قرعت الجرس وطلبت المزيد من الخبز. راح هوريس يراقبها. «لم طرحت هذا السؤال؟» ثم قال: «اللعنة على ذلك الرجل الضئيل اللعين». كان يقصد النائب العام والذي كان قد نشأ أيضاً في جفرسون وارتاد المدرسة نفسها معهما. «أعتقد أنه كان وراء تلك العملية في الليلة قبل السابقة. في الفندق. لقد حرض على طردها من الفندق من أجل كسب الرأي العام لصالحه، ولكسب رأسمال سياسي. أقسم بالله لو أني عرفت ذلك، لكنت سأصدق أنه فعل ما فعله لمجرد أن يتم انتخابه عضواً في الكونغرس..».

بعد أن غادر هوريس، مضت نرسيسا إلى غرفة الآنسة جني. قالت: «من هو النائب العام؟».

قالت الآنسة جني: «لقد عرفتِه طوال حياتك. بل لقد صوتِّ له في الانتخابات. إنه يوستاس غراهام. ولماذا تريدين معرفة هذا الأمر؟ هل تبحثين عن بديل لغووان ستيفنز؟».

قالت نرسيسا: «كنت أتساءل فحسب».

قالت الآنسة جني: «هراء. أنت لا تتساءلين. أنت تفعلين الشيء ثم تتوقفين حتى تحين المرة التالية المؤاتية لفعل شيء ما».

***

قابل هوريس سنوبس وهو يخرج من دكان الحلاق، وخداه رماديتان من البودرة، ويتحرك ضمن فوح لرائحة كريم الشعر. كان يضع في صدر قميصه، تحت ربطة عنقه التي لها شكل فراشة، زراً من الياقوت المقلد غير الأصلي كان يتلاءم مع خاتمه. كانت ربطة عنقه وعليها نقط شديدة البياض، تبدو كأنها تبدو متسخة حين ترى عن كثب، فالرجل

كله، بعنقه (نقرته) الحليقة وملابسه المكوية وحذائه اللامع يوحي إلى حد ما بأنه جرى تنظيفه على الناشف وليس بالأحرى غسله.

قال: «حسناً أيها القاضي، سمعت أنك تعاني من بعض المشاكل في تدبير سكن لزبونتك تلك. وكما أقول دائماً... «انحنى وأخفض صوته وعيناه اللتان بلون الوحل وهما تتحركان في اتجاه جانبي»... الكنيسة لا علاقة لها بالسياسة، وليس للنساء أي علاقة بالأمرين كليهما، هذا إذا وضعنا القانون جانباً. دعهن قابعات في المنزل وسيجدن الكثير لفعله دون إفساد الدعوى القانونية لشخص ما. وزيادة على ذلك، فالرجل ليس أكثر من كائن بشري، وما يفعله يخصه هو وحده ولا يخص أحداً سواه. ما الذي فعلتَه بها؟».

قال هوريس: «إنها في السجن». تكلم باختصار، وحاول استئناف السير، ولكن الآخر سدّ عليه الطريق مفتعلاً حادثاً غير متقن.

«لقد هيّجتهم كلهم على أي حال. يقول الناس إنك لم تدبر كفالة لغودوين حتى يبقى في السجن..». ومن جديد حاول هوريس استئناف السير. «نصف المشاكل في هذا العالم سببها النساء. وهذا ما أقوله على الدوام. انظر مثلاً إلى تلك الفتاة التي أزعجت أباها وهربت كما حدث. أعتقد أنه فعل الشيء الصحيح إذ جعلها تبتعد عن الولاية كلها».

قال هوريس بلهجة جافة وغاضبة: «أجل».

«أنا مسرور جداً إذ أسمع أن دعواك تتقدم جيداً. بينك وبيني، أود أن أرى محامياً جيداً يسفّه ذلك النائب العام. أعط شخصاً كذاك منصباً صغيراً في مقاطعة صغيرة وسرعان ما تتضخم الأنا لديه. حسناً، سعدت برؤياك. لديّ بعض الأعمال في البلدة ليوم أو اثنين. لا أظن أنك ذاهب في هذه الطريق؟».

قال: «ماذا؟ أي طريق؟».

«الطريق إلى ممفيس. أهناك أي شيء أستطيع أن أفعله من أجلك؟».

قال هوريس: «كلا». تابع السير. ولمسافة قصيرة لم يستطع أن يرى أي شيء إطلاقاً. سار بثبات، والعضلات قرب فكيه بدأت تؤلمه، وراح يمرّ بأشخاص كانوا يتحدثون إليه دون أن يدرك ذلك.

الفصل الواحد والعشرون

حين اقترب القطار من ممفيس توقف فرجيل سنوبس عن الكلام وبدأ يصبح أكثر هدوءاً وسكوناً، بينما كان رفيقه على العكس منه، ذاك الذي يأكل من رزمة مصنوعة من ورق البارافين بعض الفشار ودبس السكر، قد أصبح أكثر حيوية مع خاصية أشبه بالثمالة، ولا يبدو عليه أنه يلاحظ الوضع العكسي لصديقه. كان ما يزال يتحدث حين نزلا عند المحطة وهما يحملان حقيبتي ملابسهما الجديدتين المصنوعتين من الجلد غير الأصلي، وقبعتيهما الجديدتين وقد أميلتا فوق عنقيهما المحلوقين. في غرفة الانتظار قال فونزو:

«حسناً، ما الذي سنفعله أولاً؟».

لم يقل فرجيل أي شيء. قام شخص ما بصدمهما. أمسك فونزو بقبعته. قال: «ما الذي سنفعله؟».

ثم نظر إلى فرجيل، إلى وجهه. «ما الحكاية؟».

قال فرجيل: «لا توجد أي حكاية».

«حسناً، ما الذي سنفعله إذاً؟ لقد كنت أنت هنا سابقاً، أما أنا فلا».

قال فرجيل: «أعتقد أنه من الأجدر بنا أن نطوف في المكان وننظر».

كان فونزو يراقبه، وعيناه الزرقاوان أشبه بالخزف بالصيني. «ما حكايتك؟ طوال الوقت، ونحن على القطار، كنت تتحدث عن عدد المرات الكثيرة التي كنت فيها في ممفيس. أراهن على أنه لم يسبق لك أن..». دفعهما شخص ما بالمناكب، وفرّق بينهما. بدأ تيار من الناس يتدفق بينهما. أمسك فونزو بحقيبته وقبعته بقوة، وهو يشق طريقه نحو صديقه.

قال فرجيل وهو ينظر بعينين كامدتين من حوله: «لقد سبق وفعلت».

«حسناً، ما الذي سنفعله إذاً؟ لن يُفتح حتى الساعة الثامنة في الصباح».

«ولَمَ أنت مستعجل إلى هذا الحد؟».

«حسناً، لا أهدف إلى البقاء هنا الليل بطوله... ما الذي فعلتَه حين كنت هنا في السابق؟».

قال فرجيل: «ذهبت إلى الفندق».

«أي فندق هو؟ يوجد أكثر من فندق واحد هنا. هل تعتقد أن جميع الناس سيقيمون في فندق واحد؟ أي فندق كان ذلك؟».

كانت عينا فرجيل أيضاً بلون أزرق فاتح ومزيف. ألقى نظرات كامدة من حوله. قال: «فندق غايوسو».

قال فونزو: «حسناً، فلنذهب إليه». تحرك باتجاه المخرج. صاح أحد الرجال: «تاكسي» باتجاههما. وحاول أحد الحمالين أن يأخذ حقيبة فونزو. قال له: «احذر» وهو يجذبها إلى الخلف. في الشارع صرخ المزيد من سائقي التاكسي باتجاههما.

قال فونزو: «إذاً، هذه هي ممفيس. أي طريق سنسلك الآن؟» لم يحز على أي جواب. نظر من حوله فرأى فرجيل وهو يلتفت مبتعداً عن سائق تاكسي. «ما الذي تريد...؟».

قال فرجيل: «في هذا الاتجاه. ليس بعيداً».

كانت المسافة ميلاً ونصف ميل. بين الحين والآخر كانا ينقلان الحقيبة من يد إلى أخرى. قال فونزو: «هذه هي ممفيس إذاً. أين أنفقت حياتي كلها؟».

حين وصل إلى فندق غايوسو عرض أحد الحمالين أخذ الحقيبتين منهما. تخلصا منه ودخلا إلى الفندق، وهما يمشيان بحذر على الأرضية المبلطة. توقف فرجيل.

قال فونزو: «هيا بنا».

قال فرجيل: «انتظر».

قال فونزو: «ظننت أنك كنت هنا من قبل».

«أجل كنت هنا. هذا المكان مكلف جداً. سيطلبون دفع دولار في اليوم هنا».

«ما الذي سنفعله إذاً؟».

«فلنبحث عن مكان آخر».

عادا إلى الشارع. كانت الساعة هي الخامسة. تابعا السير وهما ينظران فيما حولهما ويحملان كل حقيبته. وصلا إلى فندق آخر. نظروا إلى الداخل فشاهدوا رخاماً ومباصق من النحاس وخدماً يتحركون باستعجال، وأشخاصاً يجلسون بين نباتات في أصص.

قال فرجيل: «هذا الفندق سيكون سيئاً بالدرجة نفسها».

«ما الذي سنفعله إذاً؟ لا نستطيع التسكع على هذا النحو طوال الليل».

قال فرجيل: «فلنخرج من هذا الشارع». تركا الشارع الرئيسي. في الركن التالي التفّ فرجيل مرة أخرى. «هيا نحاول في هذه الطريق. فلنتخلص من كل هذه الواجهات الزجاجية السميكة والسعادين من الزنوج. هذا ما عليك أن تدفع ثمنه في تلك الأماكن».

«لماذا علينا ذلك؟ فهذه قد سبق ودُفع ثمنها قبل وصولنا إلى هناك. كيف جرى أن نكون ملزمين بدفع ثمنها؟».

«فلنفترض أن شخصاً ما هشّمها ونحن مقيمان هناك. فلنفترض أنهم لم يستطيعوا القبض على من فعل ذلك. هل تعتقد أنهم سيدعوننا نخرج دون أن ندفع حصتنا؟».

في الساعة الخامسة والنصف دخلا شارعاً ضيقاً ومعتماً بمنازل ذات أعمدة خشبية وباحات لتجميع الخردة. وصلا إلى منزل من ثلاثة طوابق في باحة صغيرة لا عشب فيها. أمام المدخل، كان باب مزيف ذو شعرية. على الدرج كانت تجلس امرأة ضخمة الجسم في ثوب فضفاض وهي تراقب كلبين أزغبين كانا يتجولان في الباحة.

قال فونزو: «لنجرب هذا المكان».

«ليس هذا فندقاً. أين اللافتة؟».

قال فونزو: «ولماذا لا يكون كذلك؟ إنه فندق بالطبع. من سمع بشخص يسكن في منزل من ثلاثة طوابق؟».

قال فرجيل: «لا يمكننا أن ندخل من هنا. المدخل من الخلف. ألا ترى ذلك المرحاض؟» وهو يشير برأسه نحو الباب ذي الشعرية.

قال فونزو: «حسناً، هيا نلتف نحو مقدمة المنزل إذاً. هيا بنا».

دارا من حول الصف من المباني. كان الجانب المقابل مليئاً بسلسلة من محلات بيع السيارات. وقفا في منتصف ذلك الصف من المباني، وحقيبتاهما كل في يده اليمنى.

قال فونزو: «لا أصدق أنه سبق لك وكنت في هذا المكان من قبل أبداً».

«فلنعد. لا بد أن ذلك هو المدخل».

قال فونزو: «والمرحاض مبني على الباب الأمامي؟».

«نستطيع سؤال تلك السيدة».

«من يستطيع؟ ليس أنا».

«فلنعد ونرَ على أي حال».

عادا. كانت المرأة والكلبان قد اختفيا.

قال فونزو: «والآن ها أنت قد فعلتها، أليس كذلك؟».

«فلننتظر قليلاً. ربما عادت».

قال فونزو: «إنها الساعة السابعة تقريباً».

وضعا الحقيبتين على الأرض قرب السياج. أضيئت الأنوار، وكانت ترتعش عالياً في النوافذ المكتظة مقابل السماء الغربية الهادئة والسامقة.

قال فونزو: «أستطيع أن أشم رائحة لحم فخذ الخنزير المملح أيضاً».

اقتربت سيارة تاكسي. خرجت منها امرأة بدينة وشقراء، يتبعها رجل. راقباهما وهو يسيران في الممشى ويدخلان من الباب ذي الشعرية. امتص فونزو نفسه عبر أسنانه. همس: «فلألعن إن لم يفعلاها».

قال فرجيل: «ربما يكون زوجها».

حمل فونزو حقيبته. «هيا بنا».

قال فرجيل: «انتظر. أمهلهما بعض الوقت».

انتظرا. خرج الرجل وصعد إلى السيارة وانطلق بها.

قال فونزو: «لا يمكن أن يكون زوجها. ما كنتُ أنا لأرحل هكذا. هيا بنا». ودخل من البوابة.

قال فرجيل: «انتظر».

قال فونزو: «تستطيع أنت الانتظار». حمل فرجيل حقيبته ولحق به. توقف بينما راح فونزو يفتح الباب ذا الشعرية بحذر ويحدق إلى الداخل. قال: «أوه يا للجحيم». دخل. كان هناك باب آخر مزجج ومغطى بستارة. طرق فونزو الباب.

قال فرجيل: «لم لم تضغط على ذلك الزر؟ ألا تعرف أن سكان المدن لا يردون على الطرق على الأبواب؟».

قال فونزو: «حسناً». رنّ الجرس. فتح الباب. كانت المرأة في الثوب الفضفاض. استطاعا سماع صوت الكلبين من خلفها.

قال فونزو: «هل لديكم غرفة فارغة؟».

نظرت إليهما الآنسة ريبا، إلى قبعتيهما الجديدتين وحقيبتيهما.

قالت: «من أرسلكما إلى هنا؟».

«لا أحد. نحن هنا بالصدفة». نظرت إليه الآنسة ريبا. "الفنادق مكلفة جداً».

تنفست الآنسة ريبا بصعوبة. «ما هو عملكما أيها الشابان؟».

قال فونزو: «نحن هنا في عمل خاص. ننوي البقاء لفترة طويلة».

قال فرجيل: «إن لم يكن السعر عالياً جداً».

نظرت إليه الآنسة ريبا. «من أين أنتما يا عزيزي؟».

قالا لها ما تريد وذكرا لها اسميهما. «ننوي البقاء هنا شهراً أو أكثر. إن لاءمنا الأمر».

قالت بعد هنيهات: «حسناً، أعتقد ذلك». نظرت إليهما. «أستطيع أن أسمح لكما بالحصول على غرفة، ولكني سأتقاضى علاوة كلما مارستما العمل التجاري فيها. لديّ أنا عملي التجاري الذي أرتزق منه كأي شخص آخر».

قال فونزو: «لن نقوم بعملنا هنا. سنقوم به في الكلية».

قالت الآنسة ريبا: «أي كلية؟».

قال فونزو: «كلية الحلاقين».

قالت الآنسة ريبا: «انتبها إليّ أيها الوقحان الصغيران». ثم بدأت تضحك ويدها على صدرها. راقباها برزانة بينما راحت تضحك وهي تلهث بصوت أجش. قالت: «يا إلهي، يا إلهي. ادخلا إلى هنا».

كانت الغرفة في أعلى البناء وفي الخلف. أرتهما الآنسة ريا الحمام. حين وضعت يدها على الباب، قال صوت امرأة: «لحظة واحدة يا عزيزتي»، وفُتح الباب ومرت بهم المرأة وهي ترتدي الكيمونو. راقباها وهي تمضي على امتداد الردهة، وقد تنبهت فيهما الغرائز برائحة العطر الذي خلفته وراءها. لكز فونزو فرجيل سراً. في غرفتهما قال فونزو:

«كانت هذه واحدة أخرى. لديها ابنتان. أمسك بي أيها الفتى الضخم. أنا في طريقي إلى خم الدجاج».

لم يناما قبل مرور بعض الوقت في تلك الليلة الأولى، مع السرير والغرفة والأصوات الغريبة. استطاعا سماع صوت المدينة: موحياً بالذكريات وعجيباً، وشيكاً وبعيداً: مهدداً وواعداً معاً... صوت عميق متواصل التمعت فوقه أضواء غير مرئية وتموجت: أشكال ملتوية ملونة من الروعة كان قد سبق للنساء فيه أن بدأن يتحركن في أوضاع لطيفة فاتنة من المتع الجديدة والوعود الغريبة ذات الحنين. فكر فونزو بنفسه محاطاً بطبقة فوق طبقة من الظلال المنسحبة ذات اللون الزهري، والتي اتخذ تمجيد شبابه إلى ما وراءها، في همهمة من الحرير، وفي همسات لاهثة، ألف تجسيد إلهي. ربما سيبدأ غداً، كما فكر. ربما في ليلة الغد... عبر شق من النور فوق أعلى الظل وامتدّ في مروحة منتشرة فوق السقف. تحت النافذة استطاع أن يسمع صوتاً، صوت امرأة، ثم صوت رجل: امتزجا وهمهما: انغلق باب. صعد شخص ما الدرج بملابس ذات حفيف، على الكعبين السريعين القاسيين لامرأة.

بدأ يسمع أصواتاً في المنزل: أصواتاً بشرية وضحكات؛ وبدأ بيانو آلي بالعزف. همس: «أتسمعها؟».

قال فرجيل وصوته قد سبق أن أصبح فاتراً من النعاس: «لديها أسرة كبيرة، كما أظنّ».

قال فونزو: «أسرة، اللعنة. إنها حفلة. أتمنى لو أشارك فيها».

في اليوم الثالث، وبينما كانا يغادران غرفتهما في الصباح، قابلتهما الآنسة ريبا عند الباب. أرادت أن تستخدم غرفتهما في أوقات العصر خلال غيابهما. كان هناك مؤتمر لرجال التحري في المدينة وسوف يتحسن العمل بعض الشيء، كما قالت. «حوائجكم ستكون بخير. ساجعل مِني تقفل على كل شيء مسبقاً. لن يسرق أحد شيئاً منكم في منزلي».

قال فونزو حين وصلا إلى الشارع: «ما عملها في رأيك؟».

قال فرجيل: «لا أدري».

قال فونزو: «أتمنى لو أعمل لديها على أي حال، مع كل تلك النسوة المرتديات للكيمونو وهن يهرعن طوال الوقت».

قال فرجيل: «لن يكون في ذلك أي فائدة لك. كلهن متزوجات. ألم تسمعهن؟».

في عصر اليوم التالي، حين عادا من الكلية، وجدا لباساً داخلياً نسائياً تحت المغسلة... التقطه فونزو. قال: «إنها خيّاطة».

قال فرجيل: «أعتقد ذلك. انظر لترَ إن كانوا قد أخذوا أياً من ملابسك».

بدا المنزل وكأنه مليء بأشخاص لم يكونوا ينامون فيه ليلاً على الإطلاق. كانا قادرين على سماعهم طوال الوقت، وهم يهرعون

صعوداً ونزولاً على الدرج، وكان فونزو واعياً على الدوام بوجرد نساء ولحم أنثوي. كان هذا يصل إلى حيث يدا أنه ينام في سريره العازب مخاطاً بالنساء، وكان يستلقي قرب فرجيل الذي يشخر على نحو متواصل، بينما أذناه مشدودتان إلى الهمهمات وهمسات الحرير التي كانت تأتي عبر الجدران والأرضية، والتي كانت تبدو كجزء منهما شأن الألواح الخشبية والجص تماماً. كان يفكر في أنه مقيم في ممفيس منذ عشرة أيام، ومع ذلك فإن مدى معرفته لا يتعدى قلة من زملائه الطلاب في الكلية. بعد أن ينام فرجيل، كان ينهض ويفتح قفل الباب ويترك الباب مفتوحاً جزئياً، ولكن لم يحدث أي شيء.

في اليوم الثاني عشر قال لفرجيل إنهما سيذهبان في زيارة مع أحد طلاب مهنة الحلاقة.

قال فرجيل: «أين؟».

«حدث أمر طيب. تعال معنا. لقد اكتشفت شيئاً ما. وحين أفكر في أني مقيم هنا منذ أسبوعين دون معرفته».

قال فرجيل: «كم سيكلف؟».

قال فونزو: «ومتى ستنال أي نوع من المتعة دون أن تدفع شيئاً؟ هيا بنا».

قال فرجيل: «ساذهب، ولكني لا أعد بأن أنفق أي مال».

قال فونزو: «انتظر وقل ذلك حين نصل إلى هناك».

اصطحبهما الحلاق إلى ماخور. حين خرجا، قال فونزو: «وأن أفكر في أني مقيم هنا منذ أسبوعين دون معرفة حقيقة ذلك المنزل».

قال فرجيل: «أتمنى لو أنك لم تعرف ذلك قط. الأمر يكلف ثلاثة دولارات».

قال فونزو: «ألا يستحق الأمر مثل هذا المبلغ؟».

قال فرجيل: «لا شيء يستحق ثلاثة دولارات إن لم تكن قادراً على حمله معك».

حين وصلا إلى المنزل توقف فونزو. قال: «علينا أن نتسلل خلال دخولنا الآن. لو اكتشفت أين كنا، وما الذي فعلناه، فقد لا تسمح لنا بالبقاء في المنزل مع أولئك السيدات بعد ذلك».

قال فرجيل: «هكذا هي الحال معك. اللعنة عليك. لقد جعلتني أنفق ثلاثة دولارات والآن ستجعلنا نُطرد من المنزل».

قال فونزو: «افعل ما أفعله أنا. هذا كل ما عليك فعله. لا تقل أي شيء».

أدخلتهما ميني إلى المنزل. كان البيانو يُعزف بأعلى صوت. ظهرت الآنسة ريبا في أحد الأبواب، وفي يدها قدح من القصدير. قالت: «حسناً، حسناً. أنتما أيها الشابان تأخرتما كثيراً هذه الليلة».

قال فونزو: «أجل يا سيدتي» وهو يدفع بفرجيل نحو الدرج. كنا في اجتماع للصلاة».

«في السرير، في العتمة، كانا ما يزالان قادرين على سماع صوت البيانو.

قال فرجيل: «جعلتَني أنفق ثلاثة دولارات».

قال فونزو: «أوه، اخرس. حين أفكر في أني مقيم هنا منذ أسبوعين كاملين تقريباً..».

في عصر اليوم التالي عادا إلى المنزل عبر الغسق والأضواء تشتعل وتنطفئ، فتبدأ تتوهج وتومض، والنساء على سيقانهن الشقراء المتلألئة يقابلن الرجال ويركبن السيارات وما شابه.

قال فونزو: «ماذا عن الدولارات الثلاثة الآن؟».

قال فرجيل: «أعتقد أنه من الأفضل ألا نذهب ليلاً. الأمر يكلف الكثير».

قال فونزو: «هذا صحيح. قد يرانا أحد ما ويخبرها».

انتظرا ليلتين. قال فرجيل: «الآن سيكون الثمن ستة دولارات».

قال فونزو: «لا تأت إذاً».

حين عادا إلى البيت، قال فونزو: «حاول أن تتصرف على نحو جيد، ففي المرة الماضية كادت تكشفنا من طريقة تصرفك».

قال فرجيل بصوت كئيب: «وماذا لو فعلتْ؟ لا يمكنها أكلنا».

وقفا خارج الباب ذي الشعرية، يتهامسان.

قال فونزو: «وكيف تعرف أنها لا تستطيع؟».

«إنها لا تريد ذلك إذاً».

«وكيف تعرف أنها لا تريد ذلك؟».

قال فرجيل: «ربما لا تريد». فتح فونزو الباب ذا الشعرية. قال فرجيل: «لا أستطيع أكل تلك الدولارات الستة بأي حال من الأحوال. أتمنى لو أستطيع».

أدخلتهما ميني. قالت: «شخص ما يريدكما كلاكما». انتظرا في البهو.

قال فرجيل: «لقد علقنا في الشباك هذه المرة. لقد نبهتك فيما يخص هدر النقود».

قال فونزو: «أوه، اخرس».

ظهر رجل من أحد الأبواب، رجل ضخم وقبعته مائلة فوق إحدى أذنيه، وذراعه تحيط بامرأة شقراء في ثوب أحمر. قال فرجيل: «هذا هو كلاينس».

في غرفتهما قال كلارينس: «كيف وصلتما إلى هذا المنزل؟».

قال فرجيل: «لقد وجدناه فحسب». ثم حكيا له عن الأمر. جلس على السرير في قبعته المتسخة والسيجار بين أصابعه.

قال: «وأين كنتما هذه الليلة؟» لم يجيبا. نظرا إليه بوجهين شاحبين حذرين. «هيا بنا، أنا أعرف. أين كان ذلك المكان؟» حكيا له.

قال فرجيل: «كلفني الأمر ثلاثة دولارات».

قال كلارينس: «فلأكن ملعوناً إن لم تكونا أكبر غبيين في هذه الناحية من جاكسون. تعالا إلى هنا. تبعاه بوضاعة. قادهما من المنزل وسار بهما مسافة ثلاثة أو أربعة صفوف من الأبنية. عبروا شارعاً من دكاكين ومسارح أصحابها من الزنوج، ثم التفوا ودخلوا شارعاً ضيقاً ومعتماً وتوقفوا عند منزلٍ ذي ستائر حمراء في النوافذ المضاءة. رن كلارينس الجرس. استطاعوا سماع موسيقى في الداخل وأصوات حادة، ووقع أقدام. أدخلوا إلى بهو خال من الأثاث حيث كان رجلان زنجيان رثا

الثياب يجادلان رجلاً أبيض مخموراً يرتدي أوفرولاً أبيض. خلال باب مفتوح شاهدوا غرفة مليئة بنساء بلون القهوة في ملابس زاهية، وشعور منمقة وابتسامات ذهبية.

قال فرجيل: «هؤلاء زنجيات».

قال كلارينس: «طبعاً هن زنجيات. ولكن أترى هذه؟» لوّح بورقة نقود في وجه ابن عمه. «هذا الشيء مصاب بعمى الألوان».

الفصل الثاني والعشرون

في اليوم الثالث من البحث، وجد هوريس سكناً للمرأة وطفلها. كان ذلك في منزل متداع لامرأة عجوز بيضاء نصف مجنونة كان يُعتقد أنها تصنع التعاويذ للزنوج. كان المنزل على طرف من أطراف البلدة، بُني في قطعة أرض صغيرة جداً مزروعة باليقطين وقد ازدحمت فيها ونمت بكثرة الأعشاب حتى وصلت إلى مستوى الخصر من الجسد، مكونة دغلاً وحشياً عبر المقدمة. في الخلف ممر تم دوسه من البوابة المحطمة حتى الباب. طوال الليل كان نور خافت يشع في الأعماق المجنونة للمنزل، وفي أي ساعة تقريباً من الساعات الأربع والعشرين كان يمكن أن تُرى عربة كبيرة أو صغيرة مربوطة إلى وتد في الدرب خلف المنزل وزنجي يدخل أو يخرج من الباب الخلفي.

دخل المنزل مرة رجال شرطة بحثاً عن الويسكي، فلم يجدوا شيئاً سوى حفنات قليلة من أعشاب جافة ومجموعة من الزجاجات القذرة التي تحوي على سائل لم يستطيعوا معرفة كنهه سوى أنه لم يكن كحولياً. بينما راحت المرأة، التي يمسك بها رجلا شرطة، تشتمهم، وشعرها الهزيل الأشيب يهتز أمام الانهيار اللامع لوجهها، بصوتها الضعيف. وجدت المرأة مأوى في غرفة صغيرة مائلة السقف تحوي سريراً وبرميلاً من النفايات والفضلات المجهولة الاسم، كانت الفئران تقرقع فيها طوال الليل.

قال هوريس: «ستكونين في حال جيدة هنا. تستطيعين الوصول إلي على الدوام بالهاتف عند...». أعطاها اسم الجار. «لا، انتظري، سأجعلهم يعيدون وصل خطي الهاتفي القديم. عندها تستطيعين أن..».

قالت المرأة: «نعم. أعتقد أنه من الأفضل لك ألا تأتي إلى هنا».

«لماذا؟ هل تعتقدين أن من شأن ذلك أن... أو أنني أهتم إطلاقاً به..».

«ولكن عليك أن تعيش في هذه البلدة».

«فلألعن لو فعلتُ. لقد سبق لي وتركت الكثير جداً من النساء يدرن لي شؤوني عني، وإن كان هؤلاء الرجال الخانعين لزوجاتهم... «ولكنه كان يعرف أنه كان يتكلم فحسب. كان يعرف أنها تعرف الأمر أيضاً، من خلال تلك الذخيرة الأنثوية من الشك الذي لا يفتر بكل تصرفات البشر التي تبدو أولاً وكأنها مجرد ميل إلى الشر ولكنه في الواقع حكمة عملية.

قال هوريس: «يا للرب. لا تدعي أولئك... المومسات... المومسات...».

في اليوم التالي، تدبر أمر إعادة وصل خط الهاتف إلى منزله. لم يذهب ليرى شقيقته لمدة أسبوع. لم يتح لها أن تعرف أنه أعاد الحرارة إلى هاتف منزله. ومع ذلك، حين زعق الهاتف في ذلك الهدوء حيث كان يجلس وهو يقرأ في إحدى الأمسيات قبل أسبوع من افتتاح المحكمة، ظن أن نرسيسا هي المتصلة، حتى جاءه صوت رجل يتحدث بلهجة حذرة ضريحية عبر عزف بعيد لآلة الفيكترولا أو موسيقى من جهاز راديو.

قال الصوت: «هذا أنا سنوبس. كيف حالك أيها القاضي؟».

قال هوريس: «ماذا؟ من يتكلم؟».

«السناتور سنوبس. كلاينس سنوبس». دوى صوت الفيكترولا، ضعيفاً، بعيداً. كان قادراً على رؤية الرجل، القبعة المتسخة، الكتفان الثخينان، متكئاً على الآلة - في مخزن لبيع الأدوية والبضائع الأخرى أو مطعم - يهمس فيها خلف يد ضخمة وناعمة ومليئة بالخواتم، والهاتف كالدمية في اليد الأخرى.

قال هوريس: «حسناً. أجل؟ ما الأمر؟».

«لدي معلومة قد تهمك».

«معلومات قد تهمني؟».

«أعتقد ذلك. وهي ستثير اهتمام زوج من الفرقاء». على أذن هوريس كان صوت الراديو أو الفيكترولا يؤدي سلسلة أنغام عالية قصبي من آلتي الساكسوفون. وببذاءة وسهولة بدتا وكأنهما تتشاحنان الواحدة مع الأخرى كسعدانين ماهرين في قفص. كان قادراً على سماع التنفس الصعب للرجل الذي على النهاية الأخرى للخط الهاتفي.

قال: «حسناً. ما الذي تعرفه وقد يهمني؟».

«سأسمح لك أن تحكم على الأمر».

«حسناً، سأكون في مركز البلدة في الصباح. تستطيع أن تجدني في مكان ما». ثم قال على الفور: «هالو!» بدا صوت الرجل وكأنه يتنفس في أذن هوريس: كان صوتاً هادئاً وقاسياً، وبدا فجأة كأنه منذر نوعاً ما. قال هوريس: «هالو!».

«من الواضح أنه لا يهمك إذاً. أعتقد أن عليّ أن أساوم الفريق الآخر وألا أزعجك بعد الآن. وداعاً».

قال هوريس: «لا، انتظر. هالو! هالو!»

«أجل؟».

«سأحضر الليلة. سأكون هناك في حوالي خمس عشرة د..».

قال سنوبس: «لا داعي لذلك. سيارتي معي. سأقودها إلى هناك».

سار إلى البوابة. كان هناك قمر هذه الليلة. ضمن النفق الأسود والفضي لشجر الأرز كانت اليراعات تتحرك فيما يشبه ثقوب الدبابيس الصغيرة. كانت أشجار الأرز سوداء ومستدقة الرأس كصورة ظلية ورقية. كان للمرجة المنحدرة بريقاً ضعيفاً، وسطح صقيل كالفضة. في مكان ما، صاح الطائر الليلي المسمى «ويبورويل»، بصوت راح يتردد مرتجفاً ومتفجعاً فوق أصوات الحشرات. مرت ثلاث سيارات. أبطأت الرابعة وجنحت باتجاه البوابة. تحرك هوريس نحو الضوء. وراء المقود كان سنوبس يبدو للعيان ضخماً، ويعطي انطباعاً بأنه قد أُقحم في السيارة قبل أن يُركّب عليها غطاؤها. مدّ يده.

«كيف حالك هذه الليلة أيها القاضي؟ لم أكن أعرف أنك عدت مجدداً لتسكن في البلدة حتى حاولت مهاتفتك إلى منزل السيدة سارتوريسيز».

قال هوريس: «حسناً، شكراً». حرر يده. «ما الذي عرفته؟».

ضغط سنوبس بجسمه على عجلة القيادة وحدق من تحت سقف السيارة نحو المنزل.

قال هوريس: «سنتكلم هنا. ما لم تكن مضطراً إلى الالتفاف».

قال سنوبس: «ليس المكان ملائماً هنا. ولكن الأمر عائد إليك». بدا ضخماً وبديناً، وظهره محدب، ووجهه الخالي من القسمات أشبه بالقمر خلال انكسار نور القمر. استطاع هوريس أن يشعر بأن سنوبس يراقبه،

بذلك الحس بالنذير الذي جاءه عبر خط الهاتف. إنها خاصية متعمدة وخادعة وحافلة بالكثير. بدا له أنه كان يراقب ذهنه وهو يتحرك هنا وهنا، ويضرب دائماً تلك الكتلة الواسعة والطرية والساكنة وكأنه قد وقع تحت انهيار من قشور بذور القطن.

قال هوريس: «فلندخل إلى المنزل». فتح سنوبس الباب. قال هوريس: «هيا بنا. سأمشي». تابع سنوبس قيادة السيارة. كان يخرج من السيارة حين أدركه هوريس. قال هوريس: «حسناً، ما الأمر؟».

من جديد نظر سنوبس إلى المنزل. قال: «تعيش وحدك كرجل عازب، أليس كذلك؟» لم يقل هوريس شيئاً. «كما أقول على الدوام، على كل رجل متزوج أن يحتفظ بمكان صغير يخصه وحده، حيث يستطيع الانفراد دون أن يتدخل أحد في شؤونه. طبعاً، الرجل يدين لامرأته بشيء ما، ولكن ما لا تعرفه الزوجات لن يؤلمهن، أليس كذلك؟ وطالما يقوم بذلك، لا أرى من أين يمكن للزوجة أن تعرف ما يحدث. أليس هذا ما تقوله؟».

قال هوريس: «إنها ليست هنا، إن كان هذا هو ما تلمح أنت إليه. لماذا أردت أن تراني؟».

ومن جديد شعر أن سنوبس يراقبه، كانت التحديقة وقحة ومتعمدة وغير مصدقة إطلاقاً. «حسناً، أنا أقول على الدوام إنه لا يمكن لأحد أن يتدبر شؤون الرجل إلا هو نفسه. أنا لا ألومك. ولكن حين تعرفني على نحو أفضل، ستعرف أني لست ثرثاراً. لقد عرفت الكثير وكنت في أماكن كثيرة... هل تريد سيجاراً؟» امتدت يده الضخمة إلى صدره وعرض سيجارين.

«لا، شكراً».

أشعل سنوبس سيجاراً، ووجهه يبدو على نور عود الثقاب مثل فطيرة قُلبت على جانبها.

قال هوريس: «لماذا أردت أن تراني؟».

نفث سنوبس دخان السيجار. «قبل يومين توصلت إلى معلومة ستكون ذات قيمة لك، إن لم أكن مخطئاً».

«أوه، ذات قيمة. أي قيمة؟».

«أترك هذا الأمر لك. لديّ فريق آخر أستطيع المساومة معه، ولكن بما أننا، أنت وأنا، من مواطني البلدة نفسها والأمور الأخرى كلها».

راح ذهن هوريس يذهب يميناً وشمالاً. كانت أسرة سنوبس في الأصل من مكان ما قرب فرنتشمانز بند، وما تزال تسكن هناك. كان يعرف الوسائل الملتوية التي تنتقل فيها المعلومات من رجل إلى آخر ضمن تلك السلالة الأمية التي كانت تسكن في ذلك القسم من البلاد. ولكنه لا يمكن أن يكون أمراً سيحاول بيعه إلى سلطات الولاية، كما فكر. كما أنه ليس هو بذلك الأحمق الكبير.

قال: «الأجدر بك أن تقول لي ما هي المعلومة».

استطاع أن يشعر أن سنوبس يراقبه. «أتذكر ذلك اليوم الذي ركبتَ فيه القطار في أكسفورد، حيث كنت في مهمة..».

قال هوريس: «أجل».

نفث سنوبس دخان السيجار باضطراد، بعناية، ومطولاً. رفع يده مررها على مؤخرة عنقه. «هل تتذكر أنك كلمتني عن فتاة بعينها».

«أجل. إذاً ما الأمر؟».

«الأمر يعود إليك».

كان قادراً على شمّ رائحة زهور العسل وهي تصعد المنحدر الفضي، وسمع الويبوريل بصوته المائع المشتكي المتكرر. «أنت تعني أنك تعرف مكانها؟» لم يقل سنوبس أي شيء. «هل تريد ثمناً لما ستقوله؟» لم يقل سنوبس أي شيء. وضع هوريس يديه في جيبيه على خاصرتيه. «ما الذي يجعلك تظن أن هذه المعلومة تهمني؟».

«أنت الذي سيحكم على ذلك. أنا لا أدير دعوى جريمة قتل. لم أكن هناك في أكسفورد أبحث عن الفتاة. بالطبع، إن لم يكن الأمر يهمك سأساوم الفريق الآخر. أنا أعرض عليك الفرصة فحسب».

التفت هوريس باتجاه الدرج. كان يمشي بحذر، كرجل عجوز. قال: «فلنجلس». لحق سنوبس به وجلس على الدرجة. جلسا تحت ضوء القمر. «أتعرف أين هي؟».

«لقد شاهدتها». ومن جديد مرر يده على مؤخرة عنقه. «أجل يا سيدي. إن لم تجدها هناك، سأعيد لك مالك. لا أستطيع أن أكون أكثر عدلاً، أليس كذلك؟».

قال هوريس: «وما هوسعرك؟» نفث سنوبس السيجار بعناية. قال هوريس: «هيا قلْ. لن أساومك». قال له سنوبس ما يريد. قال هوريس: «حسناً. سأدفعه». رفع ركبتيه وأسند مرفقيه عليهما ووضع يديه على وجهه. «أين... انتظر. هل أنت من الطائفة المعمدانية على الإطلاق؟».

«أسرتي كذلك. أنا ليبرالي. لست محافظاً بأي معنى من المعاني، كما ستكتشف حين تعرفني أكثر».

قال هوريس: «حسناً، أين هي؟».

قال سنوبس: «سأضع ثقتي بك. إنها في ماخور في ممفيس».

الفصل الثالث والعشرون

حين دخل هوريس من بوابة منزل الآنسة ريبا واقترب من الباب ذي الشعرية، نادى شخص ما اسمه من خلفه. كان الوقت مساء؛ والنوافذ في ذلك الجدار الذي جارت عليه عوامل الطقس فأخذ بالتقشر، كانت مجرد مربعات. توقف ونظر إلى الخلف. من حول الركن المجاور كانت رأس سنوبس تطل كرأس ديك رومي. تقدم سنوبس حتى أصبح مرئياً كله. رفع نظره إلى المنزل، ثم نظر في كلا الاتجاهين على امتداد الشارع. سار على طول السياج ودخل من البوابة باحتراس.

قال: «حسناً أيها القاضي. سيبقى الشبان شباناً، أليس كذلك؟ لم يمد يده للمصافحة بل أرخى بثقله على هوريس بذلك الأسلوب المتميز بالثقة واليقظة نوعاً ما وفي آن معاً، وهو ينظر من فوق كتفه إلى الشارع. «كما أقول، لا يضير بأي رجل أن يكون له شأنه..».

قال هوريس: «ما الأمر الآن؟ ما الذي تريده مني؟».

«هيا هيا أيها القاضي. لن أقول لأحد في البلدة عما يجري هنا. انس الموضوع تماماً. لو بدأنا نحن الشبان نحكي للناس كل ما نعرفه، فلن يستطيع أي منا أن ينزل من القطار في جفرسون مرة أخرى».

«أنت تعرف بقدر ما أعرف ما الذي أفعله هنا. ما الذي تريده مني؟».

قال سنوبس: «أكيد، أكيد. أعرف كيف يشعر المرء المتزوج ولا يدري ما الذي تفعله زوجته». بين نظرات عصبية من فوق كتفه، راح يغمز لهوريس. «فلتهدأ بالاً. أنا صامت في مثل هذه الأمور صمت القبور. ولكني أكره فحسب أن أرى شاباً طيباً..». كان هوريس قد وصل إلى الباب. قال سنوبس بصوت خفيض وثاقب: «أيها القاضي». التفت هوريس. «لا تبق طويلاً».

«لا أبقى طويلاً؟».

«شاهدها ثم غادر المكان. إنه مكان للمغفلين. مكان لشبان المزارع. أعلى من مونتي كارلو. سأنتظر في الخارج هنا وسوف أريك مكاناً حيث..». واصل هوريس طريقه ودخل من باب الشعرية. بعد ساعتين، وبينما كان يحادث الآنسة ريبا في غرفتها كان وقع الأقدام وأحياناً الأصوات تأتي وتروح من وراء الباب باتجاه البهو، وعلى الدرج. دخلت ميني بمزقة من الورق وجلبتها لهوريس.

قالت الآنسة ريبا: «ما هذه؟».

قالت ميني: «الرجل الضخم ذو الوجه الأشبه بالفطيرة تركها لأجله. يريد منكَ أن تخرج إليه».

قالت الآنسة ريبا: «هل أدخلته إلى المنزل؟».

«لا، لم يحاول الدخول».

قالت الآنسة ريبا: «لا أظن أنه حاول ذلك». نخرتْ. قال لهوريس: «هل تعرفه؟».

قال هوريس: «أجل. لا يمكنني الهروب منه». فتح الورقة. كانت

قد اقتطعت من إعلان من النوع الذي يوزع باليد، وقد كتب عليها عنواناً بقلم الرصاص بخط أنيق وسلس.

قالت الآنسة ريبا: «لقد ظهر هنا قبل أسبوعين. جاء بحثاً عن شابين وجلس في غرفة الطعام يعامل الناس بفوقية ويتحسس مؤخرات الفتيات، ولكنه - على حد علمي - لم ينفق سنتاً واحداً قطّ».

«هل حدث أن طلب منك أي خدمة يا ميني؟».

«إطلاقاً».

«وبعد ليلتين من ذلك جاء إلى هنا مرة أخرى. و لم ينفق أي مال. و لم يفعل أي شيء سوى الكلام، وقلت له: «اسمعني يا مستر، من يستخدم من الناس غرفة الانتظار هذه يكونون على موعد لركوب القطار بين الحين والآخر». وهكذا أحضر معه في المرة التالية نصف باينت[1] من الويسكي. أنا لا يهمني ذلك لو فعله زبون جيد. ولكن حين يأتيني شخص مثله إلى هنا ثلاث مرات، وهو يقرص فتياتي ويجلب معه نصف باينت من الويسكي ويطلب أربع زجاجات كوكا كولا... مجرد رجل رخيص وسوقيّ يا عزيزي. لذا قلت لميني ألا تسمح له بالدخول بعدها. وفي عصر أحد الأيام وما أن استلقيت من أجل قيلولة حتى... لم أعرف قط ما فعله لميني حتى سمحت له بالدخول. أعرف أنه لم يعطها أي شيء. كيف نجح في مسعاه يا ميني؟ لا بد وأنه أراك شيئاً ما لم يسبق لك أن رأيته من قبل. أليس كذلك؟».

لوحت ميني برأسها. «ليس لديه أي شيء أريد رؤيته. لقد سبق ورأيت الكثير جداً حتى الآن حتى اكتسبت خبرة كافية». كان زوج

١- الباينت يعادل ثُمن الغالون.

ميني قد هجرها. لم يكن راضياً عن عملها، وكان يعمل طباخاً في مطعم وقد استولى على جميع الملابس والمجوهرات التي كانت السيدات البيضاوات قد منحنها لميني وهرب مع نادلة تعمل في المطعم.

قالت الآنسة ريبا: «ظل يطرح الأسئلة ويلمّح في كلامه إلى تلك الفتاة، وأنا أطلب منه أن يذهب ويسأل بوباي إن أراد أن يعرف ما يريده جيداً. لم أخبره بأي شيء سوى أن عليه أن يرحل، ويبقى بعيداً، كما ترى. وهكذا حدث هذا اليوم وفي الساعة الثانية بعد الظهر وأنا نائمة، أدخلته ميني وسألها عمن هو وجود هنا، وقالت له أن لا أحد، وصعد هو إلى الطابق العلوي. وتقول ميني إنه في حوالي تلك الساعة دخل بوباي. تقول إنها لم تعرف ما تفعله، فهي خافت من ألا تسمح له بالدخول وتقول إنها تعرف أنها لو سمحت له وقام هو بنثر دماء النغل الكبير فوق أرضية الطابق العلوي، فهي تعرف أني ساطردها من عملها وهي التي تخلى زوجها عنها للتو وكل تلك الأمور.

«إذاً يصعد بوباي إلى الطابق العلوي على قدميه الأشبه بقدمي الهرّ ويصادف صاحبنا وهو راكع على ركبتيه يصبص عبر ثقب المفتاح، تقول ميني إن بوباي وقف خلفه حوالي الدقيقة، وقبعته تغطي إحدى عينيه. تقول إنه أخرج لفافة تبغ وأشعل عود ثقاب على ظفر إبهامه دون أن يحدث أي ضجة وأشعل اللفافة ثم تقول إنه قرب العود من مؤخرة عنق صديقك، وتقول ميني إنها وقفت هناك، عند منتصف الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي، وراقبتهما: ذلك الشخص وهو راكع ووجهه كفطيرة أخرجت من الفرن في وقت مبكر جداً، وبوباي ينفث الدخان من منخريه، ويهز رأسه له. ثم هبطت هي الدرج وخلال حوالي عشر ثوان هاهو ينزل الدرج وكلتا يداه فوق رأسه ويتدحرج.... كواحد من تلك الأحصنة الضخمة التي تجر العربات. وقد توقف عند

الباب حوالي الدقيقة وهو يئنّ كالريح في المدخنة كما تقول ميني، حتى فتحت له الباب، وأخرجته. وكانت تلك آخر مرة يرنّ فيها الجرس حتى هذه الليلة... دعني أر هذه». أعطاها هوريس الورقة. قالت: «هذا ماخور نساؤه من الزنجيات. يا له من قذ... يا ميني، قولي له إن صديقه ليس هنا. قولي له إني لا أعرف أين ذهب».

خرجت ميني. قالت الآنسة ريبا: «لقد عرفت كل أنواع الرجال في منزلي هذا، ولكن عليّ أن ارسم حدودي. كما أن لديّ زبائن من المحامين. من زبائني أكبر محام في ممفيس وكان يجلس في غرفة الطعام ويطعم فتياتي على حسابه. إنه مليونير. كان يزن مائتين وثمانين باونداً، وقد أوصى على صنع سرير خاص به وأرسله إلى هنا. وهو الآن في الطابق العلوي. ولكن هذا هو عملي أنا ليس عملهن. لن أسمح أن يزعج أي محام فتياتي دون سبب معقول».

«ألا تعتقدين أن هذا سبب معقول؟ أن رجلاً يُحاكم وقد يخسر حياته بتهمة ارتكاب شيء لم يرتكبه؟ قد تكونين الآن مذنبة بإيواء هارب من العدالة».

«إذاً، دعهم يأتوا ليأخذوه. لا علاقة لي بالأمر. لديّ الكثير من رجال الشرطة في هذا المنزل وإلى حد أني لا أخشاهم». رفعت القدح وشربت ومسحت فمها بظاهر يدها. «لن تكون لي أي علاقة بأمر لا أعرف عنه شيئاً. ما فعله بوباي خارج منزلي يخصه هو. حين يبدأ بقتل الناس في منزلي، عندها ستكون لي علاقة بالأمر».

«هل لديك أطفال؟» نظرت إليه. قال: «لا أقصد التطفّل. كنت أفكر فحسب في تلك المرأة. ستعود إلى الشارع مجدداً، والرب وحده يعرف ما الذي سيحلّ بذلك الطفل».

قالت الآنسة ريبا: «أجل. أنا أعيل أربعة أطفال وهم في بيت من بيوت ولاية أركنسو الآن. هم ليسوا أولادي على أي حال». رفعت القدح ونظرت إليه وراحت تديره بلطف. وضعته جانباً. قالت: «من الأفضل ألا يولدوا إطلاقاً. جميعهم». نهضت واقتربت منه، وهي تتحرك بثقل، ووقفت وهي تطل عليه بأنفاسها القاسية. وضعت يدها على رأسه ورفعت وجهه إليها. قالت وعيناها ثاقبتان ومصممتان وحزينتان: «أنت لا تكذب عليّ، أليس كذلك؟ كلا أنت لا تكذب». حررته من قبضتها. «انتظر هنا لدقيقة وسوف أرى». خرجت. سمعها تتحدث إلى ميني في البهو، ثم سمعها تكدح صاعدة الدرج.

جلس بهدوء كما تركته هي. كانت الغرفة تحوي سريراً خشبياً وستارة ملونة وثلاثة كراس محشوة جداً، وخزنة من الفولاذ مقحمة في الجدار. على منضدة التزيّن تبعثرت أدوات التجميل التي ربطت بعقد من الساتان القرنفلي اللون. كان رف المدفأة يحمل ليلكة من الشمع تحت جرس زجاجي؛ وفوقه صورة لرجل خنوع المظهر ذي شارب ضخم وقد أحيطت بشريط أسود. على الجدران علق القليل من الصور المطبوعة لمشاهد يونانية زائفة، وصورة واحدة محاطة بتخريم ذي عقد. نهض هوريس وذهب نحو الباب. كانت ميني جالسة على كرسي في البهو المعتم.

قال: «يا ميني، لا بدّ لي من شراب. كأس كبير من الشراب».

ما أن انتهى من شربه، حتى دخلت ميني مجدداً. «تقول إن عليك أن تصعد إلى الطابق العلوي».

صعد الدرج. كانت الآنسة ريبا تنتظره في أعلى الدرج. قادت الطريق نحو البهو ثم فتحت باب غرفة معتمة. قالت: «عليك أن

تكلمها في الظلام. لا تريد أي ضوء». كان النور من البهو يسقط من خلال الباب وعبر السرير. قالت الآنسة ريبا: «هذه ليست غرفتها. رفضت أن تراك في غرفتها رفضاً باتاً. أعتقد أنه من الأفضل أن تتظارف معها حتى تعرف منها ما تريد أن تعرفه». دخلا الغرفة. كان الضوء يسقط عبر السرير، على ضلع ساكن ومنحن لغطاء السرير، دون أن يتأثر المظهر العام للسرير. فكر هوريس: ستختنق. قالت الآنسة ريبا: «يا حبيبتي». لم يتحرك الضلع. «هاهو يا حبيبتي. طالما كنت مغطاة بأكملك، فلنشعل نوراً ما. ثم نستطيع أن نغلق الباب». أضاءت النور.

قال هوريس: «ستختنق».

قالت الآنسة ريبا: «ستظهر خلال دقيقة. هيا. قل لها ما تريده أنت. الأفضل أن أبقى هنا. لا عليك مني. ما كنت لأستطيع البقاء في مهنتي دون أن أتعلم كيف أكون صماء وبكماء لفترة طويلة قبل هذا. ولو كان لديّ أي فضول، لكنت قد أنفقته كله في هذا المنزل. هاهو الكرسي». التفتت، ولكن هوريس توقع منها أن تتقدم فسحب كرسيين. جلس قرب السرير وبدأ يتكلم موجهاً الحديث إلى أعلى الضلع. قال لها ما أراد معرفته.

«كل ما أريده هو أن أعرف ما حدث فعلاً. لن تُلزمي نفسك. أعرف أنك لم ترتكبيها. أعدك قبل أن تحكي لي أي شيء أنه لن يكون عليك الإدلاء بشهادة في المحكمة إلا إذا كانوا سيشنقونه دون مثل هذه الشهادة. أعرف كيف تشعرين. ما كنت لأزعجك لولا أن حياة الرجل في خطر».

لم يتحرك الضلغ.

قالت الآنسة ريبا: «سيشنقونه من أجل شيء لم يرتكبه قط. ولن

يكون لتلك المرأة أي مال أو شخص يعينها. وأنت لديك الألماس وهي مع ذلك الطفل الصغير المسكين. لقد رأيته، أليس كذلك؟».

لم يتحرك الضلع.

قال هوريس: «أعرف كيف تشعرين. تستطيعين استخدام اسم آخر وترتدين ملابس لن يميزك أحد بها، ونظارات».

قالت الآنسة ريبا: «لن يقبضوا على بوباي يا حبيبتي، وهو ذكي وماهر. أنت لا تعرفين اسمه على أي حال، وإن كنت ستضطرين إلى أن تذهبي إلى المحكمة، فسوف أبلغه بعد أن تغادري وسيذهب هو إلى مكان ما ويطلب منك أن تلحقي به. أنت وهو لا يجب أن تبقيا في ممفيس هنا. سيعتني المحامي بك ولن يكون عليك أن تقولي أي شيء لا..». تحرك الضلع. أزاحت تمبل الغطاء وجلست في السرير. كان شعرها مشعثاً ووجهها متورماً، وبقعتان من مسحوق تجميل أحمر على وجنتيها وأحمر الشفاه على فمها. حدقت لبرهة إلى هوريس بعداء جليّ ثم أشاحت بنظرها.

قالت وهي تشد إلى الأعلى كتف ثوبها: «أريد شراباً».

قالت الآنسة ريبا: «استلقي. ستصابين بالزكام».

قالت تمبل: «أريد شراباً آخر».

قالت الآنسة ريبا وهي تنهض: «تمددي واستري عريك على أي حال. لقد سبق لك وتناولت ثلاثة كؤوس منذ العشاء».

شدت تمبل الثوب إلى أعلى. نظرت إلى هوريس. «أعطني شراباً إذاً».

قالت الآنسة ريبا وهي تحاول أن تدفعها لتستلقي: «هيا يا حبيبتي،

استلقي واسترتي واحكي له عن ذلك الأمر. سأجلب لك الشراب خلال دقيقة».

قالت تمبل وهي تتلوى وتتخلص من الأغطية: «دعوني بحالي». شدت الآنسة ريبا الأغطية من حول كتفيها. «أعطني لفافة تبغ إذاً. هل لديك لفافة؟».

قالت الآنسة ريبا: «سأجلب لك واحدة خلال دقيقة. هل لك أن تقومي بما يريده منك؟».

قالت تمبل: «ماذا؟» نظرت إلى هوريس بتحديقتها السوداء المتحدية.

قال هوريس: «لا حاجة إلى أن تخبريني أين كنت... كان..».

قالت تمبل: «لا تظن أني أخشى الكلام. سأقوله في أي مكان. لا تظن أنني خائفة. أريد شراباً».

قالت الآنسة ريبا: «قولي له وأنا سأحضر لك الشراب».

جلست تمبل في السرير والأغطية من حول كتفيها، وراحت تحكي له عن تلك الليلة التي أنفقتها في المنزل المتداعي، من ساعة ما دخلت الغرفة وحاولت أن تُمترس الباب بالكرسي حتى جاءت المرأة إلى السرير وقادتها إلى خارج المنزل. كان ذلك هو الجزء الوحيد من كل التجربة التي خاضتها والذي بدا وكأنه ترك انطباعاً عليها إطلاقاً: إنها الليلة التي قضتها بحالة عدم انتهاك نسبي. بين الحين والآخر كان هوريس يحاول أن يجعلها تتقدم في حكايتها لتصل إلى جريمة القتل نفسها، ولكنها كانت تراوغه وتعود إلى حكاية جلوسها على السرير وهي تصغي إلى الرجال الجالسين في الرواق، أو وهي مستلقية في العتمة وحين دخلوا الغرفة واقتربوا من السرير ووقفوا هناك يراقبونها.

كانت تقول: «أجل حدث ذلك. حدث فحسب. لا أعرف. كنت خائفة لفترة طويلة جداً حتى أني أظن أني فكرت أنه الجرذ في البداية. لذا جلست هناك فحسب في بذور القطن تلك وراقبته. ظننت في البداية أنه كان الجرذ. كان هناك جرذان اثنان. أحدهما كان في الركن ينظر إليّ والآخر في الركن الآخر. لا أعرف على أي شيء كانا يقتاتان، لأنه لم يكن هناك أي شيء سوى عرانيس الذرة الفارغة وبذور القطن. ربما كانا يذهبان إلى المنزل ليقتاتا. ولكن لم يكن هناك أي جرذ في المنزل. لم أسمع صوت أي واحد منها في المنزل إطلاقاً. ظننت أنه كان جرذاً حين سمعتهما، ولكنك تستطيع أن تشعر بالبشر في غرفة مظلمة: هل تعرف ذلك؟ ليس عليك أن تراهم. تستطيع أن تشعر بهم كما لو أنك في سيارة ويبدؤون بالبحث عن مكان جيد للتوقف فيه... أنت تعرف: إيقاف السيارة لفترة قصيرة». تابعت الكلام على هذا النحو، في واحد من تلك المونولوجات الثرثارة والزاهية التي تستطيع النسوة القيام بها حين يدركن أنهن في مركز الاهتمام. وفجأة أدرك هوريس أنها تصطنع ذلك وهي تنظر إليه ثم تنظر إلى الآنسة ريبا ككلب يقود قطيعين على امتداد طريق واحد.

«لذا كنت كلما تنفست أسمع قشور الذرة تلك. لا أعرف كيف يمكن لأي شخص أن ينام على سرير كذاك. ولكن ربما يعتاده المرء. أو ربما يكونون متعبين في الليل. لأني حين كنت أتنفس استطعت أن أسمعها، وحتى حين كنت أجلس فحسب على السرير. لم أعرف كيف يمكن لذلك أن يكون مجرد تنفس، لذلك كنت أجلس ساكنة بقدر ما أستطيع، ومع ذلك كنت ما أزال قادرة على سماعها. وهذا لأن التنفس يهبط. أنت تظنه يصعد، ولكنه لا يفعل ذلك. إنه يهبط فيك، وكنت أسمعهم وهم يسكرون على الرواق. رحت أفكر أني كنت قادرة على رؤية أين كانت رؤوسهم تتكئ على الجدار وكنت أقول: الآن هذا

يشرب من الدورق. والآن ذاك الشخص يشرب. تماماً كما هي الفجوة التي تتركها الرأس على الوسادة بعد النهوض من النوم، كما تعرف.

«كان ذلك حين بدأت أفكر بشيء مضحك. أنت تعرف ما الذي تفعله حين تكون خائفاً. كنتُ أنظر إلى ساقيّ وأحاول أن أتصرف كانني كنت فتى. كنت أتمنى لو كنت فتى فحسب، ثم حاولت أن أجعل من نفسي فتى بالتفكير. تعرف كيف تفعل أموراً كهذه، أي كما يحدث حين تعرف الحل لمسألة ما في الصف المدرسي، وحين يحصل أن تنظر أنت إلى المعلم بقوة: اطلبْ مني الجواب. اطلبْ مني الجواب. اطلبْ مني الجواب. رحت أفكر فيما يقولونه للأطفال عن تقبيل المرء لمرفقه، وحاولت ذلك. فعلت ذلك حقاً. كنت خائفة جداً، وأتساءل إن كنت سأعرف متى سيحصل الأمر. أعني قبل أن أنظر وأفكر كيف سأخرج إليهم وأريهم... أنت تعرف. سأشعل عود ثقاب وأقول: «انظروا، هل ترون؟ اتركوني بحالي الآن». وعندها سأتمكن من الذهاب إلى السرير والنوم، لأني كنت وسنانة. كنت لا أستطيع إبقاء عينيّ مفتوحتين إلا بالكاد.

«وهكذا كنت أغلق عينيّ بقوة وأقول الآن هاأنذا. هاأنذا. كنت أنظر إلى ساقيّ وأفكر كم عملت من أجلهما. كنت أفكر بالعدد الهائل من حفلات الرقص التي أخذت ساقيّ إليها... أمور جنونية كهذه. لأني فكرت كم عملت من أجلهما، والآن هاهما توصلاني إلى هذا المأزق. لذا فكرت في الصلاة حتى أتحول إلى فتى وكنت أصلي ثم أستوي في جلستي وأنتظر. ثم كنت أفكر ربما لم أعرف أن الأمر حصل، وعليّ أن استعد لأرى. ثم أفكر أنه ربما كنت مستعجلة جداً حتى أني قد أفسد الأمر فلا يحصل. ثم أفكر أنه ربما لم يحن الوقت بعد لأنظر. لذا رحت أعدّ. قلت إني ساعدّ حتى الخمسين أولاً، ثم فكرت في أن الوقت لم

يحن بعد، فأعد خمسين أخرى. ثم أفكر في أني إن لم أنظر في الوقت الملائم، فستكون الفرصة قد فاتت.

«ثم فكرت في أن أحزم نفسي بطريقة ما. كانت هناك فتاة سافرت إلى الخارج ذات مرة في فصل الصيف وحكت لي أنها رأت نوعاً من الحزام الحديدي في أحد المتاحف استخدمه ملك أو أمير ما ليقفل مكان العفة من زوجته وهو مسافر. وتمنيت لو كان عندي مثله. لهذا أمسكت بالمعطف المطري وارتديته. كانت المطرة معلقة أيضاً هناك فأخذتها ووضعتها في..».

قال هوريس: «المطرة؟ لم فعلت ذلك؟».

«لا أعرف لم أخذتها. كنت خائفة فحسب من أن أتركها هناك، على ما أظن. ولكني كنت أتمنى لو كان لديّ ذلك الحزام الفرنسي. كنت أفكر في أنه كانت له أشواك حادة طويلة عليه ولن يعرف الرجل ذلك إلا متأخراً، وأني سأطعنه بها. كنت سأخترق جسده بها وأفكر بالدماء التي ستنهال عليّ وكيف سأقول له: «هذا كي تتعلم الدرس! أعتقد أنك ستتركني في حالي الآن!» لم أكن أعلم أن الأمر سيكون معكوساً وأني أنا التي سوف... أحتاج إلى شراب».

قالت الآنسة ريبا: «سأحضر لك شراباً خلال دقيقة. تابعي الكلام واحكي له».

«أوه، أجل. كان هناك شيء مضحك آخر فعلته». حكت عن الاستلقاء في الظلام وغووان يشخر إلى جانبها، وكيف أصغت إلى قشور الذرة وسمعت العتمة وهي مترعة بالحركة، وكيف أحست بوباي وهو يقترب. كانت قادرة على سماع الدم وهو يجري في شرايينها والعضلات الصغيرة في زوايا عينيها وهي تطقطق بضعف

وتتسع وتتسع. وكانت قادرة على الإحساس بمنخريها يبردان ثم يدفآن. ثم هاهو يقف ويطل عليها وكانت تقول:،هيا، المسني. المسني! ستكون جباناً إن لم تفعل.جبان! جبان!'

«أردت أن أغفو، كما ترى. ولكنه بقي واقفاً هناك. فكرت في أنه لو فعل ما يريده وانتهى الأمر لاستطعت النوم. لذا كنت أقول: «أنت جبان إن لم تفعلها! أنت جبان إن لم تفعلها!» وكنت أشعر أن فمي على وشك الصراخ، وبتلك الكرة الصغيرة الساخنة في داخلك التي تصرخ. ثم لمسني، تلك اليد الصغيرة الباردة القذرة، كانت تتلمس داخل المعطف حيث كنت عارية تحته. كانت كالجليد الحيّ وبدأ جلدي يقفز مبتعداً عنها كتلك الأسماك الصغيرة التي تطير أمام زورق. كأنما كان جلدي يعرف أين سيذهب قبل أن يبدأ التحرك، وكان جلدي يتحرك إلى الأمام ليسبق اليد حتى لا تجد شيئاً في ذلك المكان الذي ستصل إليه.

«ثم وصلت يده إلى حيث تبدأ أحشائي، وأنا التي لم تكن قد أكلت أي شيء منذ عشاء البارحة وكانت أحشائي قد بدأت تبقبق وقشور الذرة بدأت تصدر الكثير من الضجيج أشبه بالضحك. كنت أظنها تضحك عليّ لأن يده كانت طوال الوقت تدخل أعلى سروالي التحتاني وأنا لم أتحول إلى فتى بعد.

«كان ذلك هو الشيء المضحك، لأني لم أكن أتنفس حينها. لم أكن قد تنفست لوقت طويل. لذا ظننت أني قد متُّ. ثم فعلت شيئاً مضحكاً. كنت أستطيع رؤية نفسي في التابوت. بدوت جميلة...كما تعرف، بملابس كلها بيضاء. كنت أرتدي خماراً كعروس وكنت أبكي لأني ميتة أو لأني بدوت جميلة أو ما شابه. كلا: كان السبب لأنهم وضعوا قشور الذرة في التابوت حيث كنت أرقد ميتة، ولكن طوال الوقت كنت قادرة على الشعور بأن أنفي بارد وحار وبارد وحار،

وعلى مشاهدة جميع الأشخاص الجالسين من حول التابوت، وهم يقولون: «ألا تبدو جميلة. ألا تبدو جميلة».

«ولكني واصلت القول: «جبان!جبان! المسني يا جبان!» وقد غضبت جداً لأنه استمر في فعله فترة طويلة. كنت سأكلمه، سأقول له: «هل تظن أني سأظل مستلقية هنا طوال الليل وأنا تحت خدمتك؟» كنت سأقول ذلك. دعني أقل لك ما سأفعله، سأقول. وكنت أستلقي هناك وقشور الذرة تضحك مني وأنا أتلوّى لأبتعد عن يده، وأفكر فيما سأقوله له، وسأخاطبه كما يخاطب المعلم التلاميذ في المدرسة، ثم كنت معلمة في مدرسة وكان هناك شيء أسود صغير كصبي زنجي، نوعاً ما، وكنت أنا المعلمة. لأني كنت سأقول: «كم عمري؟» وكنت سأقول: «خمسة وأربعون عاماً». كان شعري رمادياً بلون الحديد وأضع نظارات على عينيّ، وكنت قد أصبحت بدينة كما هو شأن النساء الكهلات. كنت أرتدي بزة رمادية أنا التي لم تكن قادرة على ارتداء أي شيء رمادي. وكنت أحكي لها ما الذي سأفعله وكانت ستتوقف عن العمل نوعاً ما كأنها قادرة على رؤية التحوّل.

«ثم قلت إن هذا يجدي. يجب أن أكون رجلاً. وهكذا أصبحت رجلاً عجوزاً بلحية بيضاء كبيرة، ثم أصبح الرجل الأسود الصغير أصغر فاصغر وكنت أقول الآن. أترى الآن؟ أصبحتُ رجلاً الآن. ثم فكرت في كوني رجلاً، وما أن فكرت في ذلك حتى حدث الأمر. أصدر صوتاً كحصاة تسقط في الماء، كأنك تنفخ في أنبوب مطاطي صغير من الجانب الخطأ نحو الخارج. شعرت بالبرد، كما هو حال فمك حين تتركه فاغراً. استطعت أن أشعر بالأمر وبقيت ساكنة حتى لا أضحك من الدهشة التي سيصاب بها. استطعت أن أشعر بالحركة داخل سروالي التحتاني من قبل يده وأنا مستلقية هناك محاولة ألا أضحك

من دهشته وغضبه اللذين كانا سيحدثان بعد حوالي دقيقة. ثم نمتُ فجأة. لم أستطع حتى البقاء مستيقظة حتى تصل يده إلى هناك. لقد نمت فحسب. لم أستطع حتى أن أشعر بنفسي أتحرك أمام يده، ولكني كنت أستطيع سماع صوت قشور الذرة. لم أستيقظ حتى جاءت تلك المرأة واصطحبتني إلى المذود».

قالت الآنسة ريبا وهو يغادر المنزل: «أتمنى لو تبعدها من هنا وألا تسمح لها بالعودة. سأبحث عن ذويها بنفسي، لو كنت أعرف كيف يمكن تدبير ذلك. ولكنك تعرف... ستموت أو ستوضع في مشفى الأمراض العقلية خلال سنة واحدة، حسب ما يحدث بينه وبينها هناك في الأعلى في تلك الغرفة. هناك شيء مسلّ في الأمر لم أكتشفه بعد. ربما يتعلق الأمر بها. فهي لم تولد من أجل هذه النوع من الحياة. يجب أن تولد جزاراً أو حلاقاً حتى تكون كذلك على ما أظن. لا أتمنى أن يكون أي شخص في مكانهما، لا من أجل المال ولا التسلية».

فكر هوريس وهو يمشي: «الأفضل لها أن تموت هذه الليلة. والأفضل لي أنا أيضاً». فكر فيها وفي بوباي والمرأة والطفل وغودوين، كلهم في غرفة واحدة، عارية من الأثاث، ميتة فورية وعميقة: لحظة وحيدة ملغية، بين السخط والدهشة. وأنا أيضاً. مفكراً كيف أن هذا هو الحل الوحيد. مُزال ومعالَج بالكيّ من الخاصرة العتيقة والتراجيدية للعالم. وأنا أيضاً، ولأننا الآن معزولون جميعاً؛ مفكراً بريح لطيفة معتمة تهب من دهاليز النوم في البحر الأيوني؛ بالاستلقاء تحت جذر واطئ ودافئ تحت الصوت الطويل للمطر: الشرّ والظلم والدموع. في مدخل زقاق وقف شخصان وجهاً لوجه، دون أن يتلامسا؛ الرجل ينطق بلهجة خفيضة نعتاً وراء نعت بهمسة مواسية، والمرأة دون حراك أمامه وكأنها في حالة إغماء تأملية من النشوة الشهوانية. ربما أننا ندرك على التو ونقرّ

بأن هناك نمطاً منطقياً للشر، أننا نموت، كما فكر، ونحن نفكر بالتعبير الذي رآه ذات مرة في عيون طفل ميت، وأموات آخرين: السخط المهدّئ واليأس المصدوم اللذان يتلاشيان، تاركين كرتين فارغتين يكمن فيهما العالم الساكن بعمق في رسم في منتهى الصغر.

لم يعد حتى إلى الفندق. مضى إلى المحطة. كان بإمكانه أن يلحق بقطار منتصف الليل. تناول فنجان قهوة وتمنى على الفور لو أنه لم يفعل، فقد مكث هذا كأنه كرة ساخنة في معدته. بعد ثلاث ساعات، حين هبط من القطار في جفرسون، كانت الكرة ما تزال هناك، دون أن تمثّلها معدته. سار نحو مركز البلدة وعبر الساحة الخالية. فكر في الصباح الآخر عندما عبرها. كأنما لم يكن هناك أي زمن مضى بين العبورين: الايماءة نفسها لوجه الساعة المضاء، والظلال الشبيهة بالنسور في مداخل الأبنية. ربما يكون هذا هو الصباح نفسه وهو قد عبر هذه الساحة لا غير بالعكس، وكان يعود الآن؛ وكل ذلك ما بين حلم مترع بالأشكال الكابوسية كلها التي استغرقته ثلاثة وأربعون عاماً ليخترعها، والمتركزة في كتلة ساخنة وقاسية في معدته. وفجأة أصبح يمشي بسرعة، والقهوة ترتج كحجر ساخن وثقيل في داخله.

سار بهدوء على امتداد الطريق، وبدأ يشم رائحة زهر العسل من السياج. كان المنزل معتماً، ساكناً، وكأنه ألقي على شاطئ مهجور في الفضاء بجَزْر الزمان كله. كانت الحشرات قد خفضت أصواتها إلى درجة منخفضة ورتيبة، في كل مكان، وليس في أي مكان، منهكة، وكأن الصوت كان الألم الكيميائي للعالم الذي ترك متخشباً ومحتضراً فوق حافة مدّ السائل الذي نعيش ونتنفس فيه. كان القمر واقفاً من فوق، ولكن دون نور؛ والأرض كانت تستلقي تحته، دون عتمة. فتح الباب وتحسس طريقه نحو الغرفة ومفتاح النور. كان صوت

الحشرات – كانت ما تكون – قد لحق به إلى داخل المنزل؛ وعرف فجأة أنه احتكاك الأرض على محورها، مقتربة من تلك اللحظة التي يكون عليها فيها أن تقرر بالالتفات أو البقاء ساكنة إلى الأبد: كرة ساكنة في فراغ يتبرّد، وعبره كانت رائحة زهر العسل تتلوى كالدخان البارد.

وجد مفتاح النور وأضاءه. كانت الصورة جالسة على منضدة الزينة. رفعها وأمسك بها بين يديه. كان وجه بِل الصغيرة المحاط بالدمغة الضيقة التي تركها الإطار المفقود يحلم بتلك الخاصية العذبة للنور والظل. بدا الوجه وكأن يتنفس بين كفيه بحمام ضحل من النور القوي، تحت الألسنة البطيئة الدخانية لزهور العسل اللامرئية، وذلك بسبب انتقال التأثير إلى كرتون الصورة بخاصية ما من النور أو ربما بحركة في منتهى الصغر قامت بها يداه وتنفسه هو. وبما أنها محسوسة بما فيه الكفاية حتى تتمكن رؤيتها، راحت الرائحة العطرية تعم الغرفة وبدا الوجه الصغير وكأنه يتغشّى في وهن شهواني، ويتغبّش أكثر فأكثر ويبهت تاركاً على عينه أثراً متلاشياً وناعماً من الدعوة والوعد الشهواني والإقرار السري كالرائحة العطرية نفسها.

ثم عرف ما كان يعني ذلك الإحساس في معدته. وضع الصورة في مكانها بسرعة وذهب إلى الحمام. فتح الباب وهو يجري وراح يتلمس مفتاح النور. ولكن الوقت فاته قبل أن يجدها، فاستسلم وانحنى إلى الأمام فوق المغسلة متكئاً على ذراعيه المشبكين بينما راحت قشور الذرة تصدر ضجة رهيبة تحت فخذيها. كانت تستلقي ورأسها مرفوعة قليلاً، وذقنها مضغوطة كأنها لجثة أنزلت عن صليب، وهي تراقب شيئاً ما، شيئاً أسود وجنونياً وهو يخرج هادراً من جسدها الشاحب. كانت مقيدة وعارية مستلقية على ظهرها في سيارة مسطحة تتحرك بسرعة عبر نفق أسود، والسواد يتدفق في خيطان قاسية من فوق، وزمجرة

العجلات الحديدية في أذنيها. اندفعت السيارة من النفق بانحدار طويل نحو الأعلى والظلمة التي من فوق أصبحت الآن ممزقة برقائق متوازية من النار الحيّ، نحو أوج كنفس مكتوم، كبرهة كانت ستتأرجح بوهن وكسل في اللاشيء المترع بنقاط شاحبة ومتعددة من النور. من الأسفل والبعيد كانت قادرة على سماع هدير جنوني لقشور الذرة.

الفصل الرابع والعشرون

في أول مرة ذهبت بها ممبل إلى رأس الدرج قلّبت ميني عينيها خارج النور الغسقي قرب باب الآنسة ريبا. وحين اتكأت مرة أخرى ضمن بابها الموصد بالرتاج، سمعت ممبل الآنسة ريبا تكافح وهي تصعد الدرج ثم تطرق على الباب. استندت ممبل بصمت علي الباب بينما راحت الآنسة ريبا تلهث وتصفرّ وراءه بمزيج من التملق والتهديد. لم يصدر عنها أي صوت. بعد فترة قصيرة عادت الآنسة ريبا لتهبط الدرج.

ابتعدت ممبل عن الباب ووقفت في منتصف الغرفة، وهي تضرب يديها بصمت الواحدة مع الأخرى وعيناها سوداوان في وجهها الشاحب. كانت ترتدي ثوباً يلائم الخروج وقبعة. خلعت القبعة واندفعت نحو ركن الغرفة ثم رمت بنفسها على السرير ووجهها إلى الأسفل. لم يكن السرير مرتباً، كما تناثرت على المنضدة التي قربه أعقاب اللفافات واكتست الأرضية بالرماد. كان غطاء الوسادة من هذا الجانب مبقعاً بثقوب بنية اللون. غالباً ما كانت تستيقظ في الليل لتشم رائحة التبغ ولترى العين الياقوتية الوحيدة حيث يكون فم بوباي.

كان الوقت هو منتصف فترة الصباح وشريط نحيل من نور الشمس يسقط تحت الستارة المفتوحة للنافذة الجنوبية، ويحط فوق حافة النافذة ثم فوق الأرضية بحزمة ضيقة. كان المنزل هادئاً تماماً، بتلك الخاصية

التي للتنفس المنهك الذي يكون له في منتصف فترة الصباح. بين الحين والآخر كانت تمرّ سيارة في الشارع إلى الأسفل.

تقلبت تمبل على السرير. وحين فعلت ذلك رأت واحدة من بذلات بوباي السوداء وقد وضعت فوق كرسي. استلقت وهي تنظر إليها لفترة من الزمن، ثم نهضت وأمسكت بملابسه ورمتها في الركن حيث كانت قبعته. في ركن آخر كانت خزانة حائط مغطاة بستارة مطبوعة. كانت تحتوي على أثواب من كل نوع وجديدة كلها. راحت تمزقها بجنون وترميها فوق البذلة، وكذلك صفّ من القبعات كانت موضوعة على رفّ. واحدة أخرى من بذلات بوباي كانت معلقة هناك أيضاً. رمت بها أرضاً. إلى الخلف منها ومعلقاً على مسمار كان مسدس آليّ في قراب من الحرير المزيّت. أنزلته بحذر وأخرجت المسدس ووقفت وهو في يدها. وبعد برهة، مضت نحو السرير وأخفته تحت الوسادة.

كانت أدوات التجميل مبعثرة فوق منضدة الزينة... فراشي ومرايا جديدة أيضاً وكذلك قوارير ومرطبانات ذات أشكال دقيقة وغريبة، تحمل لصاقات فرنسية. راحت تجمعها واحدة بعد أخرى ثم رمتها في الركن بأصوات مكتومة وأصوات تحطم إلى شظايا. من بينها كانت حقيبة من البلاتين: نسيج دقيق من المعدن فوق الوميض البرتقالي للنقود الورقية. وقد ألحقت هذه بالأشياء الأخرى برميها إلى الركن ثم عادت إلى السرير واستلقت مجدداً ووجهها نحو الأسفل ضمن تكثف بطيء لروائح العطور الثمينة.

عند الظهيرة طرقت ميني الباب. قالت: «هاهي وجبة غدائك». لم تتحرك تمبل. «سأتركها هنا قرب الباب. يمكنك أخذها حين تريدينها». مضى وقع أقدامها بعيداً. لم تتحرك تمبل.

وببطء تحرك شريط ضوء الشمس عبر الأرضية، والجانب الغربي من إطار النافذة أصبح في الظل الآن. جلست تمبل ورأسها ملتفتة جانباً وكأنها كانت تصغي، وهي تخلل شعرها بمهارة بموجب العادة. نهضت بهدوء وذهبت إلى الباب وأصغت مجدداً. ثم فتحته. كانت الصينية على الأرض. خطت من فوقها واتجهت نحو الدرج وحدقت من فوق الدرابزون. بعد برهة ميّزت ميني وهي جالسة على كرسي في البهو.

نادت: «يا ميني». رفعت ميني رأسها. ومن جديد تقلبت عيناها حتى ابيضتا. قالت تمبل: «أحضري لي شراباً». ثم عادت إلى غرفتها. انتظرت خمس عشرة دقيقة. فتحت الباب بقوة وراحت تهبط الدرج بجنون حين ظهرت ميني في البهو.

قالت ميني: «نعم يا سيدتي. تقول الآنسة ريبا... لم يعد لدينا أي..». فتح باب الآنسة ريبا التي خاطبت ميني دون أن ترفع نظرها إلى تمبل. صاحت ميني مجدداً: «أجل يا سيدتي. حسناً. سأحضره خلال دقيقة».

قال تمبل: «يجدر بك أن تفعلي ذلك». وعادت ووقفت في الباب حتى سمعت ميني تصعد الدرج. فتحت تمبل الباب وتركته مفتوحاً.

قالت ميني: «ألن تأكلي طعام الغداء؟» وذلك وهي تدفع الباب بركبتها، ولكن تمبل ظلت ممسكة به.

قالت تمبل: «وأين هو؟».

قالت ميني: « لم أرتب لك غرفتك هذا الصباح».

قالت تمبل: «أعطني إياه»، مدت يدها عبر شق الباب. أخذت الكأس من الصينية.

قالت ميني: «الأفضل لك أن يكون هذا آخر كأس تشربينه. تقول الآنسة ريبا إنك لن تحصلي على المزيد منه... لماذا تعاملينه بهذه الطريقة؟ ألا ترين الطريقة التي ينفق بها نقوده عليك؟ عليك أن تشعري بالخجل. إنه رجل صغير ووسيم جداً، حتى ولو لم يكن «جون غيلبرت»[1]، ولا تنسي الطريقة التي ينفق بها نقوده..». أغلقت تمبل الباب وأغلقت الرتاج. شربت الجين وسحبت كرسياً حتى السرير وأشعلت لفافة وجلست وقدماها على السرير. بعد فترة قصيرة حركت الكرسي نحو النافذة ورفعت الستارة قليلاً حتى تستطيع أن ترى الشارع تحت النافذة. أشعلت لفافة أخرى.

في الساعة الخامسة رأت الآنسة ريبا تخرج من المنزل بالقبعة الحريرية السوداء ذات الأزهار، وتمشي في الشارع. قفزت وأخرجت القبعة من كومة الملابس في ركن الغرفة ووضعتها على رأسها. عند الباب التفتت ونظرت إلى الركن ثم بحثت حتى وجدت الحقيبة البلاتينية فأخذتها وهبطت الدرج. كانت ميني في البهو.

قالت تمبل: «سأعطيك عشرة دولارات. لن أغيب أكثر من عشر دقائق».

«لا أستطيع فعل ذلك يا آنسة تمبل. سيكون الثمن عملي هنا لو اكتشفت الآنسة ريبا الأمر، وربما فقدت روحي أيضاً لو أن السيد بوباي عرف بالأمر».

«أقسم لك أني سأعود خلال عشر دقائق. أقسم على ذلك. عشرون دولاراً». وضعت الورقة النقدية في يد ميني.

١- جون غيلبرت: ممثل امريكي (١٨٩٨-١٩٣٦).

قالت ميني وهي تفتح الباب: «الأجدر بك أن تعودي. إن لم تعودي خلال عشر دقائق، فلن أبقى أنا أيضاً».

فتحت ممبل الباب ذا الشعرية وحدقت إلى الخارج. كان الشارع خالياً إلا من سيارة أجرة عند الناصية عبر الدرب، ورجل يرتدي قبعة يقف في باب وراء السيارة. مشت في الشارع وبسرعة. عند الركن أدركتها سيارة الأجرة ببطء، والسائق ينظر إليها باستفهام. استدارت ودخلت إلى مخزن بيع الأدوية والبضائع الأخرى عند الركن واتجهت إلى حجرة الهاتف. عادت إلى المنزل. حين سارت من حول الركن قابلت الرجل المرتدي للقبعة الذي كان يتكئ على الباب. دخلت من الباب ذي الشعرية. فتحت ميني الباب.

قالت ميني: «الحمد للرب. حين انطلقت سيارة الأجرة تلك خلفك، حضرت نفسي للانطلاق أنا أيضاً. إذا وعدتني بألا تقولي أي شيء عن هذا الأمر فسأجلب لك شراباً».

حين أحضرت ميني الجين، بدأت ممبل تحتسيه. كانت يدها ترتجف وهي تقف مرة أخرى داخل الباب، وتصغي، والكأس في يدها. قالت في نفسها: «سأحتاج إليه لاحقاً. سأحتاج إلى ما هو أكثر من هذا». غطت الكأس بصحن وخبأته بحرص. ثم بحثت ضمن كومة الثياب في الركن فوجدت بزة رقص سوداء فهزتها وعلقتها في الخزانة. نظرت إلى الأشياء الأخرى لبرهة، ولكنها عادت إلى السرير واستلقت مجدداً. ثم نهضت فوراً وسحبت الكرسي وجلست عليه، وقدماها على السرير غير المرتب. وبينما راح نور النهار يحتضر ببطء في الغرفة راحت تدخن اللفافة إثر الأخرى وتصغي إلى كل صوت على الدرج.

في السادسة والنصف جلبت لها ميني طعام العشاء. على الصينية

كان كأس آخر من الجين. قالت: «أرسلت لك الآنسة ريبا هذه الكأس لك. وتقول لك كيف حالك؟».

قالت تمبل: «قولي لها إني في حال حسنة. سأستحم ثم أذهب إلى الفراش. قولي لها هذا».

حين غادرت ميني الغرفة صبت تمبل الكأسين في قدح كبير وتأملته بحبور والقدح يهتزّ بين يديها. خبأته بعناية وغطته وتناولت طعام العشاء وهي في السرير. حين انتهت أشعلت لفافة. كانت حركاتها مرتعشة. دخنت بسرعة، وهي تتحرك في أرجاء الغرفة. وقفت لبرهة عند النافذة والستارة مزاحة جانباً، ثم أنزلتها والتفتت إلى الغرفة مجدداً، وهي تتجسس على نفسها في المرآة. استدارت أمامها، وهي تمعن النظر في جسدها وتدخن اللفافة.

رمت بها إلى ما خلفها، نحو المستوقد، ثم اقتربت من المرآة ومشطت شعرها. أزاحت الستارة جانباً وأخذت الثوب ووضعته على السرير وعادت وسحبت درجاً من منضدة الزينة وأخرجت منه كساء. توقفت والكساء في يدها، ثم استبدلته وأغلقت الدرج وأمسكت بالبزة السوداء بسرعة وعلقتها في الخزانة. بعد لحظة وجدت نفسها تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ولفافة أخرى تحترق في يدها. ودون أن تتذكر أنها أشعلتها. رمتها بعيداً وذهبت إلى المنضدة ونظرت إلى ساعة يدها ووضعتها باستقامة على علبة اللفافات حتى تستطيع أن تراها من السرير، ثم استلقت. حين فعلت ذلك شعرت بوجود المسدس تحت الوسادة. أخرجته ونظرت إليه، ثم وضعته تحت خاصرتها وتمددت ساكنة، ساقاها مستقيمتان، ويداها خلف رأسها، وعيناها تركزان في نقاط سوداء صغيرة على كل صوت يأتي من الدرج.

في الساعة التاسعة نهضت. أخرجت المسدس مرة أخرى. بعد برهة دفعته تحت الفرشة وخلعت ملابسها وارتدت ثوباً صينياً مزيفاً مبقعاً بتنينات ذهبية ويَشَب وزهور قرمزية وغادرت الغرفة. حين عادت كان شعرها مجعداً ورطباً من حول وجهها. ذهبت إلى المغسلة وأمسكت بالقدح بين كلتا يديها، ولكنها أعادته إلى مكانه.

ارتدت ملابسها، واسترجعت الزجاجات والأباريق من الركن. كانت حركاتها أمام المرآة جنونية ولكنها تتطلب جهداً. ذهبت إلى المغسلة ورفعت القدح، ولكنها توقفت مجدداً وذهبت إلى الركن، أخذت سترتها وارتدتها ووضعت الكيس البلاتيني في جيب السترة وانحنت مرة أخرى أمام المرآة. ثم ذهبت ورفعت القدح وأخذت منه جرعة من الجين وغادرت الغرفة، وهي تمشي بسرعة.

كان نور وحيد مضاء في البهو. كان البهو فارغاً. استطاعت سماع أصوات في غرفة الآنسة ريبا، ولكن البهو السفلي كان مهجوراً. هبطت بسرعة وصمت وفتحت الباب. كانت تعتقد أنهن سيوقفنها عند الباب، وفكرت بالمسدس بندم حاد، وكادت تتوقف، وهي تعرف أنها ستستخدمه دون أي وخز للضمير إطلاقاً، وبنوع من السرور. قفزت نحو الباب، ومدت يدها إلى الرتاج، ووجهها ملتفت إلى الخلف.

انفتح الباب. خرجت قفزاً من منه ومن الباب ذي الشعرية وركضت وهي تعبر الممشى وخرجت من البوابة. وبينما كانت تفعل ذلك، توقفت سيارة كانت تتحرك ببطء على امتداد الناصية مقابلها. كان بوباي جالساً وراء المقود، ودون أي حركة واضحة منه فتح الباب. لم يتحرك و لم يتلفظ بأي كلمة. بل جلس هناك فحسب، وقبعته المصنوعة من القش مائلة قليلاً إلى جانب.

قالت تمبل: «لن أفعل! لن أفعل!»

لم يتحرك ولم يتكلم. جاءت إلى السيارة.

«لن أفعل، وأنا أقول لك هذا جدياً!» ثم صرخت بجنون: «أنت خائف منه! أنت خائف». قال: «أنا أمنحه فرصته. هل ستعودين إلى المنزل أم تدخلين إلى هذه السيارة؟».

«أنت خائف منه!»

قال بصوته البارد الرقيق: «أنا أمنحه فرصته. هيا بنا. تعالي. قرري».

انحنت إلى الأمام، ووضعت يدها على ذراعه. قالت: «بوباي، أبي». كان شعورها بذراعه أنها ضعيفة، ليست أكبر من ذراع طفل، ميتة وقاسية وخفيفة كعصا».

قال: «لا يهمني ما ستفعلينه، ولكن افعليها. هيا».

انحنت نحوه ويدها على ذراعه. ثم ركبت السيارة. قالت: «لن تفعلها. أنت خائف منه. إنه أفضل منك كرجل».

مدّ يده وأغلق الباب. قال: «إلى أين؟ إلى غروتو؟».

«إنه أفضل منك كرجل! أنت لست بالرجل حتى! وهو يعرف ذلك. ومن يعرف سواه إن لم يعرف هو بالذات؟» كانت السيارة تتحرك. بدأت تصرخ. «أأنت رجل، أيها الشرير والوقح، وأنت الذي لا تستطيع حتى... حين يكون عليك أن تجلب رجلاً حقيقياً إليّ... وأنت واقف فوق السرير تراقب ما يجري وتئنّ وتريّل مثل... لم تستطع أن تخدعني ولو مرة واحدة، هل استطعت؟ لا عجب أني نزفتُ، ونزفتُ..». مدّ يده إلى فمها، بقسوة، وراحت أظافره تنغرز في لحمها. وباليد الأخرى راح يقود السيارة بسرعة متهورة. حين مرّا من تحت الأضواء استطاعت

هي أن تراه يراقبها وهي تقاومه وتشد بعنف على يده، وتلوّح برأسها ذات اليمين وذات الشمال.

توقفت عن المقاومة، ولكنها ظلت تلوّح برأسها ذات اليمين وذات الشمال، وتشد بعنف على يده. كان أحد أصابعه مزيناً بخاتم ثقيل راح يبقي شفتيها مفتوحتين، بينما تنغرز أصابعه في لحمها. راح يقود السيارة باليد الأخرى ويسير بها دون نظام حتى أنه راح يضغط على السيارات الأخرى حتى تبطئ في سيرها وتتوقف جانباً وفراملها تزعق، بينما ينطلق هو بالسيارة عبر خطوط التقاطع. في إحدى المرات صرخ شرطيّ بهما، ولكنه لم يعره أي اهتمام ولا التفت إليه.

بدأت تمبل تئنّ وتنوح خلف يده، وتريّل على أصابعه. كان الخاتم أشبه بأداة من أدوات طبيب الأسنان، فهي لم تكن قادرة على فتح فمِها. وحين رفع يده عنها، استطاعت أن تشعر بآثار أصابعه باردة على فكها.

أنّت قائلة: «لقد أوجعتَ فمي». كانا يقتربان من ضواحي المدينة وعداد السرعة على الخمسين ميلاً بالساعة. كانت قبعته مائلة فوق الصورة الجانبية لوجهه الدقيق الملامح والأنف المعقوف. راحت تعالج فكها. بدأت المنازل تتراجع لتحل بعدها قطع من الأراضي المخصصة للبيع الواسعة والداكنة، كانت تلوح فيها لافتات السماسرة العقاريين على نحو صارم وشبحي، متميزة بخاصية الثقة البائسة. بينها كانت أنوار خفيضة وبعيدة معلقة في العتمة الباردة الكئيبة التي تطير فيها اليراعات. بدأت تبكي بهدوء، وهي تشعر بالأثر المهدئ لكأس الجين المزدوجة التي في أحشائها. قال بصوت صغير وضعيف مع الاستعطاف. عالجت فكها بأصابع تجريبية. وهي تضغط بقوة أكبر حتى أحست بوخزة. قالت بصوت مكتوم: «ستأسف على هذا حين سأحكي لـ (رِد). ألا تتمنى لو كنتَ (رِد)؟ ألا تتمنى لو كان هو من يراقبنا وليس أنت؟».

التفت السيارة نحو «الغروتو»، ومرت بجدار ذي ستارة انفجر منه صوت الموسيقى. قفزت هي من السيارة وهو يقفلل أبوابها وأسرعت تصعد الدرج. قالت: «لقد منحتك فرصتك. أنت جلبتني إلى هنا. لم أطلب منك القدوم».

ذهبت إلى دورة المياه. في المرآة فحصت وجهها. قالت: «اللعنة، لم تترك علامة حتى». قالت ذلك وهي تشد لحم وجهها ذات اليمين وذات الشمال. قالت وهي تحدق إلى صورتها في المرآة: «يا للقزم الصغير». أضافت جملة بذيئة قالتها بلسان ذرب وبأسلوب منفصل عن الواقع شبيه بسلوك الببغاوات. طلت شفتيها مجدداً. دخلت امرأة أخرى. فحصت كل واحدة منهما ملابس الأخرى بنظرات مختصرة، خفية، باردة ومطوقة.

كان بوباي واقفاً عند باب قاعة الرقص، ولفافة بين أصابعه.

قالت تمبل: «لقد منحتك فرصتك. لم يكن عليك المجيء إلى هنا».

قال: «أنا لا آخذ الفرص».

قالت تمبل: «لقد أخذت فرصة واحدة. هل أنت آسف؟ هه؟».

قال وهو يضع يده على ظهرها: «هيا بنا». كانت على وشك أن تخطو فوق عتبة الباب، حين التفتت ونظرت إليه، وعيونهما عند مستوى واحد تقريباً. ثم تحركت يدها نحو إبطه. أمسك برسغها. تحركت اليد الأخرى نحوه، فأمسك بتلك بيد ناعمة باردة. نظرا الواحد إلى الآخر عيناً بعين، وفمها فاغر والبقع الحمر تعتم ببطء على وجهها.

قالت: «منحتك فرصتك هناك في المدينة. وأنت اغتنمتها».

من خلفها كانت الموسيقى تعزف، حارة ورطبة وموحية؛ مترعة بحركة الأقدام، والهستيريا الشهوانية للعضلات تحمّي رائحة اللحم والدم. قالت وشفتاها لا تتحركان إلا بالكاد: «يا إلهي، يا إلهي. سأذهب. سأعود».

قال: « لقد أخذتِها. هيا تابعي».

في قبضته كانت يداها تقوم بحركات تجريبية للتخلّص موجهة إلى سترته ولكنها كانت أبعد عن أن تصلها أناملها. كان يدفعها ببطء نحو الباب، ورأسها مرتدة إلى الخلف. صرخت: «إياك أن تجرؤ! إياك أن..». أطبقت يده على مؤخر عنقها، وأصابعه أشبه بالفولاذ وخفيفة كالألومنيوم. استطاعت أن تسمع الفقرات وهي تحتك الواحدة بالأخرى احتكاكاً ضعيفاً، وصوته البارد والهادئ.

«هل لكِ؟».

أومأت برأسها. ثم بدأا يرقصان. كانت ما تزال تشعر بيده فوق عنقها. نظرت من فوق كتفه بسرعة في أرجاء الغرفة، ونظرتها تنتقل من وجه إلى آخر بين الراقصين. إلى ما وراء قوس منخفض، في غرفة أخرى، كانت مجموعة تقف من حول منضدة القمار. راحت تتثنى ذات اليمين وذات الشمال في محاولة لأن ترى وجوه المجموعة من الأشخاص.

ثم شاهدا الرجال الأربعة. كانوا يجلسون إلى منضدة قريبة من الباب. كان أحدهم يمضغ العلكة. بدا الجزء الأسفل من وجهه بكامله وكأنه مزود بأسنان ذات بياض وحجم لا يصدقان. حين رأتها أرجحت بوباي وظهره إليهم، وراحا كلاهما يتجهان نحو الباب مجدداً. ومرة أخرى طارت تحديقتها المنهكة من وجه إلى آخر ضمن الزحام.

حين نظرت مرة أخرى كان اثنان من الرجال قد نهضا. اقتربا منهما. جرت هي بوباي ووضعته في دربهما، وهي ما تزال مبقية ظهره إليهما. توقف الرجلان وحاولا أن يلتفا من ورائها. ومن جديد دفعت ببوباي نحو دربهما. كانت تحاول أن تقول شيئاً له، ولكن كانت تشعر بفمها على أنه بارد. كأنها تحاول أن تلتقط دبوساً بأصابع خدرة. وفجأة شعرت بنفسها تُزاح جانباً، وذراعا بوباي الصغيرتان خفيفتان وصلبتان كالألومنيوم. تعثرت نحو الخلف على الجدار وراقبت الرجلين يغادران. قالت: «سأعود. سأعود». ثم بدأت تضحك بحدّة.

قال بوباي: «اخرسي. هل ستخرسين؟».

قالت: «أحضر لي شراباً». تلمست يده. كان ساقاها باردتين أيضاً، وكأنهما ليستا ساقيها. جلسا إلى منضدة. على بعد منضدتين أخريين كان الرجل ما يزال يمضغ العلكة ومرفقاه على المنضدة. الرجل الرابع كان جالساً باستقامة وهو يدخن وسترته مزررة عبر صدره.

راقبت الأيدي: يد سمراء في كم أبيض، كم أبيض متسخ تحت ردن قذر، وهو يضع الزجاجات فوق المنضدة. كانت تحمل كأساً في يدها. شربت وهي تتجرع بسرعة؛ وبينما كانت تحمل الكأس بيدها رأت رِد يقف في الباب، في بزة رمادية وربطة عنق لها شكل الفراشة ومرقطة. بدا كفتى من فتيان الكلية، وراح يجول ببصره في أنحاء الغرفة حتى شاهدها. نظر إلى مؤخرة رأس بوباي، ثم إليها وهي جالسة والكأس في يدها. لم يتحرك الرجلان الجالسان إلى المنضدة الأخرى. كانت قادرة على أن ترى الحركة الضعيفة والمطردة لأذني أحدهما وهو يمضغ العلكة. قالت في أذن بوباي: «هيا بنا. إن كنت تريد أن ترقص، فلنرقص».

احتست كأساً أخرى. رقصا مجدداً. كان رِد قد اختفى. حين توقفت

الموسيقى، احتست كأساً أخرى. لم تنفعها، فقد بقيت حارة وقاسية في أحشائها. قالت: «هيا بنا. لا تتوقف عن الرقص». ولكنه رفض النهوض، ووقفت هي وخاطبته وعضلاتها تجفل وتنخع من الإرهاق والرعب. بدأت تسخر منه. «أتسمي نفسك رجلاً، رجل وقح وشرير، وتترك فتاة تجبرك على النهوض على قدميك لترقص معها؟» ثم بدأ وجهها يتضاءل، أصبح صغيراً ومضنى جدياً. تكلمت كما لو كانت طفلة، بيأس رزين. «بوب آي». جلس ويداه على المنضدة، يقلب لفافة تبغ، والكأس الثانية بثلجها الآخذ بالذوبان أمامه. وضعت يدها على كتفه. قالت: «يا بابا». تحركت بحيث لا يرى من هم في الغرفة ما يحدث، ومدت يدها نحو إبطه ولمست عقب المسدس المسطح. كان مرئياً هناك تحت النور، بين ذراعه وخاصرته. همست: «أعطني إياه. يا بابا، يا بابا». اتكأت بفخذها على كتفه، وهي تداعب ذراعه بخاصرتها. همست: «أعطني إياه يا بابا». وفجأة بدأت يدها تتسلل إلى أسفل جسده بحركة سريعة وخفية. ثم سحبتها بحركة تدل على رد الفعل المفاجئ. همست: «لقد نسيت. لم أقصد أن..».

هسهس أحد الرجلين الجالسين إلى المنضدة الأخرى مرة واحدة عبر أسنانه. قال بوباي: «اجلسي». جلست. ملأت كأسها، وهي تراقب يديها وهما تفعلان ذلك. ثم راحت تراقب ركن السترة الرمادية. كان أحد أزراره مكسوراً، كما فكرت بغباء. «لم يتحرك بوباي».

قال رِد: «أترقصين على هذه الموسيقى؟».

كان قد طأطأ برأسه ولكنه لم يكن ينظر إليها. كان ملتفتاً بعض الشيء ويواجه الرجلين الجالسين إلى المنضدة الأخرى. بوباي لم يتحرك حتى الآن. مزق بدقة عقب لفافته فخرج منه التبغ. ثم وضعها في فمه.

قالت تمبل عبر شفتيها الباردتين: «لن أرقص».

قال رِد بصوت خفيض دون أن يتحرك: «لن ترقصي؟ كيف هو الفتى؟».

قال بوباي: «في حال حسنة». راقبته تمبل وهو يشعل عود ثقاب وشاهدت اللهب منحرفاً عبر زجاج الكأس. قال بوباي: «لقد شربتِ بما فيه الكفاية». مد يده واختطف الكأس من شفتيها. راقبته وهو يفرغها في وعاء الثلج. انطلقت الموسيقى مجدداً. جلست وراحت تحدق بهدوء في أرجاء الغرفة. بدأ صوت يئزّ بضعف في أسماعها، ثم هاهو بوباي يمسك بمعصمها بقوة، ويهزه، ووجدت أن فمها كان فاغراً وأنها كانت تصدر به ضجيجاً من نوع ما. قال: «اخرسي الآن. يمكنك شرب كأس واحدة أخرى».

قالت: «لم أشعر أني شربت شيئاً على الإطلاق». أعطاها الكأس. راحت تشرب.

حين وضعت الكأس على المنضدة، أدركت أنها ثملة. وقد صدقت أنها كانت ثملة منذ بعض الوقت. فكرت أنها ربما أغمي عليها وأن ذلك سبق وحدث. استطاعت أن تسمع نفسها وهي تقول إنها تتمنى لو أنها كذلك. ثم صدقت أنه جرى وغلب عليها شعور بالحرمان والرغبة الجسدية. فكرت: لن أكون ثانية، وجلست في حالة إغماء طاف من الحزن المشوب بالألم والتوق الشهواني، مفكرة بجسد رِد، وهي تراقب يدها تمسك بالزجاجة الفارغة فوق الكأس.

قال بوباي: «لقد شربتها كلها. انهضي الآن. ارقصي حتى تتخلصي من الشراب كله». رقصا مجدداً. كانت تتحرك بتصلب وبهمة فاترة، وعيناها مفتوحتان ولكنهما لا تريان، وجسدها يتابع الموسيقى دون أن

تسمع اللحن لفترة من الزمن. ثم أدركت أن الأوركسترا كانت تعزف اللحن نفسه الذي كانت تعزفه حين كان رِد يطلبها للرقص. ولو كان الأمر كذلك، لما كان ممكناً له أن يكون قد حدث بعد. شعرت بجيشان عاصف من الراحة. لم يكن الوقت قد تأخر كثيراً: كان رِد ما يزال حياً؛ شعرت بموجات ارتعاش من الرغبة الجسدية وهي تنتابها، مما استنزف اللون من فمها، وجعل مقلتي عينيها تتراجعان في جمجمتها في غشية مرتعدة.

كانا عند منضدة القمار. كانت تستطيع سماع نفسها وهي تصرخ على النرد. كانت تدحرجه، وتربح. كانت الفيشات تتراكم أمامها بينما راح بوباي يسحبها، ويعلّمها ما تفعله، ويصحح لها بصوته الناعم المشاكس. وقف إلى جانبها، وبدا أقصر منها.

كان يمسك بكوب النرد هو نفسه. وقفت إلى القرب منه بمكر، وهي تشعر بالرغبة تطغى عليها في موجة إثر أخرى، متشابكة مع الموسيقى ورائحة لحمها. أصبحت هادئة. وراحت تتحرك مبتعدة ببوصات صغيرة جداً حتى انزلق شخص آخر وحل مكانها. ثم بدأت تسير بسرعة وحذر عبر الأرضية نحو الباب، والراقصون، والموسيقى يدوّمون من حولها في موجة متألقة متعددة. كانت المنضدة التي جلس إليها الرجلان فارغة، ولكنها لم تنظر إليها. دخلت الممر. قابلها نادل.

قالت: «غرفة. أسرع».

كانت الغرفة تحوي منضدة وأربعة كراس. أضاء النادل النور ووقف في الباب. لوحت له بيدها، فخرج. استندت على المنضدة بذراعيها اللتين استرجعتا قواهما، وراحت تراقب الباب، حتى دخل رِد.

اقترب منها. لم تتحرك. بدأت عيناها تصبحان أكثر فأكثر قتامة،

وترتفعان في جمجمتها فوق هلال من البياض، دون تركيز، وبالقسوة الفارغة لعيني تمثال. بدأت تقول آه...آه...آه...آه...آه بصوت متلاش، وجسدها يتقوس ببطء نحو الخلف وكأنها تواجه تعذيباً شديداً. حين لمسها، انتفضت كقوس، ورمت بنفسها عليه، وفمها فاغر وقبيح كفم سمكة تحتضر وهي تتلوى بصلبها عليه.

حرّر وجهه بقوة. وبينما كان ردفاها يحتكان به بحركة دائرية، وفمها فاغر في بروز متوتر، شاحب كأنه خال من الدماء، بدأت تتكلم. «فلنسرع. لنذهب إلى أي مكان. لقد هجرته. قلت له ذلك. لا يقع اللوم عليّ. هل يقع عليّ أنا؟ أنت لا تحتاج إلى قبعتك، ولا أنا أيضاً. لقد جاء إلى هنا ليقتلك ولكني قلت له إني منحته فرصته. لا يقع اللوم عليّ أنا. والآن سنكون معاً أنا وأنت فحسب دون أن يكون هو موجوداً يراقبنا. هيا، ما الذي تنتظره؟» اقتربت منه وفمها متوتر، وشدت رأسه إلى أسفل وهي تئنّ وتعول. حرر وجهه منها. «قلت له ذلك. قلت إنه لو جلبني إلى هنا سيحدث ذلك. قلت له إني منحته فرصته. والآن ها هو قد جلبهم إلى هنا ليقتلك. ولكنك لست خائفاً. هل أنت خائف؟».

قال: «هل كنت تعرفين ذلك حين هاتفتني؟».

«ماذا؟ قال لي ألا أراك مجدداً. قال إنه سيقتلك. ولكنه جعل شخصاً يلاحقني حين استعملت الهاتف. لقد رأيته. ولكنك لست خائفاً. إنه ليس بالرجل حتى، ولكنك رجل. أنت رجل. أنت رجل». بدأت تتلوى على جسده، وتشده من رأسه، وتهمهم له بنعوت وصفات من العالم السفلي بلهجة ببغائية، واللعاب يجري شاحباً على شفتيها الشاحبتين الخاليتين من الدم. «هل أنت خائف؟».

«من ابن الحرام المغفل ذاك؟» رفعها والتفت بحيث يواجه الباب، وحرر يده اليسرى. لم يبد عليها أنها أدركت أنه تحرك.

«رجاء. رجاء. رجاء. لا تجعلني أنتظر. أنا أشتعل».

«حسناً. عودي وانتظري حتى أعطيك الإشارة. هل لك أن تعودي؟».

«أستطيع انتظارك. عليك أن تفعل ذلك. أنا على نار. صدقني». التصقت به. وسارا معا عبر الغرفة وهما متلاصقان نحو الباب، وهو يمسك بها عن جانبه الأيمن وهي في غشية شهوانية غير مدركة أنهما يتحركان، وهي تلتصق به وكأنها تحاول أن تلمسه بكل سطح جسدها مرة واحدة. حرر نفسه ودفعها نحو الممر.

قال: «هيا اذهبي. سأكون هناك خلال دقيقة».

«هل سيطول غيابك؟ أنا على نار. أنا أحتضر. صدقني».

«كلا، لن أطيل غيابي.. اذهبي الآن».

كانت الموسيقى تعزف. سارت في الممر، وهي تترنح قليلاً. ظنت أنها كانت تستند إلى الجدار، حين وجدت أنها كانت ترقص مجدداً مع رجلين في آن معاً. ثم وجدت أنها كانت تتحرك نحو الباب بين الرجل الذي يمضغ العلكة والآخر ذي السترة المزررة. حاولت أن تتوقف، ولكنهما كانا يمسكان بها من تحت ذراعيها. فتحت فمها لتصرخ، ونظرت نظرة أخيرة يائسة نحو الغرفة المدوّمة.

كان رِد عند منضدة القمار. رأت رأسه تستدير وفنجان النرد في يده المرفوعة. وبها حياها تحية قصيرة ومرحة. راقبها وهي تختفي عبر الباب

بين الرجلين. ثم نظر في أرجاء الغرفة بإيجاز. كان وجهه جريئاً وهادئاً، ولكن كان هناك خطان أبيضان عند أسفل منخريه وجبهته رطبة. هز الفنجان مقعقعاً به ورمى بالنرد بثبات.

قال المشرف على اللعبة: «أحد عشر».

قال رِد: «أوقفها. سأتخلى عن دوري مليون مرة هذه الليلة».

ساعدا تمبل حتى وصلت إلى السيارة وركبتها. الرجل المرتدي للسترة المزررة جلس خلف المقود. وحيث كان الدرب يتصل بالممر المؤدي إلى الطريق العامة، كانت سيارة فخمة ذات سقف قابل للطيّ متوقفة. حين مروا بها رأت تمبل الصورة الجانبية الرقيقة والمعقوفة لبوباي تحت القبعة المائلة وهو يشعل لفافة. توهج عود الثقاب نحو الخارج كنجم محتضر في لوحة منمنمة، ولكنها اختفت مع الصورة الجانبية مع اندفاع السيارة السريع خلال مرورها.

الفصل الخامس والعشرون

كانت المناضد قد نُقلت إلى جانب واحد من قاعة الرقص. على كل منضدة كان غطاء قماشي أسود اللون. الستائر ما تزال مغلقة؛ ونور بلون سمك السلمون يسقط عبرها. كان التابوت قد وضع تحت منصة الأوركسترا بالضبط. كان من النوع غالي الثمن: أسود اللون مع تجهيزات فضية، والحامل قد اختفى تحت كومة كبيرة من الورود. بدت الورود، من أكاليل وصلبان وأشكال أخرى من أشكال الموت الاحتفالي، كأنها تقحم موجة رمزية فوق التابوت وعلى المنصة والبيانو. كانت رائحة الورود تسبب الضيق بسرعة.

راح مالك قاعة الرقص يتحرك بين المناضد متحدثاً إلى الواصلين وهم يدخلون ويجلسون. كان قد سبق للنُدل من الزنوج، المرتدين للقمصان السوداء تحت ستراتهم المنشاة، أن بدؤوا يتحركون داخلين وخارجين بكؤوس وزجاجات جعة الزنجبيل. كانوا يتحركون بخضوع مختال ولائق. المشهد الآن مترع بالحياة، ويسوده جو من السكوت والرهبة مع القليل من الحمى.

كان القوس المؤدي إلى غرفة النرد مغطى بستارة سوداء. وكان غطاء أسود قد وضع فوق منضدة القمار، وفوقه كان الدفق من أصناف الورود وأشكالها يتراكم. راح الناس يدخلون باضطراد، الرجال في بزات سوداء وانضباط لائق، وآخرون في ألوان الربيع الخفيفة الزاهية،

مما زاد من جوّ التناقض الرهيب. ارتدت النساء، وخاصة الشابات منهن، ملابس زاهية الألوان أيضاً وقبعات وأوشحة. أما الأكبر سناً فارتدين ثياباً بالألوان الرمادية والسوداء والكحلية الوقورة، ويتألقن بالألماس: نساء رصينات، أشبه بربات البيوت في نزهة عصر يوم الأحد.

بدأت الغرفة تطنّ بأحاديث حادة ومكتومة. راح الندل يتحركون هنا وهناك يحملون صينيات عالية متقلقلة بينما تشبه ستراتهم البيضاء وقمصانهم السوداء الصور الفوتوغرافية السلبية. راح مالك القاعة ينتقل من منضدة إلى منضدة برأسه الصلعاء وماسة كبيرة مثبتة في ربطة عنقه السوداء، يتبعه حارس النادي، وهو رجل ضخم قوي العضلات ذو رأس أشبه برصاصة ويبدو كأنه سينفجر من سترته الرسمية من الخلف كما الشرنقة.

في غرفة طعام خصوصية، وعلى منضدة مغطاة بغطاء أسود، كان وعاء ضخم من شراب البنتش تطفو فيه قطع من الثلج وشرائح الفاكهة. إلى القرب منه اتكأ رجل بدين في بزة خضراء عديمة الشكل، برز من كمّيها طرفا الردن القذران على يدين بأظافر سوداء. كانت ياقته المتسخة ذاوية فوق عنقه في طيات مترهلة، وقد عقدت بربطة عنق ملطخة بالزيت والشحم وقد ثبت عليها حجر ياقوت مزيف. كان وجهه يومض من الرطوبة وكان يناشد الحشد من حول الوعاء بصوت أجش:

«هيا أيها الناس، إنه على نفقة (دجين). لن يكلفكم شيئاً. تقدموا واشربوا. لم يسبق أن كان هناك فتى مثله». كانوا يشربون ويتراجعون، ويحل مكانهم آخرون بأكواب ممدودة. بين الحين والآخر كان نادل يدخل حاملاً الثلج والفاكهة ويسقطها في الوعاء. ومن حقيبة ملابس تحت المنضدة كان دجين يخرج زجاجات جديدة ويصبها في الوعاء؛

ثم راح يستأنف مونولوجه الملاّكي المناشد المتعرق، وهو يمسح وجهه بكمّه. «هيا أيها الناس، إنه على نفقة دجين. لست سوى صانع مسكرات غير قانونية، ولكن لم يسبق أن كان له صديق أفضل مني. تقدموا واشربوا أيها الناس. هناك المزيد من حيث أتى هذا».

من قاعة الرقص وصل صوت موسيقى. دخل أشخاص ووجدوا مقاعد. على المنصة كان أفراد الفرقة الموسيقية القادمة من فندق في المدينة يرتدون سترات رسمية. كان المالك وشخص آخر يتشاوران مع قائد الفرقة. قال الرجل الآخر: «دعهم يعزفوا الجاز. ما كان هناك شخص يحب الرقص كما كان رِد».

قال المالك: «لا، لا. ما أن يسكرهم دجين بالويسكي المجاني حتى يبدؤوا بالرقص. سيبدو الأمر سيئاً».

قال قائد الفرقة: «ما رأيكم بـ الدانوب الأزرق؟» The Blue Danube.

قال المالك: «لا، لا، لا تعزف أي «بلوز» Blues [1]، أرجوك. هناك رجل ميت في ذلك التابوت».

قال قائد الفرقة: «ولكنها ليست من البلوز».

سأل الشخص الآخر: «ما هي إذاً؟».

«إنها فالس، لشتراوس».

قال الشخص الآخر: «ماذا؟ ما هذا بحق الجحيم؟ رِد كان أمريكياً.

١– بلوز: موسيقى ابتدعها الزنوج الأمريكيون في الولايات الجنوبية في نهاية القرن التاسع عشر.

قد لا تكون أنت كذلك، وكنه كان أمريكياً. ألا تعرف أي موسيقى أمريكية؟ اعزف «لا أقدر أن أعطيك أي شيء سوى الحب». لقد أحب رِد هذه الأغنية على الدوام».

قال المالك: «واجعلهم جميعاً يرقصون؟» نظر إلى المنضدة حيث كانت النساء قد بدأن يتحدثن بأصوات حادة قليلاً. الأفضل أن تبدأ بـ «أقرب إليك يا ربي» واجعلهم يصحون بعض الشيء. لقد قلت لدجين إن ذلك البنتش خطر، خاصة إذا بدأ بتوزيعه في وقت مبكر جداً. اقتراحي كان أن ننتظر حتى نبدأ بالعودة إلى المدينة. ولكني عرفت شخصاً سيحول الأمر إلى كرنفال. الأفضل البدء بالرزين والاستمرار على ذلك المنوال حتى أعطيك الإشارة».

قال الشخص الآخر: «ما كان رِد ليحبها رزينة. وأنت تعرف ذلك».

قال المالك: «دعه يذهب إلى مكان آخر إذاً. أنا فعلت هذا كنوع من التسوية. أنا لا أدير بهواً جنائزياً».

عزفت الفرقة «أقرب إليك يا ربي». صمت الجمهور. دخلت امرأة ترتدي ثوباً أحمر من الباب مترنحة. قالت: «عجباً، ووداعاً يا رِد. سيصل إلى الجحيم قبل أن أستطيع أنا الوصول إلى «ليتل روك»».

حاولت أصوات كثيرة أن تخرسها. سقطت في أحد المقاعد جالسة. وصل دجين إلى الباب ووقف هناك حتى توقفت الموسيقى.

صاح قائلاً وهو يلوح بذراعيه بإيماءة بدينة كاسحة: «هيا بنا أيها الناس. تعالوا واشربوا. إنها على نفقة دجين. لا أريد حنجرة أو عيناً جافة في هذا المكان خلال عشر دقائق». تحرك أولئك الذين كانوا في

المؤخرة نحو الباب. قفز المالك واقفاً على قدميه وأشار بيده إلى الفرقة الموسيقية. نهض عازف البوق وعزف مقطوعة «في تلك الجنة من الراحة» منفرداً، ولكن الحشد الذي في مؤخرة الغرفة بدأ يتضاءل عدده متجهاً عبر الباب إلى حيث كان دجين واقفاً يلوح بذراعيه. كانت امرأتان كهلتان تبكيان بهدوء تحت قبعتيهما المزينتين بأزهار صناعية.

تدفقوا واحتشدوا بصخب من حول الوعاء الذي أخذ الشراب فيه بالتناقص. من قاعة الرقص وصل الدويّ القوي لعزف البوق. شق شابان في ثياب متسخة طريقهما نحو المنضدة، وهما يصرخان: «افتحوا ممراً، افتحوا ممراً» بصوت رتيب، ويحملان حقائب للملابس. فتحا الحقائب ووضعا زجاجات على المنضدة، بينما راح دجين وهو يبكي علناً الآن، يفتحها ويصبها في الوعاء. صاح بصوت أجش وهو يمسح وجهه بكمه: «هيا أيها الناس، لقد أحببتُه أكثر مما كنت سأحب ابناً لي».

شق نادل طريقه نحو المنضدة بوعاء من الثلج والفاكهة وأراد أن يسكبهما في الوعاء. قال دجين: «ما الذي تفعله بحق الجحيم؟ هل تريد أن تضع هذا الاشياء الكريهة هنا؟ ابتعد من هنا بحق الجحيم».

صاحوا: «رااااااييييل» وهم يمسكون بأقداحهم، فغرق الجميع باستثناء من مثّل فعل الغرق إيمائياً، حين أسقط دجين وعاء الفاكهة والثلج من يدي النادل، وراح يصب الشراب المسكر في الوعاء، فنثره فوق في الأيدي والأقداح الممدودة وفوقها. راح الشابان يفتحان الزجاجات بجنون.

وكأنما تم دفعه إلى هناك بالدويّ النحاسي للموسيقى ظهر المالك في الباب، بوجه منهك، وهو يلوح بذراعيه، ويول: «هيا أيها الناس. فلننهِ البرنامج الموسيقي، فهو يكلفنا مالاً».

صرخوا: «إلى الجحيم به».

«من الذي يدفع المال؟»).

«من يكترث؟»).

«من الذي يدفع المال؟»).

«من يضّنّ به؟ سأدفعه أنا؟ وحق الرب، سأشتري له جنازتين؟»).

صاح المالك: «أيها الناس! أيها الناس! هل تدركون أن هناك تابوتاً في تلك الغرفة؟»).

«من الذي يدفع المال؟»).

قال دجين: «بيرة؟» قال بصوت حزين: «بيرة؟ هل يحاول أحدكم هنا أن يهينني بـ ..».

«إنه يضنّ على رِد بالمال».

«من هو؟»

«(دجو) هو من يضن به. ابن القحبة الرخيص».

«هل هناك شخص يحاول أن يهينني..».

«فلننقل الجنازة إذاً. ليس هذا هو المكان الوحيد في المدينة».

«فلننقل دجو».

«ضع ابن القحبة في تابوت. فلتكن لدينا جنازتان».

«بيرة؟ بيرة؟ هل هناك شخص ما..».

«ضع ابن القحبة في تابوت. ولنر كيف سيحب الأمر».

«ضع ابن القحبة في تابوت». هكذا زعقت المرأة التي ترتدي الثوب الأحمر. فاندفعوا باتجاه الباب، حيث وقف المالك يلوّح بيده من فوق رأسه، وصوته يزعق ضمن الضجيج الهائل، قبل أن يستدير ويهرب.

في الغرفة الرئيسية كان رباعيّ من الذكور استأجر من مسرح للمنوّعات يغنّي. كانوا يغنون أغاني أمومية في تناغم وثيق. كما غنوا أغنية «ابني الفتى». كان البكاء شاملاً بين النساء العجائز. وكان الندل يحملون الآن أكواب البنتش لهنّ وهن جالسات يحملن الأكواب في أيديهن السمينة المزينة بالخواتم ويبكين.

عزفت الفرقة الموسيقية مرة أخرى. دخلت المرأة المرتدية للثوب الأحمر إلى الغرفة مترنحة. صرخت: «هيا يا دجو، افتتح اللعبة. ارفع تلك الجثة اللعينة من هنا وافتتح اللعبة. حاول أحد الرجال أن يمسك بها، فانقضت عليه بسيل من الشتائم البذيئة، واتجهت نحو منضدة القمار ورمت بإكليل من الورد على الأرضية. اندفع المالك نحوها، وخلفه حارس النادي. أمسك المالك بالمرأة وهي ترفع إكليلاً آخر. تدخل الرجل الذي حاول أن يمسك بها من قبل، والمرأة تشتم بصوت حاد وتضربهما بالإكليل دون تحيّز. أمسك حارس النادي بذراع الرجل، ولكن هذا استدار وضرب الحارس الذي ردّ عليه بضربة ألقت به أرضاً على مسافة تعادل نصف الغرفة. دخل رجال ثلاثة آخرون. نهض الرابع من على الأرض وانقض أربعتهم على حارس النادي.

أوقع أوّلهم واندفع وتقافز بخفة لا تصدق في الغرفة الرئيسية. كانت الفرقة الموسيقية تعزف. وسرعان ما غرقت في ضوضاء مفاجئة من الكراسي والصرخات. اندفع الحارس مجدداً وواجه انقضاض الرجال الأربعة. تشابكوا؛ طار رجل ثان وانزلق على الأرضية على ظهره؛ قفز الحارس حراً. ثم اندفع وهاجمهم بانقضاض مدوّم فسقطوا فوق

التابوت بقوة. كانت الفرقة الموسيقية قد توقفت عن العزف، وراح أعضاؤها يصعدون فوق كراسيهم ومعهم آلاتهم. طارت هدايا أكاليل الورد. تأرجح التابوت. قال أحد الأصوات: «أمسكوا به!» قفزوا إلى الأمام ولكن التابوت وقع بثقل على الأرض وانفتح. سقط الجثمان ببطء ورزانة خارج التابوت واستقر أخيراً ووجهه في منتصف إكليل.

صاح المالك وهو يلوح بيديه: «اعزفوا شيئاً ما! اعزفوا! اعزفوا!»

حين رفعوا الجثة ارتفع معها الإكليل وقد علق بها بسبب طرف سلك مخفي انغرز في وجنتها. كان قد ألبس قبعة كشفت حين سقطت ثقباً أزرق صغيراً في منتصف جبهته. كانت قد سُدّت بعناية بالشمع وطليت، ولكن الشمع كان قد خرج وضاع. لم يستطيعوا إيجاده، ولكن حين فكوا الإبزيم في الذروة، تمكنوا من شد القبعة حتى وصلت إلى عينيه.

***

حين اقترب الموكب الجنائزي من وسط المدينة، انضم إليه المزيد من السيارات. كانت السيارة الحاملة للتابوت متبوعة بست سيارات من طراز «باكارد» السياحية وهي مكشوفة، يقودها سائقون بأزياء خاصة وهي مليئة بالورود. بدت السيارات متشابهة تماماً وكانت من النوع الذي يُستأجر بالساعة من قبل وكالات الطبقة الأعلى. وبعدها كان شريط من السيارات غير المميزة كالتاكسيات والسيارات المكشوفة والسيارات العادية التي ازداد عددها مع تحرك الموكب ببطء عبر المنطقة المحددة حيث أطلت وجوه من تحت ستائر مسدلة نحو الشريان الرئيسي الذي يؤدي إلى خارج المدينة باتجاه المقبرة.

في الجادة، زاد الموكب الجنائزي من سرعته، وراح الموكب يتطاول

في الفترات التي تزيد فيها سرعته. الآن هاهي السيارات والتاكسيات قد بدأت بترك الموكب. عند كل تقاطع كانت تنعطف من هذه الطريق أو تلك، حتى لم يتبق أخيراً سوى السيارة الحاملة للنعش والسيارات الباكارد الست، وكل واحدة لا تحمل سوى راكب واحد هو السائق صاحب الزي الخاص. كان الشارع عريضاً وأصبح السير فيه الآن قليلاً، مع خط أبيض في منتصفه تلاشى فيما بعد حين وصل الموكب إلى الفراغ الإسفلتي الناعم. سرعان ما كانت السيارة الحاملة للنعش تسير بسرعة أربعين ميلاً بالساعة ثم خمسة أربعين فخمسين.

توقفت إحدى سيارات التاكسي عند بوابة الآنسة ريبا. كانت خارج المنزل وهي تتبع امرأة نحيلة في ملابس وقورة صارمة ونظارات أنفية ذهبية، وامرأة قصيرة وممتلئة الجسم ترتدي قبعة ذات ريشة، ووجهها مختف خلف منديل، وصبياً في سن الخامسة أو السادسة ذا رأس لها شكل الرصاصة. استمرت المرأة ذات المنديل في البكاء مع شهقات وهم يسيرون نحو الممشى ويدخلون من الباب ذي الشعرية. إلى ما وراء باب المنزل كان الكلبان يعويان بصوت عال. حين فتحت ميني الباب راحا يتحركان من حول قدمي الآنسة ريبا. رفستهما جانباً. ومن جديد هاجماها بتوق مع الرغبة بالعضّ؛ فرمت بهما مرة أخرى بعيداً باتجاه الجدار فارتطما به دون صوت.

قالت: «هيا ادخلن، ادخلن»، ويدها على صدرها. ما أن أصبحن في الداخل حتى بدأت المرأة ذات المنديل بالعويل.

قالت وهي تعول: «ألا يبدو وسيماً؟ ألا يبدو وسيماً؟».

قالت الآنسة ريبا: «هيا، هيا»، وهي تقودهم إلى غرفتها. «ادخلا واشربا البيرة وستشعران بالتحسن. يا ميني!» دخلوا إلى الغرفة ذات

خزانة الأدراج المزينة والصندوق الفولاذي والستارة والصورة المغطاة. قالت لاهثة: «اجلسوا، اجلسوا»، وهي تشير إلى الكراسي. جلست على أحد الكراسي وانحنت بشكل مروّع نحو قدميها.

قالت المرأة الباكية وهي تجفف عينيها: «أنكل بَدْ يا حبيبي، تعال وفكّ شريطي حذاء الآنسة ريبا».

تحسس الصبي ثم خلع حذاء الآنسة ريبا. قالت الآنسة ريبا: «ويا ليتك تحضر لي ذلك الخف المنزلي من تحت السرير هناك يا حبيبي». أحضر الصبي الخف. دخلت ميني يتبعها الكلبان. اندفعا نحو الآنسة ريبا وبدأا ينهشان الحذاء الذي خلعته الآنسة ريبا للتو.

قال الصبي: «ابتعدا»، وهو يضرب أحدهما بيده. راحت رأس الكلب تعض ما حولها، وأسنانه تطقطق، وعيناه نصف المخفيتين لامعتان وشريرتان. ارتد الصبي إلى الخلف. قال: «لقد عضضتني يا ابن القحبة».

قالت المرأة البدينة ووجهها المستدير صارم في طياته السمينة والملطخ بالدموع قد التفت إلى الصبي في دهشة ملؤها الصدمة، والريشات تنوس بتقلقل من فوقه: «أنكل بَدا!» كانت رأس أنكل بد مستديرة تماماً، وأنفه مغطى بالنمش مثل رُشاش من مطر الصيف ذي النقاط الكبيرة على رصيف جاف. أما المرأة الأخرى فجلست منتصبة بأناقة، في نظاراتها الأنفية الذهبية ذات السلسلة الذهبية وشعرها ذي اللون الرمادي الحديدي المرتب. بدت كمعلمة مدرسة. قالت المرأة البدينة: «يا له من نموذج مثالي! كيف يمكن له أن يتعلم مثل هذه الكلمات في مزرعة في أركنسو، لا أعرف».

قالت الآنسة ريبا: «سيتعلمون الكلمات الحقيرة في أي مكان». أحضرت ميني صينية عليها ثلاثة أقداح مندّاة. راقبهن أنكل بد بعينين

مدورتين بلون القنطريون العنبري وهن يأخذن الأقداح كلاً بدورها. بدأت المرأة البدينة بالبكاء مجدداً. أعولت: «بدا وسيماً جداً!»

قالت الآنسة ريبا: «علينا جميعاً أن نذوق مرارته. حسناً، فليكن يوماً طويلاً!» ورفعت قدحها. رحن يحتسين الشراب وهن ينحنين الواحدة للأخرى. جففت المرأة البدينة عينيها. كما مسحت الضيفتان شفاههما برزانة صارمة. سعلت المرأة النحيلة برقة جانباً خلف يدها.

قالت: «يا لها من بيرة جيدة».

قالت المرأة البدينة: «أليست كذلك؟ أنا أقول دائماً إن زيارة الآنسة هي المتعة الأعظم».

رحن يتحدثن بلباقة بجمل رزينة نصف مكتملة، مع شهقات صغيرة تدل على الموافقة. كان الصبي قد انتقل دون هدف نحو النافذة وهو يحدق من تحت الستارة المرفوعة.

قالت الآنسة ريبا: «كم سيمكث معك يا آنسة ميرتل؟».

قالت المرأة البدينة: «حتى يوم السبت فحسب، ثم سيعود إلى البيت. سيكون له في البقاء معي لأسبوع أو اثنين نوع من التغيير الصغير واللطيف. وأنا أستمتع بوجوده».

قالت المرأة النحيلة: «الأطفال يمنحون راحة كبيرة للشخص».

قالت الآنسة ميرتل: «أجل، هل ما يزال الشابان اللطيفان يسكنان لديك يا آنسة ريبا؟».

قالت الآنسة ريبا: «أجل. أعتقد أن عليّ التخلص منهما على أي حال. لستُ طيبة القلب على نحو خاص، ولكن لا فائدة من مساعدة

الشبان على تعلم حقارة هذا العالم حتى يضطروا إلى ذلك على أي حال. لقد سبق واضطررت إلى منع الفتيات من التجول في أرجاء المنزل دون ملابس تستر أجسادهن، وهن لا يحببن ذلك».

رحن يشربن باحتشام، وهن يحملن الأقداح برقة، ماعدا الآنسة ريبا التي حملت قدحها كأنه سلاح، ويدها الأخرى ضائعة في صدرها. وضعت قدحا على المنضدة فارغاً. قالت: «أنا عطشى جداً، على ما يبدو. ألن تشربا أيتها السيدتان المزيد؟» همهمتا على نحو رسمي. صاحت الآنسة ريبا: «يا ميني».

وصلت ميني وملأت الأقداح مجدداً. قالت الآنسة ميرتل: «أنا خجلة حقاً. ولكن الآنسة ريبا لديها بيرة جيدة جداً. وعلى أي حال، فنحن جميعاً مررنا بفترة عصر مزعجة هذا اليوم».

قالت الآنسة ريبا: «أنا مندهشة فحسب من أنها لم تعد مزعجة إطلاقاً ودجين يوزع كل ذلك الشراب مجاناً».

قالت المرأة النحيلة: «لا شك أن الأمر كلف الكثير من المال».

قالت الآنسة ريبا: «أصدقك. ومن الذي استفاد من هذا الأمر كله؟ هيا وقولا لي. باستثناء أنه ملأ المكان بأشخاص لا ينفقون سنتاً واحداً». كانت قد وضعت قدحها على المنضدة قرب الكرسي. وفجأة التفتت برأسها بحدة ونظرت إليه. كان أنكل بد خلف كرسيها الآن ويتكئ على المنضدة. قالت: «أنت لم تشرب من بيرتي يا ولد، أليس كذلك؟».

قالت الآنسة ميرتل: «أنت يا أنكل بد، ألا تخجل من نفسك؟ أصرح بأني ما عدت أجرؤ على اصطحابه إلى أي مكان. لم يسبق أن

شاهدت طوال حياتي صبياً يشرب البيرة اختلاساً شأنه هو. تعال إلى هنا الآن والعب. هيا».

قال أنكل بد: «نعم يا سيدتي». تحرك ولكن دون اتجاه معين. شربت الآنسة ريبا وأعادت القدح إلى المنضدة ثم نهضت.

قالت: «بما أننا مرهقات جميعاً، ربما أستطيع أن أطلب منكما أيتها السيدتان أن تسمحا لي بدعوتكما إلى جرعة من الجين».

قالت الآنسة ميرتل: «لا، حقاً».

قالت المرأة النحيلة: «الآنسة ريبا هي المضيفة الكاملة. كم مرة سمعتني وأنا أقول ذلك يا آنسة ميرتل؟».

قالت الآنسة ميرتل: «ما كنت لأتجرأ على قول ذلك يا عزيزتي».

اختفت الآنسة ريبا خلف الستارة.

قالت الآنسة ميرتل: «هل سبق أن كان الجو دافئاً إلى هذا الحد في حزيران (يونيو)، يا آنسة لورين؟

قالت المرأة النحيلة: «لم يسبق له قط». بدأ وجه الآنسة ميرتل يتغضن مجدداً. وضعت قدحها على المنضدة وبدأت تتلمس بحثاً عن منديلها.

قالت: «ها هو البكاء يغالبني على هذا النحو، وهم يغنون أغنية «ابني الفتى» وغيرها. لقد بدا وسيماً جداً». راحت تبكي.

قالت الآنسة لورين: «هيا، هيا. احتسي القليل من البيرة. ستشعرين بتحسن، يا آنسة ميرتل، مجدداً». رفعت صوتها.

قالت الآنسة ميرتل: «لديّ قلب رقيق جداً». تنشقت بصوت

مسموع من خلف منديلها، وهي تتلمس قدحها. تلمست لبرهة، ثم لمس القدح يدها. رفعت نظرها بسرعة. قالت: «أهو أنت يا أنكل بد؟ ألم أقل لك أن تخرج من هناك وتلعب؟ هل تصدق هذا؟ في عصر يوم مضى حين غادرنا هذا المكان، كنت شديدة الخزي حتى أني لم أعرف ما أفعله. كنت خجلة جداً من أُرى في الشارع مع صبي سكران مثلك».

برزت الآنسة ريبا من خلف الستارة تحمل ثلاث كؤوس من الجين. «هذا سيدفئ قلوبنا ويعزينا. نحن جالسات هنا كثلاث قطط مريضة ومسنّة». انحنين على نحو رسمي وشربن، وهن يربتن على شفاههن. ثم بدأن الكلام. كن يتحدثن جميعاً في آن واحد، ومن جديد بجمل نصف مكتملة، ولكن دون توقف للاتفاق أو التأكيد.

قالت الآنسة ميرتل: «إن الأمر يتعلق بنا نحن النسوة. لا يبدو أن الرجال يستطيعون أن يأخذونا أو يتركونا على ما نحن فيه. إنهم يجعلوننا ما نحن عليه، ثم يتوقعون من أن نكون مختلفات. يتوقعون منا ألا ننظر إلى أي رجل آخر، بينما يأتون هم ويذهبون كما يشاءون».

«المرأة التي تريد أن تعبث مع أكثر من رجل واحد في آن معاً حمقاء».

قالت الآنسة ريبا: «الرجل هم المشكلة، فلماذا تريدين أن تضاعفي مشكلتك؟ والمرأة التي لا تستطيع أن تبقى مخلصة لرجل جيد حين تحصل عليه، رجل كريم طيب القلب لا يسبب لها أي قلق ولو لساعة واحدة أو يتلفظ بكلمة قاسية..». نظرت إليهما، وعيناها قد بدأتا تمتلئان بتعبير حزين لا يمكن النطق به، يدل على يأس مرتبك وصبور.

قالت الآنسة ميرتل: «هيا هيا الآن». انحنت نحو الأمام وربتت على اليد الضخمة للآنسة ريبا. أصدرت الآنسة لورين صوتاً ضعيفاً أشبه بالقرق بلسانها. «لقد جلبت الحزن لنفسك».

قالت الآنسة ريبا: «لقد كان رجلاً طيباً جداً. كنا أشبه بزوج من طيور الحمام، أحد عشر عاماً ونحن أشبه بزوج من طيور الحمام».

قالت الآنسة ميرتل: «هيا يا عزيزتي. لا عليك».

قالت الآنسة ريبا: «الأمر وما فيه أن الأمر يطغى عليّ وأنا أرى ذلك الفتى وقد أضجعوه هناك تحت تلك الورود».

قالت الآنسة ميرتل: «لم ينل قط أكثر مما ناله السيد بينفورد. هيا الآن واشربي القليل من البيرة».

مسحت الآنسة ريبا عينيها بكمّها. شربت بعض البيرة.

قالت الآنسة لورين: «كان عليه أن يكون أكثر وعياً فلا يحاول أن يعبث مع فتاة بوباي».

قالت الآنسة ميرتل: «الرجال لا يتعلمون قط أفضل من هذا يا عزيزتي. أين تظنين أنهما ذهبا يا آنسة ريبا؟».

قالت الآنسة ريبا: «لا أعرف ولا يهمني ذلك، ولا يهمني أيضاً متى سيمسكون به ويحرقونه لقتله ذلك الفتى. لا أكترث البتة».

قالت الآنسة ميرتل: «إنه يذهب كل صيف إلى بينوسكولا ليرى أمه، والرجل الذي يفعل هذا لا يمكنه أن يكون سيئاً إلى ذلك الحدّ».

قالت الآنسة ريبا: «لا أعرف إلى أي درجة من الشر تحبينهم أن يكونوا عليها إذاً. أنا أحاول إدارة منزل محترم، كان هذا المنزل صالة للرمي طوال عشرين عاماً، وهو يحاول تحويله إلى عرض لاختلاس النظر».

قالت الآنسة ميرتل: «إننا نحن الفتيات المسكينات اللواتي يتسببن في كل المشاكل وينلن المعاناة كلها».

قالت الآنسة لورين: «سمعت منذ سنتين أنه لم يكن صالحاً في ذلك الخصوص».

قالت الآنسة ريبا: «عرفت ذلك على الدوام. شاب ينفق ماله كالشلال على الفتيات ولا يصحب أياً منهن إلى الفراش. هذا مخالف للطبيعة. ظنت جميع الفتيات أن السبب هو أن لديه امرأة صغيرة في مكان ما المدينة، ولكني قلت لهن انتبهن إلى كلامي: هناك شيء ما مضحك في سلوكه. هناك مسألة مضحكة ما في مكان ما».

قالت الآنسة لورين: «كان سخياً جداً بماله، حسناً».

قالت الآنسة ريبا: «الملابس والمجوهرات التي اشترتها تلك الفتاة، كان ذلك هو العار بعينه. كان هناك ثوب صيني دفعت فيه مائة دولار لأنه مستورد، وعطر دفعت فيه عشرة دولارات للأونصة الواحدة. في صباح اليوم التالي حين صعدتُ إلى تلك الغرفة، كانت هذه كلها مرمية في ركن الغرفة والعطور وأحمر الشفاه متناثرة فوقها كما لو مرّ بها إعصار. هذا ما كانت تفعله كلما كانت تغضب منه، وعندما كان يضربها. بعد ذلك أوصد عليها الغرفة ومنعها من مغادرة المنزل. كما أنه وضع من يراقب منزلي وكأنه...». رفعت القدح عن المنضدة إلى شفتيها. ثم أوقفته وهي ترمش. «أين بير...؟».

قالت الآنسة ميرتل: «أنكل بد!» أمسكت الصبي من ذراعه وانتشلته من خلف كرسي الآنسة ريبا وهزّته، راحت رأسه المدورة تتمايل على كتفيه بتعبير من الحماقة المطردة. «ألا تشعر بالخجل؟ ألا نشعر بالخجل؟» لم لا تستطيع الابتعاد عن بيرة هاتين السيدتين؟ أنا أفكر في استرداد ذلك الدولار وأجعلك تشتري علبة بيرة للآنسة ريبا. سأفعل ذلك حقاً. والآن اذهب إلى تلك النافذة وابق هناك، هل سمعتني؟».

قالت الآنسة ريبا: «هراء. لم يكن هناك الكثير منه متبقياً في القدح. أنتما يا سيدتيّ جاهزتان للمزيد أيضاً، أليس كذلك؟».

لمست الآنسة لورين فمها بمنديلها. خلف نظارتها دارت عيناها في نظرة جانبية خفية وسرية. وضعت يدها الأخرى على صدرها المسطّح، صدر العانس».

قالت الآنسة ميرتل: «نسينا أمر قلبك يا حبيبتي. ألا تظنين أن يجدر بك تناول الجين هذه المرة؟».

قالت الآنسة لورين: «في الواقع أنا..».

قالت الآنسة ريبا: «أجل، افعلي ذلك. نهضت بتثاقل وجلبت ثلاث كؤوس أخرى من خلف الستارة. دخلت ميني وملأت الأقداح. شربن وربتن على شفاههن.

قالت الآنسة لورين: «هذا ما كان يجري، أليس كذلك؟».

قالت الآنسة ريبا: «لقد عرفت بالأمر في البداية حين أخبرتني ميني أن شيئاً ما مضحكاً كان يجري. كيف أنه لم يكن يتواجد هنا إلا قليلاً، ويغيب ليلة ويحضر أخرى، وأنه حين كان يحضر لا تجد علامات في صباح اليوم التالي حين تنظف الغرفة على الإطلاق. كانت تسمعهما يتشاجران، وقالت إن الفتاة كانت تريد الخروج وهو لا يدعها تفعل ذلك. كان يشتريها بكل تلك الملابس، ولكنه لم يكن يريدها أن تغادر المنزل، وكانت هي تغضب وتثور وتقفل الباب من الداخل ولا تسمح له بالدخول».

قالت الآنسة ميرتل: «ربما ذهب وحصل على واحدة من تلك الغدد، غدد السعادين، و لم تناسبه».

«ثم حدث في صباح أحد الأيام أن جاء إلى هنا مع رِد واصطحبه إلى الأعلى. بقيا هناك حوالي الساعة ثم غادرا. ولم يعد بوباي مرة أخرى حتى صباح اليوم التالي. ثم عاد هو ورِد ثانية وبقيا في الأعلى حوالي الساعة.

«حين غادرا أتت ميني وأخبرتني عما كان يجري. لذا انتظرتهما في اليوم التالي. دعوته إلى غرفتي هنا وقلت له: «انتبه إلي يا ابن القـ...». توقفت عن الكلام. لبرهة بقين ثلاثتهن جالسات في سكون، وقد انحنين قليلاً إلى الأمام. ثم التفتت رؤوسهن ببطء ونظرن إلى الصبي وهو يتكئ على المنضدة.

قالت الآنسة ميرتل: «يا أنكل بد، يا حبيبي، ألا تريد أن تنزل إلى الباحة وتلعب هناك مع ريبا والسيد بينفورد؟».

قال الصبي: «أجل يا سيدتي». اتجه إلى الباب. راقبنه حتى انغلق الباب من خلفه. قرّبت الآنسة لورين كرسيها. اقتربن الواحدة من الأخرى.

قالت الآنسة ميرتل: «وهل هذا ما كانوا يفعلونه؟».

«قلت إني أدير منزلاً منذ عشرين عاماً، ولكن هذه أول مرة يحدث مثل هذا الشيء هنا. إن كنت تريد فحلاً لفتاتك، فاذهب إلى مكان آخر لفعل ذلك. لن أرضى أن يتحول منزلي إلى ملهى فرنسي حقير».

قالت الآنسة لورين: «يا له من ابن قحبة».

قالت الآنسة ميرتل: «كان عليه أن يتحلى بالفطنة الكافية فيحضر رجلاً قبيحاً وعجوزاً ليغوينا نحن الفتيات المسكينات على هذه الشاكلة».

قالت الآنسة لورين: «يتوقع منا الرجال دائماً أن نقاوم الإغواء». كانت تجلس باستقامة كأنها معلمة مدرسة. «يا له من ابن قحبة قذر».

قالت الآنسة ريبا: «باستثناء ما يعرضونه هم أنفسهم. ثم راقبتهما... كل صباح... ومرت أربعة أيام ولم يعودا. غاب بوباي أسبوعاً كاملاً، وتلك الفتاة هائجة كمهرة صغيرة. ظننتُ أنه خارج المدينة في عمل ما، حتى أبلغتني ميني أنه لم يكن خارج المدينة، وأنه أعطاها خمسة دولارات في اليوم حتى لا تدع الفتاة تخرج من المنزل أو تستعمل الهاتف. وأنا كنت أحاول أن أوصل له رسالة بأن يأتي ويأخذها من منزلي لأني لم أكن أريد لمثل تلك الأمور أن تحدث فيه. نعم يا سيدي، قالت ميني إن كلاهما كانا يتعريان كحيّتين وبوباي واقف عند الطرف السفلي من السرير دون أن يخلع قبعته، وهو يصدر صوتاً أشبه بالنحيب أو العواء».

قالت الآنسة لورين: «ربما كان يهتف تشجيعاً لهما ابن القحبة القذر ذاك».

وصل صوت وقع أقدام في البهو. استطعن أن يسمعن صوت ميني يرتفع مناشداً. فتح الباب ودخلت، وهي تحمل أنكل بد بيد واحدة. كان متدلياً بركبتين مرتخيتين ووجهه قد تحجر في تعبير من الغباء الجامد. قالت ميني وهي تهزه: «يا آنسة ريبا، هذا الصبي فتح الثلاجة وشرب زجاجة كاملة من البيرة. اصح أيها الصبيّ! قف!» تدلى بارتخاء ووجهه قد تجمد على ابتسامة ولعابه يسيل. ثم تجلى عليه تعبير من القلق والرعب. أبعدته ميني عنها بحدة حين بدأ يتقيأ.

الفصل السادس والعشرون

حين أشرقت الشمس، لم يكن هوريس قد أوى إلى فراشه ولا خلع ملابسه حتى. كان ينهي للتو كتابة رسالة إلى زوجته معنونة إلى منزل أبيها في كنتاكي، يطلب فيها الطلاق. جلس إلى الطاولة وهو ينظر إلى الصفحة الواحدة المكتوبة بخط أنيق إنما غير مقروء، وهو يشعر بالهدوء والفراغ لأول مرة منذ وجد بوباي يراقبه عبر النبع قبل أربعة أسابيع. وبينما كان جالساً هناك، بدأ يشم رائحة القهوة من مكان ما. "سأنهي هذه المهمة ثم سأسافر إلى أوربا. أنا مريض. أنا عجوز جداً لأتحمل كل هذا. لقد ولدتُ أصلاً وأنا أكبر سناً من أن أتحمله. وأنا أتوق حتى الموت إلى الهدوء».

حلق لحيته وصنع قهوة وشرب منها فنجاناً وأكل بعض الخبز. حين مرّ بالفندق، كان الباص الذي يلاقي قطار الصباح عند المنعطف، وكان البائعون الجوالون يصعدون إليه. كان كلارنس سنوبس واحداً منهم، وهو يحمل حقيبة ملابس من الصفيح.

قال: «أنا ذاهب إلى جاكسون لمدة يومين في مهمة صغيرة. من سوء الحظ جداً أنني افتقدتك فلم أجدك ليلة البارحة. جئت في سيارة. أعتقد أنك كنت قد أويت إلى فراشك، على الأرجح، أليس كذلك؟» نظر إلى هوريس، بجسمه الضخم وبشرته البيضاء والصفراء بلون العجين ونواياه التي لا يمكن أن تخطئها العين. «كان بإمكاني اصطحابك إلى

مكان لا يعرفه معظم الناس. حيث يمكن للرجل أن يفعل ما تؤهله قدراته على فعله. ولكن ستكون هناك فرصة أخرى، لأنني أصبحت أعرفك بشكل أفضل». أخفض من درجة صوته قليلاً وتحرك جانباً بعض الشيء. «لا تقلق، لستُ بالثرثار. حين أكون هنا، في جفرسون، فأنا شخص محدد، وحين أكون في المدينة مع شلة من الشبان المرحين الطيبين لا يكون لأحد شأن فيما أفعل سواي أنا. أليس هذا صحيحاً؟».

لاحقاً، في الصباح، شاهد شقيقته وهي تمشي في الشارع متقدمة عنه بمسافة صغيرة، ثم انعطفت واختفت في أحد الأبواب. حاول أن يجدها بأن راح ينظر في جميع المحلات ضمن نصف قطر المكان الذي كانت قد انعطفت فيه، ويسأل عنها البائعين. لم يجدها في أي منها. المكان الوحيد الذي لم يبحث فيه كان درجاً يصل ما بين مخزنين، ويؤدي إلى رواق من المكاتب على الطابق الأول، وكان أحدها يخص نائب عام المقاطعة يوستاس غراهام.

كان لغراهام قدم عوجاء أوصلته إلى المنصب الذي يحتله الآن. وقد شق طريقه إلى جامعة الولاية وعبرها. تذكرته البلدة كشاب يقود العربات والشاحنات لمصلحة دكاكين البقالة. خلال سنته الأولى في الجامعة، حقق شهرة لنفسه بكدّه ومثابرته. كان يعمل نادلاً في قاعة الطعام وكان قد حصل على عقد حكومي لنقل البريد إلى مكتب البريد المحلي ومنه عند وصول كل قطار، وهو يمشي مشيته العرجاء حاملاً كيس البريد على كتفه: شاب لطيف بريء الملامح يخاطب كل شخص بكلام ملائم وفي عينيه ضراوة يقظة ما. خلال سنته الثانية تخلى عن عقد البريد واستقال من عمله في قاعة الطعام وصار يرتدي بذلة جديدة. سرّ الناس لأنه استطاع أن يدخر من كدّه بحيث يكرس كل وقته للدراسة. كان طالباً في كلية الحقوق وقتها، وكان أساتذة القانون

يعتنون به كأنه جواد سباق. تخرج بعلامات جيدة ولكن ليس بامتياز، قال الأساتذة: «لأنه كان معوقاً منذ البداية. ولو كانت له البداية نفسها التي للآخرين... لكان سيحرز تقدماً كبيراً».

ولم يعرفوا إلا بعد أن ترك الكلية أنه كان يلعب البوكر منذ ثلاث سنين في مكتب إسطبل لاكتراء الخيل خلف ستائر مسدلة. وحين انتخب بعد سنتين من تركه الكلية للعضوية في الهيئة التشريعية بدؤوا يروون طرفة عن أيامه الدراسية.

كانت تدور حول لعبة البوكر في مكتبِ إسطبل اكتراء الخيل. وصل الرهان إلى غراهام. نظر عبر المنضدة إلى مالك الإسطبل الذي كان الخصم الوحيد المتبقي له.

قال: «كم معك يا سيد هاريس؟».

قال المالك: «اثنان وأربعون دولاراً يا يوستاس». رمى يوستاس بعض الفيشات في الصحن. سأل المالك: «كم تساوي تلك؟».

«اثنان وأربعون دولاراً يا سيد هاريس».

همهم المالك. فحص يده. «كم ورقة سحبت يا يوستاس؟».

«ثلاث يا سيد هاريس».

«هممم! من وزع الأوراق يا يوستاس؟».

«أنا يا سيد هاريس».

«أنا أتخلى عن دوري يا يوستاس».

لم يستلم منصب النائب العام للمقاطعة إلا منذ فترة قصيرة، ولكن سبق له وأعلن أنه سيترشح للكونغرس مدعوماً بالرقم القياسي للادانات

التي استطاع تحقيقها في القضايا التي نظر فيها، لذا حين وجد نفسه يواجه نرسيسا عبر طاولة مكتبه في غرفة مكتبه القذرة، كان تعبيره أشبه بذاك الذي عرف عنه حين وضع الدولارات الاثنين والأربعين في الصحن.

«أتمنى لو لم يكن الأمر متعلقاً بأخيك. أكره أن أرى أخاً في السلاح، كما يمكنك أن تقولي، متورطاً في قضية فاسدة». كانت تراقبه بنظرة فارغة مطوّقة. «على أي حال، علينا أن نحمي المجتمع، حتى حين يبدو أن المجتمع لا يحتاج إلى حماية».

قالت: «أأنت واثق من أنه لن يستطيع ربح القضية؟».

«حسنا، أول مبدأ من مبادئ القانون هو أن الله هو وحده من يعرف ما ستفعل هيئة المحلفين. طبعاً، لا يمكنك أن تتوقعي..».

«ولكنك لا تتوقع أنه سيربح».

«طبعاً، أنا..».

«لديك سبب جيد يدفعك إلى الظن بأنه لن يربح. أفترض أنك تعرف أشياء عنها وهو لا يعرفها».

نظر إليها باختصار. ثم أمسك بقلم من على مكتبه وبدأ يبري رأسه بقطّاعة ورق. «هذا أمر سريّ على نحو محض. أنا أنتهك قسم الولاء للمنصب. لست مضطراً إلى أن أخبرك بذلك. ولكن قد يوفر عليك القلق أن تعلمي أنه لا فرصة أمامه على الإطلاق في الربح. أعرف مدى خيبة الأمل التي ستصيبه، ولكن لا يمكن تجنب ذلك. نحن نعرف جيداً أن الرجل مذنب. لذا إن كانت هناك أي وسيلة لجعل أخيك يتخلى عن القضية، فأنا أنصحك بأن تفعلي ذلك. فالمحامي الخاسر هو مثل أي خاسر آخر، سواء أكان لاعب كرة أو تاجراً أو طبيباً. مهمته هي أن..».

قالت: «إذاً، كلما كان أسرع في الخسارة، سيكون الأمر أفضل، أليس كذلك؟ أي لو شنقوا الرجل وانقضى الأمر». أصبحت يداه ساكنتين تماماً. لم يرفع نظره. قالت بلهجة باردة ورتيبة: «لديّ أسباب تجعلني أرغب في أن يخرج هوريس من هذه القضية. وكلما حدث ذلك بصورة أسرع كلما كان أفضل. قبل ثلاث ليال هتف سنوبس، ذاك الذي في الهيئة التشريعية، إلى البيت محاولاً أن يجده. في اليوم التالي ذهب إلى ممفيس. لا أعرف السبب، ولكن عليك أنت أن تعرفه. كل ما أريده هو أن يخرج هوريس من هذه القضية بأسرع وقت ممكن».

نهضت وتحركت نحو الباب. عرج باتجاهه لكي يفتحه لها. ومن جديد وجهت إليه تلك النظرة الباردة الساكنة التي لا يُسبر غورها وكأنه كلب أو بقرة وكانت تنتظر منه أو منها أن تبتعد عن طريقها. ثم رحلت. أغلق هو الباب وخطا خطوة خرقاء بحذائه الثقيل وهو يطقطق أصابعه في اللحظة التي فُتح فيها الباب مجدداً. مد يده نحو ربطة عنقه، ونظر إليها وهي في الباب، وقد أمسكت به مفتوحاً.

قالت: «متى تظن أن القضية ستنتهي؟».

قال: «عجباً، لا أست... ستفتتح المحكمة في العشرين من الشهر. ستكون هي القضية الأولى. فلنقل يومين... أو ثلاثة أيام على الأكثر، بمساعدتك الكريمة. ولا حاجة إلى أن أؤكد لك أن هذا سيتم ضمن إجراءات الثقة القصوى بيننا..». تحرك نحوها، ولكن تحديقتها الفارغة المتعمدة كانت أشبه بسور يحيط به.

«سيكون ذلك في الرابع والعشرين من الشهر». عندها كانت تنظر إليه مجدداً. قالت: «شكراً»، وأغلق الباب.

في تلك الليلة كتبت إلى بِل أن هوريس سيكون في المنزل في الرابع والعشرين. هاتفت هوريس وطلبت منه عنوان بِل.

قال هوريس: «لماذا؟».

قالت: «سأكتب رسالة إليها»، بصوت هادئ وخال من التهديد. فكر هوريس: «اللعنة»، وهو يمسك بالسلك الصامت في يده. «كيف يتوقع مني أن أحارب الناس الذين لن يستخدموا حتى الذريعة». ولكن سرعان ما نسي ذلك. لم يرها مرة أخرى قبل افتتاح جلسة المحاكمة.

قبل يومين من افتتاح جلسة المحاكمة، خرج سنوبس من عيادة طبيب الأسنان ووقف عند المنعطف، وهو يبصق. أخرج سيجاراً مغلفاً بغلاف ذهبي من جيبه وأزال الغلاف ووضع السيجار بحذر بين أسنانه. كانت إحدى عينيه سوداء وقصبة أنفه مغطاة بشريط لاصق متسخ. قال لهم في دكان الحلاق: «صدمتني سيارة في جاكسون، ولكني لا أظنّ أني لم أجعل ابن الحرام ذاك يدفع الثمن»، قال ذلك وهو يريهم حزمة من الأوراق النقدية الصفراء. وضعها في محفظة للنقود وخبأها. قال: «أنا أمريكي، أنا لا أتبجح بذلك، لأني ولدت أمريكياً. ولقد كنت ولا أزال معمدانياً شريفاً طوال حياتي أيضاً. أوه، لست بالواعظ ولا بالعانس المسنّة. لقد تسكعت مع الشباب بين الحين والآخر، ولكني أعتقد أني لست أسوأ من كثير من الأشخاص الذين يتظاهرون بالغناء بصوت مرتفع في الكنيسة. ولكن أحقر وأرخص شيء على هذه الأرض ليس الزنجي: إنه اليهودي. نحن في حاجة إلى قوانين ضد اليهود. قوانين قاسية. حين يستطيع يهودي لعين دنيء أن يأتي إلى بلد حرّ كهذا لمجرد أنه حاصل على شهادة في الحقوق، فإن الوقت قد حان لوضع حد لهذه الأمور. اليهودي هو أحقر مخلوق بين المخلوقات. وأحقر أصناف اليهود هو المحامي اليهودي. وأحقر صنف من أصناف المحامين اليهود

هو ذاك الذي من ممفيس. حين يستطيع محام يهودي أن يعيق أمريكياً، أمريكياً أبيض البشرة، ولا يدفع له أكثر من عشرة دولارات لقاء شيء كان من شأن أمريكيين اثنين، أميركيين، أي جنتلمانان جنوبيان؛ قاض يعيش في عاصمة ولاية ميسيسيبي ومحام سيصبح شخصاً كبيراً مهماً شأن أبيه في يوم من الأيام، وقاضياً أيضاً؛ حين يمنحانه عشرة أضعاف المبلغ لقاء الشيء نفسه أكثر مما دفعه اليهودي الحقير، فنحن في حاجة إلى قانون. لقد كنت مبذراً طوال حياتي، وكل ما كان في حوزتي كان لأصدقائي أيضاً. ولكن حين يرفض يهودي لعين ونتن وحقير أن يدفع لأمريكي عُشر ما كان من شأن أمريكي وقاض أيضاً..».

قال الحلاق: «ولماذا بعتَه له إذاً؟».

قال سنوبس: «ماذا؟» كان الحلاق ينظر إليه.

قال الحلاق: «ما الذي كنت تحاول أن تبيعه لسائق تلك السيارة حين صدمتك؟».

قال سنوبس: «إليك بسيجار».

الفصل السابع والعشرون

تقرر افتتاح المحاكمة في العشرين من حزيران (يونيو). بعد أسبوع من زيارته لمفيس، هاتف هوريس الآنسة ريبا. قال: «أريد فحسب أن أعرف إن كانت ما تزال عندكم، حتى أستطيع أن أتصل بها لو احتاج الأمر».

قالت الآنسة ريبا: «إنها هنا، ولكن الاتصال لا أحبه. لا أريد أي رجال شرطة من حول المنزل ما لم يكونوا من زبائن تجارتي».

قال هوريس: «سيكون مراسل المحكمة. شخص يسلم ورقة إليها باليد».

قالت الآنسة ريبا: «فليكن ذاك هو ساعي البريد. وهو يأتي إلى هنا على أي حال، بملابسه الرسمية. وهو لا يبدو أسوأ بها من شرطي كامل أيضاً. دعه يفعل ذلك».

قال هوريس: «لن أزعجك. لن أسبب لك أي مشكلة».

قالت الآنسة ريبا: «أعرف أنك لن تفعل». كان صوتها نحيلاً وأجش على الهاتف. «لن أدعك تفعل. لقد انتابت ميني نوبة بكاء في هذه الليلة، بسبب ابن الحرام ذاك الذي هجرها، وأنا والآنسة ميرتل كنا جالستين هنا، وقد بدأنا نبكي نحن أيضاً. وهكذا رحنا نبكي أنا وميني

والآنسة ميرتل. شربنا زجاجة كاملة جديدة من الجين. لا أستطيع تحمل نفقة مثل هذا الأمر. لذا لا ترسل أي شرطي بملابس بلون الغراب إلى هنا برسالة لأي شخص. عليك أن تهاتفني وأنا سأرسل لك من تريد إلى الشارع وتستطيع إجراء عملية القبض عليها هناك».

في ليلة التاسع عشر من الشهر هاتفها من جديد. كان قد عانى من صعوبة في الوصول إليها.

قالت: «لقد رحلا. كلاهما. ألا تقرأ أي صحف؟».

قال هوريس: «أي صحف؟ ألو، ألو!»

قالت الآنسة ريبا: «لم يعودا هنا بعد الآن. لا أعرف شيئاً عنهما ولا أريد أن أعرف أي شيء عنهما باستثناء معرفة من هو الذي سيدفع لي أجرة غرفة لمدة أسبوع..».

«ولكن ألا تستطيعين أن تعرفي أين ذهبت. قد أحتاج إليها».

قالت الآنسة ريبا: «لا أعرف شيئاً عنهما ولا أريد أن أعرف أي شيء عنهما». سمع السماعة تصدر صوتاً. ولكن فصل الخط لم يحدث فوراً. سمع السماعة تصطدم بالمنضدة حيث كان جهاز الهاتف، واستطاع سماع الآنسة ريبا تصرخ بميني: «ميني، ميني!» ثم رفعت يد ما السماعة ووضعتها في مكانها ورن السلك في أذنه. بعد برهة قال صوت «Delsarte-ish Pine Bluff dizzent... Enkew!».

***

افتتحت المحاكمة في اليوم التالي. على المنضدة كانت بعض الأشياء المتناثرة التي كان النائب العام للمقاطعة يعرضها: الرصاصة من جمجمة تومي، وجرة من الخزف تحوي ويسكي الذرة.

قال هوريس: «سأدعو السيدة غودوين إلى منصة الشهود». لم ينظر إلى الخلف. لم يشعر بعيني غودوين على ظهره وهو يساعد المرأة لتجلس على الكرسي. حلفت اليمين والطفل في حضنها. كررت القصة كما سبق وحكتها له في اليوم الذي تلى مرض الطفل. حاول غودوين مرتين أن يقاطعها وقد أمره القاضي بالصمت. لم ينظر هوريس إليه.

أنهت المرأة حكايتها. جلست منتصبة في الكرسي في ثوبها النظيف المهترئ وقبعتها ذات الخمار المرتق، والحلية الأرجوانية على كتفها. كان الطفل في حضنها وعيناه مغلقتان في ذلك السكون المخدِّر. لبرهة رفرفت يدها فوق وجهها وهي تؤدي تلك الحركات الأمومية كأنما من غير قصد.

ذهب هوريس وجلس. عندها فحسب نظر إلى غودوين. ولكن هذا الآخر جلس بهدوء الآن، وذراعاه مطويتان ورأسه مطأطئة قليلاً، ولكن هوريس استطاع أن يرى منخريه أبيضين كالشمع والغضب فوق وجهه الأسمر. مال نحوه وهمس له، ولكن غودوين لم يتحرك.

كان النائب العام للمنطقة يواجه المرأة الآن.

قال: «يا سيدة غودوين، ما تاريخ زواجك من السيد غودوين؟».

قال هوريس وهو ينهض على قدميه: «أنا أعترض!».

قال القاضي: «هل يمكن للادعاء أن يبرهن على أن هذا السؤال ذو صلة؟».

قال النائب العام للمنطقة وهو ينظر إلى هيئة المحلفين: «أتنازل عن هذا السؤال».

حين أنهت المحكمة عملها لذلك اليوم، قال غودوين بمرارة: «حسناً، لقد قلتَ إنك ستقتلني في يوم من الأيام، ولكن لم يخطر لي أنك كنت تعني ما تقول. لم أعتقد أنك..».

قال هوريس: «لا تكن أحمق. ألا ترى أن قضيتك رابحة؟ وأنهم قد تنازلوا إلى حد يحاولون معه أن يطعنوا بشخصية شاهدتك؟» ولكن حين غادروا السجن، وجد المرأة وهي ما تزال تراقبه من احتياطي عميق ما من نذير بالشر. «ليس عليك أن تقلقي أبداً، كما أقول لك بصدق. قد تعرفين أكثر فيما يخص صنع الويسكي أو الحب مما أعرفه أنا، ولكني أعرف عن الإجراءات القضائية الجنائية أكثر منك، تذكري ذلك».

«ألا تظن أني ارتكبت خطأً؟».

«أعرف أنك لم تفعلي. ألا ترين كيف يفجّر هذا قضيتهم؟ أفضل ما يمكن لهم أن يأملوه الآن هو هيئة محلفين تحبذ الشنق. وإن فرص ذلك أقل من واحد على خمسين. أقول لك إنه سيخرج من ذلك السجن غداً رجلاً حراً».

«إذاً أعتقد أنه حان الوقت لندفع لك».

قال هوريس: «نعم. حسناً. سأحضر الليلة».

«الليلة؟».

«أجل، فقد يستدعيك هو غداً إلى منصة الشهود مجدداً».

في الساعة الثامنة، دخل إلى باحة المرأة المجنونة. كان نور وحيد يشتعل في الأعماق المجنونة للمنزل، كيراعة وقعت في غصن الورد الشائك. ولكن المرأة لم تظهر حين نادى عليها. ذهب إلى الباب

وقرعه. صرخ صوت حاد بشيء ما، فانتظر لبرهة. كان على وشك أن يقرع الباب مرة أخرى حين سمع الصوت مجدداً، حاداً وهائجاً وضعيفاً، كأنما هو قادم من مسافة بعيدة، أو كناي من قصب دُفن تحت انهيار ثلجي. دار من حول المنزل في الأعشاب الزنخة التي يصل طولها حتى خصره. كان باب المطبخ مفتوحاً. كان المصباح هناك، باهتاً في مدخنة مليئة بالسخام، يملأ الغرفة – اختلاط من أشكال مهومة غزيرة زنخة من رائحة اللحم النسائي العجوز القذر – ليس بالنور بل بالظل. دارت مقلتا عينين بيضاوان في رأس مرتفع وله شكل الرصاصة في ومضات بنية اللون فوق قميص ممزق حشر في أوفرول. خلف الزنجية التفتت المرأة المجنونة نحو خزانة مفتوحة وهي تسرح شعرها الخفيف إلى الخلف بساعدها.

قالت: «ذهبت قحبتك إلى السجن. الحق بها».

قال هوريس: «السجن؟».

«هذا ما قلته. حيث يعيش الناس الصالحون. حين يكون لديك زوج، أبقه في السجن حيث لا يمكنه أن يزعجك». التفتت نحو الزنجية وفي يدها قارورة عطر صغيرة. «هيا يا عزيزتي. أعطني دولاراً لقاءها. لديك الكثير من المال».

عاد هوريس إلى مركز البلدة، إلى السجن. سمحوا له بالدخول. صعد الدرج، وأقفل السجان باباً من خلفه.

أدخلته المرأة إلى الزنزانة. كان الطفل نائماً على السرير. جلس غودوين إلى جانبه، بذراعين متصالبتين، وساقاه ممدودتان بهيئة رجل في آخر مرحلة من مراحل الإرهاق.

قال هوريس: «لم تجلس هناك أمام ذلك الشق؟ لم لا تذهب إلى ذلك الركن وسنضع الفرشة فوقك؟».

قال غودوين: «لقد جئت لترى الأمر وقد تحقق، أليس كذلك؟ حسناً، ليس هذا أكثر مما هو صحيح. إنها وظيفتك. لقد وعدتَ بأنني لن أُشنق، أليس كذلك؟».

قال هوريس: «لا تزال أمامك ساعة بعد. قطار ممفيس لا يصل إلى هنا حتى الثامنة والنصف. وهو بكل تأكيد يتحلى بحس أفضل من أن يصل إلى هنا في تلك العربة ذات اللون الأصفر كالكناري». التفت إلى المرأة. «أما أنت فقد توقعت منك ما هو أفضل. أعرف أنه وأنا أحمقان، ولكني توقعت منك ما هو أفضل».

قال غودوين: «أنت تقدم لها معروفاً. ربما كانت ستبقى معي حتى تصبح أكبر سناً من أن تتخلى عن رجل صالح. لو وعدت فحسب بالحصول للطفل على المال بحيلة صحفية حين يكبر بما فيه الكفاية ليحقق تغييراً، فسأكون مرتاح البال».

كانت المرأة قد عادت إلى السرير. رفعت الطفل ووضعته في حضنها. اتجه هوريس إليها. قال: «اطمئني الآن. لن يحدث أي شيء. سيكون في حال حسنة هنا. وهو يعرف ذلك. عليك أن تذهبي إلى البيت وتنامي، لأنكما ستغادران غداً هذا المكان. هيا، عليك أن تطمئني».

قالت: «أعتقد أنه من الأفضل لي أن أبقى».

«اللعنة. ألا تعرفين أنك حين تضعين نفسك في موضع الكارثة فهذا هو الطريق الأكيد لجلب الكارثة؟ ألم تعلمك تجاربك ذلك؟ يعرف (لي) ذلك. يا (لي) اجعلها تتوقف عن ذلك».

قال غودوين: «هيا يا روبي. اذهبي إلى البيت ونالي قسطاً من النوم».

قالت: «أعتقد أنه من الأفضل لي أن أبقى».

وقف هوريس وهو ينظر إليهما. كانت المرأة تتأمل الطفل، ووجهها مطاطئ وجسدها كله ساكن. اتكأ غودوين على الجدار، ورسغاه الأسمران مطويان في كمي قميصه الباهتي اللون. قال هوريس: «أنت رجل، أليس كذلك؟ أتمنى لو يراك أعضاء هيئة المحلفين الآن، وأنت محبوس في زنزانة من الإسمنت المسلح، وتخيف النساء والأطفال بقصص الأشباح من الدرجة الخامسة. سيعرفون أنك لا تتمتع بالشجاعة الكافية لقتل أي شخص».

قال غودوين: «الأجدر بك أن تذهب أنت وتنام أيضاً. نستطيع نحن النوم هنا، إن لم تكن هناك هذه الضجة الكبيرة».

قال هوريس: «كلا. هذا معقول جداً كي نفعله». غادر الزنزانة. فتح السجان الباب له وخرج هو من المبنى. خلال عشر دقائق عاد ومعه رزمة. لم يكن غودوين قد تحرك من مكانه. راقبته المرأة وهو يفتح الرزمة. كانت تحوي زجاجة حليب وعلبة سكاكر وعلبة سيجار. أعطى غودوين سيجاراً وأخذ هو واحداً. «لقد جلبت زجاجته، أليس كذلك؟».

أخرجت المرأة الزجاجة من حزمة تحت السرير. قالت: «لدي بعض الحليب فيها». ملأتها من الزجاجة التي أحضرها. أشعل هوريس سيجاره وسيجار غودوين. حين نظر مرة أخرى كانت الزجاجة قد اختفت.

قال: « لم يحن ميعاد إطعامه بعد».

قالت المرأة: «أنا أدفئه».

قال هوريس: «أوه» أمال الكرسي على الجدار، على الجهة الأخرى من مكان السرير في الزنزانة.

قالت المرأة: «هنا مكان لك على السرير. إنه أكثر طراوة. نوعاً ما».

قال هوريس: «ليس بما فيه الكفاية للتغيير».

قال غودوين: «اسمعني. اذهب إلى بيتك. لا فائدة منك هنا».

قال هوريس: «لدينا بعض العمل نؤديه. ذلك المحامي سيطلبها مرة أخرى في الصباح للشهادة. هذه فرصته الوحيدة: أن يشكك في صحة شهادتها بأي طريقة كانت. يمكنك أن تحاول النوم بينما نقوم بالأمر».

قال غودوين: «حسناً».

بدأ هوريس يدرب المرأة وهو يذرع الأرضية الضيقة جيئة وذهاباً. أنهى غودوين سيجاره وجلس دون حراك مجدداً، وذراعاه مطويتان ورأسه منحنية، دقت الساعة التي فوق الساحة معلنة التاسعة ثم العاشرة. أنّ الطفل وتحرك. توقفت المرأة وغيرت له حفاضه وأخرجت الزجاجة من تحت خاصرتها وأطعمته. ثم اتكأت بحذر ونظرت في وجه غودوين. همست: «إنه نائم».

همس هوريس: «هل نجعله يستلقي؟».

«كلا، دعه هناك». وضعت الطفل على السرير وهي تتحرك بهدوء وانتقلت إلى الجانب الآخر منه. حمل هوريس الكرسي وجلس إلى قربها. تكلما همساً.

دقت الساعة معلنة الحادية عشرة. كان هوريس ما يزال يدربها، وهو يعيد ويعيد المشهد المتخيّل. وأخيراً قال: «أعتقد أن هذا هو كل ما في

الأمر. هل تستطيعين تذكره الآن؟» لو سألك أي سؤال لا تستطيعين الإجابة عليه بالكلمات التي علمتك إياها في هذه الليلة بالضبط، لا تقولي أي شيء لبرهة. ساعتني أنا بالباقي. هل تستطيعين التذكر الآن؟».

همست: «أجل». مدّ يده وتناول علبة الحلوى من على السرير وفتحها، طقطق الورق الرقيق اللامع قيلاً. أخذت هي واحدة من الحلوى. لم يتحرك غودوين. نظرت هي إليه، ثم إلى الشق الضيق الذي هو النافذة.

همس هوريس: «توقفي هن هذا. لا يمكنه أن يصل إليه من هذه النافذة ولو بدبوس قبعة، ناهيك عن رصاصة. ألا تعرفين ذلك؟».

قالت: «أجل». حملت الحلوى في يدها. لم تكن تنظر إليه. همست: «أعرف ما الذي تفكر فيه».

«ما هو؟».

«حين وصلت إلى البيت و لم أكن هناك. أعرف ما تفكر فيه». راقبها هوريس، وراقب وجهها الذي أدارته إلى الجهة الأخرى. «قلت إن هذه هي الليلة التي يجب أن نبدأ بها دفع أجورك».

نظر إليها لبرهة. قال: «آه، يا للزمان! يا للعادات والتقاليد! يا لبِل! ألا تستطيعين أيتها الحيوانات الثديية ألا تصدقي أبداً أن أي رجل، كل رجل... لقد ظننتِ أني جئت إلى هنا لأجل هذا؟ ظننتِ أني لو كنت أنوي ذلك، أكنتُ سأنتظر طوال هذه المدة؟».

نظرت إليه بإيجاز. «ما كنت سألبي طلبك لو أنك لم تنتظر».

«ماذا؟ أوه. حسناً، ولكنك كنت ستفعلين ذلك هذه الليلة؟».

«ظننت أن هذا كان..».

«ستفعلين الآن إذاً؟» نظرت إلى غودوين. كان يشخر قليلاً. همس: «أوه، لا أعني في هذه اللحظة. ولكنك ستدفعين عند الطلب».

«ظننت أن هذا ما عنيته أنت. قلت لك إنه ليس معنا... إن لم يكن هذا كافياً، فلا أعرف إن كان عليّ أن ألومك».

«ليس الأمر كذلك. أنت تعرفين أنه ليس كذلك. ولكن ألا تستطيعين أن تري أن رجلاً ما يمكنه أن يفعل شيئاً لمجرد أنه يعرف أنه على حق، وأن ضروري لتناسق الأمور أن يتم فعله؟».

قلبت المرأة الحلوى في يدها ببطء. «ظننتك غاضباً بسببه».

«من؟ (لي)؟».

«كلا، بل هو». ولمست الطفل. «لأني مضطرة إلى جلبه معنا».

«تعنين وهو عند أسفل السرير على الأرجح؟ أو ربما وأنت تمسكين به من ساقه طوال الوقت حتى لا يقع؟».

نظرت إليه وعيناها جديتان وفارغتان ومتأملتان. في الخارج دقت الساعة معلنة الثانية عشرة.

همس: «يا للرب الرحيم. ما نوع الرجال الذين عرفتِهم؟».

«لقد أخرجته مرة من السجن بهذه الوسيلة. ومن سجن ليفنويرث أيضاً، مع معرفتهم بأنه كان مذنباً».

قال هوريس: «حقاً فعلت ذلك؟» هيا، خذي قطعة أخرى. تلك التي في يدك تكاد تذوب». نظرت إلى أصابعها الملطخة بالشوكولا والحلوى التي لا شكل لها. رمتها خلف السرير. مدّ هوريس منديله.

قالت: «سيتسخ. انتظر». مسحت أصابعها على لباس الصبي الذي كانت قد نبذته وجلست مجدداً ويداها متشابكتان في حجرها. كان غودوين يشخر بانتظام. «حين مضى إلى الفيليبين، تركني في سان فرانسيسكو. حصلت على عمل وسكنت في غرفة بهو أطبخ على منفثة غاز، لأني وعدته بأني سأفعل ذلك. وحين قتل ذلك الجندي الآخر بسبب تلك المرأة الزنجية، لم أعرف بالأمر حتى. لم تصلني رسالة منه لمدة خمسة أشهر. ولكن حدث أن كنت أمدّ جريدة عتيقة على رفّ خزانة في المكان الذي كنت أعمل فيه، فشاهدت خبراً يفيد بأن الفوج الذي هو منه كان عائداً إلى الوطن، وحين نظرت إلى التقويم كان ذلك في اليوم نفسه. لقد كنت شريفة طوال ذلك الوقت. وقد أتيحت لي فرص جيدة، في كل يوم كانت تتاح لي مع الرجال الداخلين إلى المطعم».

« لم يسمحوا لي أن اذهب لألاقي سفينته في الميناء، لذا اضطررت إلى الاستقالة من عملي. ولكنهم رفضوا أن أقابله، ورفضوا حتى أن أصعد إلى السفينة. وقفت هناك وخرجوا وهم يسيرون بانتظام خارجين من السفينة، وأنا أنتظره وأسأل أولئك الذين مروا إن كانوا يعرفون مكانه، وهم يمزحون معي ويسألونني إن كان لديّ موعد مع رجل ما في تلك الليلة، ويقولون لي إنهم لم يسمعوا به قط أو أنه ميت أو هرب إلى اليابان مع زوجة العقيد. حاولت الصعود إلى السفينة مجدداً، ولكنهم منعوني. لذلك لبست أفضل ثيابي وذهبت إلى الكباريهات حتى وجدت أحدهم وجعلته يتقرب مني، فحكى لي ما حدث. وقد شعرت كأني متُّ. جلست هناك والموسيقى تعزف وذلك الجندي الثمل يتحسس جسدي، وأنا أتساءل لم لا أتخلى عن الأمر كله وأذهب معه وأسكر ولا أصحو ثانية وأنا أفكر بأن هذا هو النوع من الحيوان الذي ضيعت عاماً عليه. وأعتقد أني لم أفعل ذلك لهذا السبب.

«على أي حال، لم أفعل. عدت إلى غرفتي، وفي اليوم التالي بدأت أبحث عنه. تابعت السؤال وكانوا يكذبون عليّ ويحاولون خداعي، حتى وجدت أنه كان في ليفنويرث. لم يكن معي ما يكفي من المال لشراء بطاقة، لذا اضطررت إلى أداء عمل ثان. وقد استغرق مني ذلك شهرين حتى حصلت على ما يكفي من المال. ثم مضيت إلى ليفنويرث. حصلت على عمل كنادلة في «تشايلدز»، وفي نوادٍ ليلية، حتى استطعت أن أرى (لي) كل عصر يوم من أيام الأحد مرة كل أسبوعين. قررنا أن نوكل محامياً. لم نكن نعرف أن المحامي لا يستطيع فعل أي شيء من أجل سجين فدرالي. لم يخبرني المحامي بذلك، و لم أقل لـ (لي) كيف كنت أدفع أجور المحامي. لقد ظنّ أني كنت قد وفّرت بعض المال. عشت شهرين مع المحامي قبل أن أكتشف الحقيقة».

«ثم جاءت الحرب وأفرجوا عن (لي) وأرسلوه إلى فرنسا. ذهبت أنا إلى نيويورك وعملت في مصنع للذخيرة الحربية. وقد حافظت على عفتي أيضاً بينما المدن مليئة بالجنود الذين كان معهم نقود كثيرة لينفقوها، وحتى الفتيات الصغيرات السريعات الغضب المرتديات للحرير. ولكني بقيت أعيش باستقامة. ثم عدت على مدينتي. كنت عند السفينة لاستقباله. وقد أنزلوه منها موقوفاً وأعادوه إلى ليفنويرث جراء قتله ذلك الجندي قبل ثلاث سنوات. ثم وكلت محامياً ليجعل عضو كونغرس يفرج عنه. أعطيته أيضاً كل ما معي من مال كنت قد وفرته. لذا حين خرج (لي) من السجن لم يكن معنا أي نقود. قال إن علينا أن نتزوج، ولكننا لم نستطع دفع التكاليف. وحين أخبرته عن المحامي، ضربني».

ومن جديد أسقطت قطعة أخرى من الحلوى خلف السرير ومسحت يدها باللباس. اختارت قطعة أخرى من العلبة وأكلتها. وبينما راحت

تمضغها، نظرت إلى هوريس، والتفتت نحوه بتحديقة فارغة ومتأملة لبرهة غير عجلى. عبر النافذة الضيقة جاءت العتمة باردة وميتة.

توقف غودوين عن الشخير. تحرك ثم استوى جالساً.

قال: «كم الساعة؟».

قال هوريس: «ماذا؟» نظر إلى ساعة يده. «الثانية والنصف».

قال غودوين: «لا بد أن إحدى عجلات سيارته قد انثقب».

مع الفجر نام هوريس بدوره وهو جالس على الكرسي. وحين استيقظ كان قلم رصاص وردي اللون من نور الشمس يسقط عبر النافذة. كان غودوين والمرأة يتحدثان بهدوء فوق السرير. نظر إليه غودوين بكآبة.

قال: «صباح الخير».

قال هوريس: «آمل أنك تجاوزت كابوسك ذاك بالنوم».

«لو فعلت، فهو الكابوس الأخير الذي سينتابني. يقولون إنك لا تحلم هناك».

قال هوريس: «لا شك أنك فعلت ما يكفي بحيث لن تفتقده. أفترض أنك ستصدقنا بعد هذا».

قال غودوين وهو يجلس بهدوء تام وقد سيطر على نفسه تماماً، بوجهه الكامد، وهو يبدو مهملاً في أوفرله وقميصه الأزرق: «سأصدق الجحيم. هل تعتقد لدقيقة واحدة أن ذلك الرجل سيتركني أخرج من ذاك الباب إلى الشارع ونحو مبنى المحكمة ذاك بعد ما جرى البارحة؟ مع أي نوع من الرجال عشت طوال حياتك؟ في حضانة أطفال؟ أنا نفسي ما كنت لأفعل ذلك».

قال هوريس: «لو فعل لكان قد أفلت من فخّه هو».

«ما الفائدة التي سأجنيها أنا من ذلك؟ دعني أقل..».

قالت المرأة: «يا (لي)».

«...شيئاً ما: في المرة التالية التي تريد أن تلعب فيها بالنرد على عنق رجل..».

قالت: «يا (لي)». كانت تربت بيدها ببطء على رأسه جيئة وذهاباً. بدأت تسرح شعره وتفرقه، وتربت على قميصه الذي دون ياقة وتمسده. راقبهما هوريس.

قال بهدوء: «هل تريد أن تبقى هنا اليوم؟ أستطيع تدبير ذلك».

قال غودوين: «كلا. لقد مللت من هذا الأمر. أريد الانتهاء من المسألة. قل فحسب لذلك النائب اللعين للمامور ألا يمشي قريباً جداً مني. اذهبا أنت وهي لتناول فطور حقيقي».

قالت المرأة: «لست جائعة».

قال غودوين: «افعلي ما قلته».

«(لي)؟».

قال هوريس: «تعالي. تستطيعين العودة لاحقاً».

في الخارج، في الصباح المنعش، بدأ يتنفس بعمق. قال: «املئي رئتيك. ليلة في ذلك المكان ستجعل أي شخص في حالة من الفزع والاضطراب. فكرة أن ثلاثة أشخاص راشدين... يا إلهي، أعتقد أحياناً أننا جميعاً أطفال، باستثناء الأطفال أنفسهم. ولكن هذا اليوم

سيكون الأخير. مع حلول الظهيرة سيخرج من هناك رجلاً حراً:هل تدركين ذلك؟».

سارا في نور الشمس النقي تحت السماء العالية الملساء. عالية أمام الزرقة كانت غيوم سمينة وصغيرة تهب من الجهة الجنوبية الغربية، والنسيم البارد المتواصل قد ارتجف وتلألأ في أشجار الخروب حيث كانت الأزهار قد سقطت منذ زمن طويل.

قالت: لا أعرف كيف سندفع لك».

«إنسِ الأمر. لقد دُفع لي. لن تفهمي ذلك لكن روحي قد خدمت حرفة مبتدئ دامت ثلاثة وأربعين عاماً. ثلاثة وأربعون عاماً. أكثر من نصف الحياة التي عشتها أنتِ. لذلك ترين أن الحماقة تعتني بأصحابها وكذلك الفقر أيضاً».

«وأنت تعرف أنه... أن..».

«توقفي عن هذا الآن. لقد حلمنا بذلك حتى استنفدناه أيضاً. الرب أحمق أحياناً، ولكنه جنتلمان على الأقل. ألا تعرفين ذلك؟».

قالت المرأة: «لقد فكرت به دائماً على أنه رجل».

***

كان الجرس قد سبق له وأخذ يرنّ حين عبر هوريس الساحة باتجاه مبنى المحكمة، وقد سبق للساحة أن امتلأت بالعربات والسيارات وراحت الأوفرولات والملابس الخاكي تتجمع ببطء تحت المدخل القوطي الطراز للبناء. من الأعلى كانت الساعة تدق التاسعة بينما صعد هوريس الدرج.

كانت البوابة العريضة المزدوجة عند رأس الدرج المزدحم مفتوحة. من خلف البوابة وصلت ضجة نشاط أولي متواصل للناس الذي راحوا يجدون لأنفسهم أماكن للجلوس. فوق خلف ظهور المقاعد استطاع هوريس أن يرى رؤوسهم... رؤوس صلعاء ورؤوس شعثاء ورؤوس حليقة فوق أعناق شوتها الشمس، ورؤوس مزيّتة فوق ياقات مدينية، وهنا وهناك قلنسوة شمسية أو قبعة مزينة بأزهار صناعية.

كانت همهمة أصواتهم وحركاتهم تتردد فوق التيار المضطرد القادم من البوابة. كان الهواء يدخل من النوافذ المفتوحة ويعود إلى هوريس عند البوابة، محملاً بروائح التبغ والعرق البائت والتراب وتلك الرائحة المتميزة المألوفة لقاعات المحاكم؛ إنها رائحة الشهوات والأطماع والشجارات والمرارات المستنفدة، وفضلاً عن ذلك استقرار أخرق ما بدلاً عن أي شيء أفضل. كانت النوافذ تفتح على شرفات متراصة تحت أروقة معمدة ذات أقواس مرّ النسيم عبرها وهو يحمل تغريد وهديل طيور السنونو والحمام التي كانت قد عششت في الأفاريز، وبين الحين والآخر صوت بوق سيارة من الساحة في الأسفل، وهو يرتفع وينخفض في دمدمة فارغة للأقدام في الممر الذي تحت الدرج وفوقه.

كانت منصة المحكمة فارغةً. عند أحد جانبيها، حيث المنضدة الطويلة، استطاع أن يرى رأس غودوين السوداء ووجهه الأسمر النحيل، والقبعة الرمادية للمرأة. على الجانب الآخر للمنضدة، جلس رجل وهو ينكش أسنانه. كانت جمجمته مغطاة بشعر أسود أجعد ولكنه يتراجع من حول بقعة صلعاء. كان له أنف طويل شاحب، ويرتدي بذلة فاخرة بلون بني أصفر، وعلى المنصة قربه كانت حقيبة أوراق جلدية أنيقة وقبعة من القش ذات شريط أحمر وأصفر، وكان يحدق بكسل عبر النافذة التي فوق الرؤوس المصطفة، وينكش أسنانه.

توقف هوريس في البوابة تماماً. قال: «إنه محام. محام يهودي من ممفيس. ثم راح ينظر إلى أقفية الرؤوس من حول المنصة، حيث يجلس الشهود وما شابههم. قال: «أعرف ما سأجده قبل أن أجده. ستكون هي معتمرة قبعة سوداء».

سار على طول الممر. مما وراء نافذة الشرفة حيث بدا صوت الجرس وكأنه يأتي من هناك، وتحت الأفاريز حيث هدل الحمام، وصل صوت حاجب المحكمة:

«تفتتح الآن المحكمة السيارة المبجلة لمقاطعة يوكناباتاوفا بموجب القانون..».

كانت تمبل تعتمر قبعة سوداء. نادى الكاتب اسمها مرتين قبل أن تتحرك وتصعد إلى منصة الشهود. بعد برهة أدرك هوريس أنه كان يُخاطب، بنزق بعض الشيء من قبل المحكمة.

«هل هذه شاهدتك يا سيد بنبو؟».

«نعم يا فضيلة القاضي».

«هل تريد لها أن تحلف اليمين وأن تسجل شهادتها؟».

«نعم يا فضيلة القاضي».

إلى ما وراء النافذة، تحت الحمامات المتمهلات، كان صوت الحاجب ما يزال يئز رتيباً، ومتكرراً وملحّاً وحيادياً، رغم أن صوت الجرس قد توقف.

الفصل الثامن والعشرون

واجه النائب العام للمقاطعة هيئة المحلفين. «أقدم كدليل هذا الشيء الذي وجد في مشهد الجريمة». كان يحمل في يده عرنوس ذرة. كان يبدو وكأنه قد غمس في طلاء بنّي غامق. "السبب في أن هذا لم يُعرض سابقاً هو أن علاقته بالقضية لم تكن قد توضحت حتى تم الاستماع إلى شهادة زوجة المدعى عليه والتي قرئت للتو بناء على طلبي أمامكم أيها السادة من السجل.

«لقد سمعتم للتو شهادة الكيميائي وطبيب الأمراض النسائية... وهو – كما تعلمون أيها السادة مرجع موثوق في المسائل الأكثر تقديساً والأكثر قداسة في الحياة، ألا وهو كينونة المرأة – وهو يقول إن هذه لم تعد قضية لجلاد المشنقة بل للمحرقة والبنزين..».

قال هوريس: «أعترض! يحاول الادعاء أن يميل..».

قال القاضي: «مقبول. احذف أيها السيد الكاتب الجملة التي تبدأ بـ «وهو يقول إن...» يمكنك أن تبلغ هيئة المحلفين بأن يتجاهلوها».

انحنى النائب العام. التفت إلى الشاهدة حيث كانت تمبل جالسة. من تحت قبعتها السوداء كانت كان شعرها يفلت في خصل حمراء متراصة ككتل من الزبيب. كانت القبعة مزينة بحجر الراين الثمين. على حجرها وهي ترتدي ثوباً أسود من الساتان كانت حقيبة من البلاتين. كانت سترتها

البنية الصفراء باهتة اللون مفتوحة على عقدة كتف أرجوانية، أما يداها فكانتا ساكنتين والكفان إلى الأعلى على حضنها. كانت ساقاها الشقراوان الطويلتان الرشيقتان بكعبين مرتخيتين، وحذاؤها الساكن ذو الإبزيم اللامع مائلاً على جنبه وكأنه فارغ. فوق الوجوه المصطفة والمصممة، البيضاء والشاحبة مثل البطون المنتفخة للسمك الميت، جلست هي بوضعية حيادية وخائفة في آن معاً، وتحديقتها مثبتة على مؤخرة الغرفة. كان وجهها شاحباً تماماً، والبقعتان الحمراوان تشبهان أقراص الورق الملصقة على عظمتي خديها، وفمها مطلي بشكل قوس همجي وكامل، وأيضاً مثل شيء ما رمزي وملغز وقد اقتُطع بعناية من ورق ارجواني وألصق هناك.

وقف النائب العام للمقاطعة أمامها.

«ما اسمك؟» لم تجب. حركت رأسها بخفة كأنما كان هو يعيق نظرها، وراحت تحدق في شيء ما في مؤخرة الغرفة. كرر وهو يتحرك أيضاً ضمن خط نظرها: «ما اسمك؟» تحرك فمها. قال: «بصوت أعلى. ارفعي صوتك. لا أحد سيؤذيك. دعي هؤلاء الرجال الطيبين، هؤلاء الآباء والأزواج، يسمعون ما لديك لتقوليه ولكي يحققوا العدل لما أصابك من ظلم».

نظر القاضي إلى هوريس وقد رفع حاجبيه. ولكن هوريس لم يبد أي حركة. جلس برأس منحنية قليلاً ويداه متشابكتان في حجره.

قالت تمبل: «تمبل دريك».

«سنّك؟».

«ثمانية عشر عاماً».

«أين تسكنين؟».

قالت بصوت يكاد لا يمكن تمييزه: «في ممفيس».

«ارفعي صوتك قليلاً. هؤلاء الرجال لن يؤذوك. إنهم هنا ليحققوا العدل لما أصابك من ظلم. أين كنت تسكنين قبل ذهابك إلى ممفيس؟».

«في جاكسون».

«هل لك أقرباء هناك؟».

«أجل».

«هيا، قولي لهؤلاء الرجال الطيبين».

«أبي».

«هل أمك متوفاة؟».

«أجل».

«هل لديك اي اخوات؟».

«كلا».

«هل أنت الابنة الوحيدة لأبيك؟».

من جديد نظر القاضي إلى هوريس. ومن جديد لم يتحرك هذا.

«أجل».

«أين كنت تسكنين منذ الثاني عشر من أيار (مايو) من هذا العام؟» تحرك رأسها بضعف، وكأنها تريد أن ترى إلى ما ورائه. تحرك ضمن خط نظرها وهو يقف أمام عينيها. حدقت إليه مجدداً، وهي تعطي أجوبتها الببغائية.

«هل كان أبوك يعرف مكان تواجدك؟».

«كلا».

«وأين كان يظن أنك موجودة؟».

«كان يظنني في الكلية؟».

«كنت تختبئين إذاً لأن شيئاً ما حدث لك وأنت لم تجرئي على..».

قال هوريس: «أنا أعترض! السؤال مضلـ..».

قال القاضي: «الاعتراض مقبول. كنت على وشك تحذيرك منذ بعض الوقت أيها السيد النائب العام، ولكن وكيل المدعى عليه لن يقبل أي استثناءات لسبب ما».

انحنى النائب العام للمقاطعة للقاضي. التفت إلى الشاهدة ونظر في عينيها مجدداً.

«أين كنت في صباح يوم الأحد الثاني عشر من أيار (مايو)؟».

«كنت في المذود».

تنهدت القاعة، وهسهس تنفسها الجماعي في الصمت العتيق. دخل واصلون جدد، ولكنهم توقفوا عند مؤخرة القاعة في كتلة واحدة ووقفوا هناك. كانت رأس تمبل قد تحركت مجدداً. التقط النائب العام للمقاطعة تحديقتها وأمسك بها. استدار نصف دورة وأشار إلى غودوين.

«هل سبق أن رأيت هذا الرجل من قبل؟» حدقت إلى النائب العام ووجهها صارم تماماً وفارغ. من مسافة قصيرة كانت عيناها والبقعتان

الحمراوان وفمها أشبه بخمسة أشياء لا مغزى لها في طبق صغير له شكل كالقلب. انظري حيث أشير».

«أجل».

«أين رأيته؟».

«في المذود».

«ما الذي كنت تفعلينه في المذود؟».

«كنت أختبئ».

«ممن كنت تختبئين؟».

«منه؟».

«ذلك الرجل الذي هناك؟ انظري حيث أشير».

«أجل».

«ولكنه وجدك».

«أجل».

«هل كان هناك أي شخص آخر؟».

«تومي كان هناك. قال..».

«هل كان في داخل المذود أم خارجه؟».

«كان في الخارج قرب الباب. كان يراقب. قال إنه لن يسمح لأحد..».

«لحظة واحدة فقط. هل طلبت منه ألا يسمح لأحد بالدخول؟».

«أجل».

«وهل أقفل الباب من الخارج؟».

«أجل».

«ولكن غودوين دخل إلى المكان؟».

«أجل».

«هل كان هناك أي شيء في يده؟».

«كان معه المسدس».

«هل حاول تومي منعه؟».

«أجل. قال إنه..».

«انتظري. ما الذي فعله لتومي؟».

حدقت إليه.

«كان المسدس في يده. ما الذي فعله بعد ذلك؟».

«لقد أطلق النار عليه». تحرك النائب العام جانباً. وعلى الفور مضت تحديقة الفتاة إلى مؤخرة القاعة وثبتت هناك. عاد النائب العام، وخطا نحو خط نظرها. حركت رأسها. التقط تحديقتها وأمسك بها ورفع عرنوس الذرة الملطخ أمام عينيها. تنهدت القاعة وهسهس نفس طويل.

«هل سبق أن رأيت هذا من قل؟».

«أجل».

التفت النائب العام بعيداً. «يا فضيلة القاضي ويا أيها السادة، لقد أصغيتم إلى هذه القصة الرهيبة التي لا تصدق والتي روتها هذه الفتاة لكم. وقد رأيتم الدليل وسمعتم شهادة الطبيب. لن أخضع هذه الطفلة المدمرة والقاصرة عن حماية نفسها إلى عذاب الـ..». ثم توقف عن الكلام. التفتت الرؤوس وكأنها رأس واحدة وراقبت رجلاً يمشي بتشامخ على طول الممر نحو منصة القاضي. كان يسير بثبات، يتبعه ويقيس خطاه انشداه الوجوه البيضاء الصغيرة والهسهسة البطيئة للياقات. كان له شعر أبيض مرتب وشارب مقصوص مثل قضيب من الفضة المطروقة مع بشرة داكنة. كانت عيناه منتفختين قليلاً. كما كانت بذلته الكتانية النظيفة مزررة على كرشه الصغير. وكان يحمل قبعة من قش ملون بيد وعصا رشيقة سوداء في الأخرى. مشى بثبات على طول الممر في الصمت البطيء الذي تم زفره كأنه تنهيدة طويلة، دون أن ينظر إلى أي من الجانبين. مرّ بمنصة الشهود دون أن ينظر إلى الشاهدة إطلاقاً، والتي كانت ما تزال تحدق إلى شيء ما في مؤخرة القاعة، وسار هو أمام خط نظرها كما يفعل العدّاء وهو يتجاوز شريط النهاية، وتوقف أمام القاضي الذي وقف نصف وقفة وذراعاه على المكتب.

قال الرجل العجوز: «يا صاحب الفضيلة، هل أنهت المحكمة شأنها مع هذه الشاهدة؟».

قال القاضي: «أجل يا سيدي. وكيل المدعى عليه، هل تتنازل... "

التفت الرجل العجوز ببطء، بقامة منتصبة فوق الأنفاس المبهورة، والوجوه البيضاء الصغيرة، ثم نظر إلى الأشخاص الستة على منضدة المحامين. من خلفه لم تكن الشاهدة قد تحركت. كانت تجلس بوضعية السكون الطفولي، وهي تحدق كشخص مخدر من فوق الوجوه، نحو مؤخرة القاعة. التفت الرجل العجوز إليها ومدّ يده. لم تتحرك. زفر

الحضور أنفاسهم، ثم شهقوها بسرعة وحبسوها مجدداً. لمس الرجل العجوز ذراعها. التفتت برأسها إليه، وعيناها فارغتان وكلهما بؤبؤان فوق البقع الحمراء الثلاث من الطلاء. وضعت يدها في يده ونهضت. انزلقت الحقيبة البلاتين من حجرها على الأرض محدثة صوت ارتطام خفيف، وحدقت مجدداً إلى مؤخرة القاعة. وبرأس حذائه الصغير اللامع رمى الرجل العجوز بالحقيبة إلى الزاوية التي كانت منصة هيئة المحلفين تلتصق فيها بمنصة القاضي، وحيث كانت هناك مبصقة، ثم أنزل الفتاة من على كرسي الشهود. زفر الحضور أنفاسهم مرة أخرى وهما يتحركان على امتداد الممر.

في منتصف الممر توقفت الفتاة مجدداً، رشيقة في سترتها الأنيقة المفتوحة، ووجهها الفارغ المتيبس، ثم تابعت السير، ويدها في يد الرجل العجوز. سارا على الممر والرجل العجوز منتصب القامة إلى جانبها، دون أن ينظر إلى أي من الجانبين، وتقاس خطواته بالهمسات البطيئة للياقات. ومن جديد، توقفت الفتاة. بدأت تتراجع بألم، وجسدها يتقوس ببطء، وذراعها مشدودة بقبضة الرجل العجوز. انحنى نحوها، وكلمها. تحركت مجدداً، بذلك الذلّ المنكمش والمستغرق. كان أربعة شبان يقفون بتصلب واستقامة عند المخرج. وقفوا هناك كأنهم جنود، وهم يحدقون إلى الأمام حتى وصل الرجل العجوز والفتاة إليهم. ثم تحركوا وأحاطوا بهما، وفي مجموعة متراصة كجسم متراص، والفتاة مخفية بينهم، تحركوا نحو البوابة. وهناك توقفوا مجدداً. كان ممكناً مشاهدة الفتاة منكمشة على الجدار داخل البوابة، وجسدها قد تقوس من جديد. بدت وكأنها تتشبث هناك، ثم أخفتها الأجساد الخمسة مجدداً. ومن جديد انطلق الجسم المتراص للمجموعة عبر البوابة واختفى. تنفس الحضور في القاعة: صعد صوت يئزّ كالريح. تحرك باندفاعة بطيئة متعاظمة، على امتداد المنضدة الطويلة حيث كان

السجين والمرأة والطفل جالسين، وعبر هيئة المحلفين وعلى منصة القاضي في تنهيدة طويلة. كان المحامي من ممفيس جالساً باستقامة، وهو يحدق حالماً عبر النافذة. تذمر الطفل وراح يئنّ.

أسكتته المرأة وهي تقول: «اششششش».

الفصل التاسع والعشرون

خرجت هيئة المحلفين لثماني دقائق. حين غادر هوريس مبنى المحكمة، كان الغسق يقترب، والعربات المربوطة إلى الأوتاد تتحرك، وبعضها سيكون عليه قطع ما بين اثني عشر وستة عشر ميلاً من الطرق الريفية. كانت نرسيسا تنتظره في السيارة. ظهر بين لابسي الأوفرولات، وهو يمشي ببطء. ركب السيارة بتصلب، مثل رجل عجوز، ووجهه كئيب. قالت نرسيسا: «هل تريد الذهاب إلى البيت؟».

قال هوريس: «أجل».

«أعني إلى المنزل أو إلى بيتنا؟».

قال هوريس: «أجل».

كانت تقود السيارة، والمحرك دائر. نظرت إليه، في ثوبها الداكن اللون ذي الياقة البيضاء القاسية، وقبعتها الداكنة أيضاً.

«أيهما؟».

قال: «البيت. لا يهمني. البيت فحسب».

مرا بمبنى السجن. كان المتسكعون يقفون عند الحاجز، وكذلك الريفيون والأوغاد من الشبان والشبان الصغار الذين لحقوا بغودوين

ونائب المأمور من مبنى المحكمة. قرب البوابة وقفت المرأة، في قبعتها الرمادية ذات الخمار، حاملة الطفل بين ذراعيها. قال هوريس: «إنها تقف من حيث يستطيع أن يراه عبر النافذة. أشم رائحة فخذ الخنزير المملح، أنا أيضاً. ربما سيأكل هذا اللحم قبل أن يصل إلى بيته». ثم بدأ يبكي، وهو جالس في السيارة قرب شقيقته. راحت تقود السيارة بثبات دون سرعة. وسرعان ما كانا قد غادرا البلدة وراحت الصفوف السمينة من نباتات القطن الجديدة تتأرجح من جانبي الطريق في حركة تراجعية متوازية ومتلاشية. كان ما يزال هناك بعض الثلج من أزهار أشجار الخروب على الطريق الصاعد. قال هوريس: «إنه يدوم. الربيع يدوم. ربما يظن المرء أن هناك غرضاً ما وراء ذلك».

بقي لتناول العشاء. أكل الكثير من الطعام. قالت شقيقته بلطف شديد: "سأذهب وأرتب لك غرفتك».

قال هوريس: «حسناً. هذا لطف منك». خرجت. كان كرسي الآنسة جني على منصة ذات شقوق من أجل العجلات. قال هوريس: «هذا لطف منها. أعتقد أني سأخرج وأدخن غليوني».

قالت الآنسة جني: «منذ متى توقفت عن التدخين هنا في الداخل؟».

قال هوريس: «أجل، كان ذلك لطفاً منها». سار عبر الرواق ثم داس على الثلج الخجول لآخر زهور شجرة الخروب. خرج من البوابة الحديد نحو الطريق المفروش بالحصى. بعد حوالي ميل أبطأت إحدى السيارات وعرضت عليه الركوب. قال: «أنا أتمشى فحسب قبل العشاء. سأعود قريباً». بعد ميل آخر استطاع أن يرى أنوار البلدة. كان وميضاً ضعيفاً، واطئاً ومتراصاً. أصبح أقوى مع اقترابه من البلدة. قبل وصوله بدأ يسمع الضجة والأصوات. ثم شاهد الناس، كتلة متحركة

تملأ الشارع، والفناء الكئيب الضحل الذي لاحت فوقه الساحة وكتلة السجن ذات الشقوق. في الفناء، تحت النافذة ذات القضبان، كان رجل في قميص يواجه الجمهور بصوت أجش ويقوم بالايماءات. كانت النافذة ذات القضبان فارغة.

توجه هوريس نحو الساحة. كان مأمور الشرطة بين البائعين المتجولين أمام الفندق، يقف عند المنعطف: وهو رجل بدين، ذو وجه عريض وبليد يتناقض مع القلق الذي في عينيه. قال: «لن يفعلوا أي شيء. هناك الكثير جداً من الكلام. الضجيج. وهو مبكر جداً. حين ينوي الغوغاء فعل شيء ما لا يستغرق الأمر منهم كل هذا الوقت والكلام. كما أنهم لا يقومون بعملهم حيث يراهم الجميع».

بقي الحشد في الشارع حتى وقت متأخر. وكان محافظاً على النظام تماماً، على أي حال. كأنما كان معظمهم قد جاء ليرى، لينظر إلى السجن والنافذة ذات القضبان، أو للاصغاء إلى الرجل المرتدي للقميص. بعد فترة من الزمن انتهى من الكلام. بدؤوا يتحركون مبتعدين ويعودون إلى الساحة، والبعض منهم إلى بيوتهم، فلم يتبق سوى مجموعة صغيرة منهم تحت نور القوس عند مدخل الساحة، ومن بينهم كان نائبان مؤقتان للمأمور ومدير الشرطة الليلية في قبعة عريضة فاتحة اللون، ومصباح يدوي وساعة ومسدس. قال: «هيا إلى بيوتكم الآن. العرض قد انتهى. لقد نلتم أيها الشبان ما تريدونه من المتعة. اذهبوا إلى بيوتكم وناموا، الآن».

جلس البائعون المتجولون لفترة أطول على امتداد المنعطف أمام الفندق. وكان هوريس بينهم. كان القطار المتوجه جنوباً ينطلق في الساعة الواحدة. قال أحد الباعة المتجولين: «سيدعونه يفلت بجريمته، أليس كذلك؟ وعرنوس الذرة ذاك؟ أي نوع من البشر لديكم هناك؟ ما الذي يمكنه أن يثير جنونكم أيها الناس؟».

قال ثان: «ما كان ليصل إلى المحاكمة لو كان في بلدتي أنا».

قال ثالث: «ولا إلى السجن حتى. من كانت هي؟».

«طالبة في الكلية. جميلة. ألم ترها؟».

«لقد رأيتها. كانت فتاة جميلة حقاً. يا إلهي. ما كنت لأستخدم أي عرنوس».

ثم هدأت الساحة. دقت الساعة معلنة الحادية عشرة. دخل الباعة الجوالون واقترب البواب الزنجي وأعاد الكراسي إلى الجدار. قال لهوريس: «أتنتظر القطار أنت؟».

«أجل. هل وصلتك أي أخبار عنه بعد؟».

«سيصل في الموعد المحدد. ولكن ليس قبل ساعتين. يمكنك أن تستلقي في غرفة العيّنات لو رغبت في ذلك».

قال الزنجي: «سأريك إياها». كانت غرفة العينات هي المكان الذي يعرض فيه الباعة المتجولون بضائعهم. وكانت تحتوي على أريكة. أدار هوريس النور واستلقى على الأريكة. كان قادراً على رؤية الأشجار من حول مبنى المحكمة، بينما يبرز جناح من البناء فوق الساحة الهادئة والفارغة. ولكن الناس لم يكونوا نائمين. كان يستطيع الشعور بيقظتهم، فالناس في جميع أنحاء البلدة مستيقظون. قال في نفسه: «ما كنت لأستطيع النوم على أي حال».

سمع الساعة تدق الثانية عشرة. ثم... ربما مرت ثلاثون دقيقة أو أكثر من ذلك... سمع شخصاً يمر من تحت النافذة وهو يعدو. بدا وقع قدمي الشخص الذي يعدو أعلى من وقع حوافر حصان، مع صدى

يتردد عبر الساحة الفارغة، عبر الساعات الهادئة التي تمنح للنوم. لم يكن صوتاً سمعه هوريس الآن. كان شيئاً ما في الجو تلاشى فيه صوت العدو.

حين عبر الممر نحو الدرج، لم يعرف أنه كان يعدو حتى سمع صوتاً من وراء باب يقول: «حريق! إنه..». ثم مرّ به. قال هوريس: «لقد أخفته. إنه من سانت لويس ربما، وليس معتاداً على ذلك». خرج من الفندق مسرعاً نحو الشارع. أمامه كان المالك قد بدأ يعدو للتو، بشكل مضحك: رجل عريض وهو يقبض على بنطاله وحمالة البنطال متدلية فوق قميصه الليلي، وخصلة شعثاء من شعره تقف منتصبة بجنون من حول رأسه الصلعاء. مر ثلاثة رجال آخرين بالفندق وهم يركضون. بدوا وكأنهم أتوا من اللامكان، فقد ظهروا في منتصف الممشى من العدم، وهم يرتدون كامل ملابسهم في وسط الشارع، وهم يركضون.

قال هوريس: «إنه حريق». استطاع أن يرى الوهج وكان مبنى السجن مقابله يلوح في صورة جانبية صارماً ومتوحشاً.

قال المالك وهو يتمسك ببنطاله: «إنه في قطعة الأرض الخالية تلك. لا يمكنني الذهاب، لأنه لا يوجد أحد على نضد الاستقبال..».

ركض هوريس. رأى إلى الأمام أشخاصاً آخرين وهم يركضون، وهم ينعطفون إلى الزقاق قرب السجن. ثم سمع صوت الحريق. الصوت الجنوني للبنزين. انعطف نحو الزقاق. استطاع أن يرى اللهب، في منتصف قطعة أرض خالية لا توجد فيها أي عربة من عربات أيام التسوق وقد ثبتت إلى وتد. أمام اللهب بدت أشكال سوداء وغريبة؛ استطاع سماع صرخات لاهثة. عبر فرجة سريعة شاهد رجلاً يلتفت ويهرب، وكتلة من ألسنة اللهيب، وهو ما يزال يحمل صفيحة من زيت

الفحم سعة خمسة غالونات انفجرت بوهج كوهج الصاروخ وهو ما يزال يحملها ويعدو.

هرع نحو الحشد وإلى حلقة تشكلت من حول الكتلة الملتهبة في منتصف قطعة الأرض. ومن أحد جوانب الحلقة وصلت صرخات الرجل الذي انفجرت في يده صفيحة زيت الفحم. ولكن لم يصدر أي صوت عن كتلة الحريق. كانت الآن غير ممكن تمييزها، وألسنة اللهب تدوّم طويلة ومرعدة خارجة من كتلة بيضاء من شدة الحرارة التي كان ممكناً من خلالها تحديد نهايات بعض الأعمدة والألواح الخشبية. ركض هوريس فيما بينهم، وكانوا يمسكون به، ولكنه لم يدرك ذلك. كانوا يتحدثون، ولكنه لم يستطع سماع أصواتهم.

«هذا محاميه».

«هذا هو الرجل الذي دافع عنه. الذي حاول تبرئته».

«ضعوه فيها هو أيضاً. هناك ما يكفي لحرق محام».

«افعلوا بالمحامي ما فعلناه به. ما فعله بها. ولكننا لم نستخدم عرنوس ذرة. جعلناه يتمنى لو استخدمنا عرنوس ذرة».

لم يستطع هوريس سماعهم. لم يستطع سماع الرجل الذي احترق وهو يصرخ. لم يسمع صوت الحريق، رغم أنه كان ما يزال يدوّم نحو الأعلى دون أن يخمد وكأنه يحيا من ذاته، وبدون صوت: صوت غضب كأنما في حلم وهو يهدر من فراغ هادئ.

الفصل الثلاثون

كانت هناك سيارة أجرة تتسع لسبعة ركاب تعمل في محطة القطار في كينستون لنقل الركاب إلى البلدة، ويقودها رجل عجوز نحيل بعينين رماديتين وشارب أشيب مطلي بالشمع في طرفيه. في غابر الأيام قبل أن تزدهر البلدة فجأة كمركز لتجارة الخشب، كان هذا السائق مزارعاً، وصاحب أراض وابن واحد من أوائل من استقروا فيها. وقد خسر أملاكه من الطمع وسهولة الانخداع. وكان يقود عربة بين المحطة والبلدة، بشاربه المشمع وقبعته الطيلسانية ومعطف مهترئ من طراز «برينس ألبرت»؛ ويروح يقص على البائعين الجوالين كيف اعتاد أن يقود المجتمع الكينستوني، والآن هاهو يقود عربة أجرة لأعضاء هذا المجتمع.

بعد انقضاء عصر الخيل، اشترى سيارة، وظل يذهب إلى المحطة مع وصول القطارات. وظل محافظاً على شاربه المشمّع، على الرغم من استبداله القبعة الرياضية بالقبعة الطيلسانية وارتدائه بذلة رمادية مقلمة بالأحمر من صنع اليهود في منطقة المباني ذات الأجرة المنخفضة في نيويورك بدلاً عن معطف الفروك. حين نزل هوريس من القطار، قال له: «ها أنت قد وصلت. ضع حقيبتك في السيارة». دخل إلى السيارة. جلس هوريس إلى جانبه في المقعد الأمامي للسيارة. قال: «لقد تأخرت إذ كان عليك أن تصل بالقطار السابق على هذا».

قال هوريس: «متأخر؟».

«لقد وصلتْ هذا الصباح. أوصلتها إلى البيت. زوجتك».

قال هوريس: «أوه، هل هي في البيت؟».

انطلق الآخر بسيارته وتراجع بها ثم انعطف. كانت سيارة جيدة وقوية وتتحرك بيسر. «متى توقعت مجيئها؟..». تابعا السير. رأيت أين أحرقوا ذلك الشخص في جفرسون. أظن أنك رأيته».

قال هوريس: «أجل. أجل، سمعت عن ذلك».

قال السائق: «كان يستحق ذلك المصير. علينا أن نحمي بناتنا. فقد نحتاج إليهن».

انعطفت السيارة ثم سارت على امتداد أحدد الشوارع. كان هناك ركن تحت ضوء كهربائي عال. قال هوريس: «سأنزل هنا».

قال السائق: «سأوصلك إلى الباب».

قال هوريس: «سأنزل هنا. سأوفر عليك الانعطاف».

قال السائق: «افعل ما تريد. فأنت تدفع نقوداً على أي حال».

نزل هوريس من السيارة وحمل حقيبة ملابسه. لم يعرض السائق أن يلمسها. تابعت السيارة طريقها. حمل هوريس الحقيبة، تلك التي بقيت في الخزانة في منزل شقيقته منذ عشر سنوات والتي جلبها للبلدة معه في ذلك الصباح حين سألته عن اسم النائب العام.

كان منزله جديداً، وله مرج أشبه بمروج الجنيات حيث كانت الأشجار وشجر الحور والقيقب ما تزال جديدة. قبل أن يصل إلى

المنزل، شاهد الستارة الوردية لشبابيك زوجته. دخل إلى المنزل من الخلف ووصل إلى بابها ونظر إلى داخل الغرفة. كانت تقرأ في السرير في مجلة عريضة ذات غلاف ملون. على المنضدة كانت علبة شوكولاته.

قال: «لقد عدتُ».

نظرت إليه عبر المجلة.

قالت: «هل أقفلت من الباب الخلفي؟».

قال هوريس: «أجل، أعرف أنها ستفعل. هل لديك هذه الليلة..».

«ما الذي لديّ؟».

«بِل الصغيرة. هل هتفتِ...؟

«لماذا؟ إنها في تلك الحفلة المنزلية. و لم لا تكون هناك؟ ولماذا عليها ألاّ تلتزم بخططها وترفض الدعوة؟».

قال هوريس: «أجل. أعرف أنها ستفعل ذلك. هل..».

«لقد حادثتها في الليلة قبل الماضية. اذهب واقفل الباب الخلفي».

قال هوريس: «أجل. هي حسنة جداً. طبعاً هي كذلك. سوف..».
كان الهاتف على منضدة في البهو المعتم. كان الرقم المطلوب على خط ريفيّ، وهو يستغرق بعض الوقت حتى يتاح الاتصال به. جلس هوريس قرب الهاتف. كان قد ترك الباب عند نهاية البهو نصف مفتوح. ومن خلاله وصلته الريح الخفيفة لليل الصيفي، غامضة ومقلقة. قال بهدوء وهو يحمل السماعة: «الليل صعب على كبار السن. ليالي الصيف صعبة عليهم. لا بدّ من فعل شيء فيما يخص هذا الأمر. قانون ما».

من غرفتها نادت بِل باسمه بصوت شخص مستلقٍ: «لقد هاتفتُها في الليلة قبل الماضية. لماذا تريد إزعاجها؟».

قال هوريس: «أعرف. لن أطيل المكالمة».

أمسك بالسماعة وهو ينظر إلى الباب الذي كانت تأتي منه الريح الغامضة المقلقة. بدأ يقول شيئاً ما من كتاب كان قد قرأه: « كلما كانت المرات أقل، يعم السلام».

حصل الاتصال الهاتفي. قال هوريس: «ألو، ألو، بِل؟».

«نعم؟» وصل صوتها نحيلاً وضعيفاً. «ما الأمر؟ هل هناك خطب ما؟».

قال هوريس: «كلا، كلا. أردت فقط أن أحييك وأقول ليلتك سعيدة».

«تحيي من؟ ما الأمر؟ من المتكلم؟» أمسك هوريس بالسماعة وهو جالس في البهو المعتم.

«هذا أنا هوريس. هوريس. أردت فحسب أن..».

عبر الخط الرقيق وصل صوت مشاجرة. استطاع أن يسمع بِل الصغيرة وهي تتنفس. ثم جاءه صوت ذكر: «ألو، يا هوريس، أريدك أن تقابل..».

قالت بِل الصغيرة بصوت نحيل وضعيف: «صه!». ومن جديد سمع هوريس صوتيهما وهما يتشاجران. مرت فترة صمت. قال صوت بِل الصغيرة: «توقف عن هذا! إنه هوريس! أنا أسكن معه!» وضع هوريس السماعة على أذنه. كان صوت بِل الصغيرة لاهث الأنفاس ومتحكماً به وهادئاً وحذراً وحيادياً. "ألو يا هوريس، هل ماما في حال حسنة؟».

«أجل. نحن في أحسن حال. أردت فحسب أن أخبرك..».

«أوه، ليلتك سعيدة».

«ليلتك سعيدة. هل تمضين وقتاً طيباً؟».

«أجل. أجل. سأكتب غداً. ألم تصل رسالتي إلى أمي هذا اليوم؟».

«لا أعرف. أنا..».

«ربما نسيت أن أرسلها بالبريد. لن أنسى ذلك غداً على أي حال. سأكتب غداً. هل كان هذا كل ما أردتَ معرفته؟».

«أجل، أردتُ فحسب أن أخبرك..».

أعاد السماعة إلى مكانها. سمع الخط الهاتفي والحرارة تموت فيه. كان النور من غرفة نوم زوجته يسقط عبر البهو. قالت: «اقفل الباب الخلفي».

الفصل الواحد والثلاثون

بينما كان في طريقه إلى بنساكولا لزيارة أمه، ألقي القبض على بوباي في برمينغهام بتهمة قتل رجل شرطة في بلدة صغيرة في ألاباما في ١٧ حزيران (يونيو) من ذلك العام. وقد ألقي القبض عليه في آب (أغسطس). وفي ليلة ١٧ حزيران تلك كانت تمبل قد مرت به وهو جالس في السيارة المتوقفة قرب الطريق ليلة مقتل رِد.

في كلِ صيف كان بوباي يذهب ليرى أمه. كانت تظن أنه يعمل موظفاً ليلياً في فندق في ممفيس.

كانت أمه ابنة قيّم على نُزُل. أما أبوه فكان مفسِد إضراب محترف يعمل لصالح شركة سكة حديد لإفساد إضراب جرى في عام ١٩٠٠. كانت أمه في ذلك الحين تعمل في متجر كبير في مركز المدينة. لثلاث ليال كانت تركب حافلة الترام إلى البيت قرب مقعد السائق الذي كان والد بوباي يركب فيه. في إحدى الليالي، نزل مفسد الإضراب في الموقف الذي تنزل هي فيه وسار معها إلى المنزل.

قالت: «ألن يطردوك من العمل؟».

قال مفسد الإضراب: «ومن سيطردني؟» سارا معاً. كان يرتدي ملابس لائقة. «أولئك الآخرون سيعتبرونني كذلك بتلك السرعة. وهم يعرفون ذلك أيضاً».

«من سيعتبرك؟».

«المضربون. لا يهمني أبداً من يقود العربة. أترين ما أعني؟ سأركب مع هذا حالما أركب مع الآخر. وعلى نحو عاجل أكثر لو استطعت قطع هذه الطريق كل ليلة في هذا الموعد».

كانت تمشي إلى جانبه. قالت: «أنت لا تعني ذلك».

«بل أفعل بكل تأكيد». وأمسك بذراعها.

«أظنّ أنك ستتزوج إحداهن كما من واحدة أخرى غيرها؛ بالطريقة نفسها».

قال: «ومن قال لك ذلك؟ هل يتحدث أولاد الحرام أولئك عني؟».

بعد شهر من ذلك قالت له إنه لا بدّ لهما من الزواج.

قال: «ما الذي تعنينه بأنه لا بدّ لنا من ذلك؟».

«لا أجرؤ على إخبارهم. عليّ أن أبتعد. لا أجرؤ».

«حسناً، لا تقلقي. يسرني ذلك. عليّ المرور هنا كل ليلة على أي حال».

تزوجا. كان يمرّ بالموقف ليلاً. وكان يقرع الجرس الذي يعمل بدواسة للقدم. أحياناً كان يأتي إلى البيت. كان يعطيها نقوداً. أحبته أمها؛ كان يأتي مزمجراً إلى المنزل في موعد العشاء يوم الأحد، وينادي على الزبائن الآخرين، وحتى العجائز منهم، بأسمائهم الأولى. ثم حدث أنه لم يعد في أحد الأيام. لم يرن الجرس بقدمه والحافلة تمر. كان الإضراب قد انتهى آنذاك. وصلتها بطاقة معايدة في عيد الميلاد؛ وكانت عبارة عن صورة لجرس وإكليل مزين بنقوش نافرة ومذهّبة من بلدة في ولاية جورجيا. كان فيها يقول: «يحاول الرجال أن يصلحوا الأمر هنا،

ولكن هؤلاء الأشخاص بطيئون جداً. ربما سنستمر حتى نضرب بلدة جيدة ها هه». كانت كلمة «نضرب» أو «إضراب» مرسوم تحتها خط.

بعد ثلاثة أسابيع من زواجها، بدأت تعاني من المرض. كانت حاملاً وقتها. لم تذهب إلى طبيب لأن امرأة زنجية عجوزاً قالت لها ما هي علتها. ولد بوباي يوم عيد ميلاد المسيح الذي استلمت هي فيه البطاقة. في البداية ظنوه أعمى. ثم اكتشفوا أنه لم يكن أعمى، على الرغم من أنه لم يتمكن من تعلم المشي والكلام حتى أصبح عمره حوالي السنوات الأربع. في تلك الأثناء، فإن الزوج الثاني لأمها، وهو رجل ضئيل الجسم ومحب للسعوط له شارب لطيف وكثيف كان يعمل خزافاً... لقد أصلح جميع الدرجات المكسورة للسلالم والبلاليع الخربة وما شابه... غادر المنزل في عصر أحد الأيام ومع شيك موقع على بياض ليدفع اثني عشر دولاراً للجزار. ولكنه لم يعد قط. لقد سحب من المصرف مدخرات زوجته البالغة ألفاً وأربعمائة دولار واختفى.

كانت الابنة ما تزال تعمل في مركز المدينة، بينما تعتني أمها بالطفل. في عصر أحد الأيام عاد أحد النزلاء ووجد غرفته تحترق. أطفأ الحريق. بعد أسبوع من ذلك، وجد دخاناً خانقاً في سلة مهملاته. كانت الجدة تعتني بالطفل. كانت تحمله معها أنى ذهبت. في إحدى الأمسيات اختفت عن الأنظار. خرج جميع النزلاء إلى الشارع. أطلق أحد الجيران إنذار الحريق ووجد رجال الإطفاء الجدة في العلية، وهي تدوس على حريق في حفنة من النجارة في وسط الأرضية لتطفئه، والطفل نائم في فرشة عتيقة إلى القرب منها.

قالت المرأة العجوز: «أولاد الحرام أولئك يحاولون قتله. لقد أشعلوا النار في المنزل. في اليوم التالي غادر جميع النزلاء.

تخلت المرأة الشابة عن عملها. راحت تمكث في المنزل طوال الوقت. قالت الجدة: «عليك أن تخرجي وتشمي بعض الهواء».

قالت الابنة: «أشم ما يكفي من الهواء هنا».

قالت الأم: «تستطيعين الخروج وشراء البقالة. ستشترينها بسعر أرخص».

«تصلنا رخيصة بما فيه الكفاية».

كانت تراقب كل النيران. ما كانت تترك عود كبريت في المنزل. كانت تحتفظ ببعضها مخبأة خلف آجرة في الجدار الخارجي. كان بوباي في الثالثة من عمره في ذلك الحين. كان يبدو كابن سنة واحدة من العمر، على الرغم من انه كان قادراً على الأكل جيداً. كان أحد الأطباء قد قال لأمه أن تطعمه بيضاً مقلياً بزيت الزيتون. في عصر أحد الأيام دخل صبي البقال إلى الساحة الداخلية للبناء على دراجة هوائية فزلق وسقط أرضاً. تسرب شيء من الرزمة. قال الصبي: «ليس هذا بيضاً. أترون؟» كانت تلك زجاجة من زيت الزيتون. قال الصبي: «عليكم شراء ذلك الزيت في صفائح على أي حال. ليس من فارق يميزها عن الزجاجة. سأحضر لك واحدة أخرى. وعليك أن تصلحي ذلك الباب. هل تريدين أن أكسر عنقي بسببه؟».

لم يعد حتى الساعة السادسة. كان الوقت صيفاً. لم يكن في البيت نار، ولا عود ثقاب واحد. قالت الابنة: «سأعود خلال خمس دقائق».

غادرت المنزل. راقبتها الجدة تختفي، ثم لفت الطفل ببطانية خفيفة وغادرت المنزل. كان الشارع جانبياً، يبعد قليلاً عن شارع رئيسي حيث الأسواق وحيث يتوقف الأشخاص الأغنياء في سيارات فاخرة

على الطريق إلى بيوتهم للتسوق. حين وصلت إلى ركن، كانت هناك سيارة تتمهل لتنعطف. خرجت امرأة من سيارة ودخلت إلى متجر، تاركة سائقاً زنجياً خلف المقود. ذهبت الجدة إلى السيارة.

قالت: «أريد نصف دولار».

نظر الزنجي إليها: «تريدين ماذا؟».

«نصف دولار. لقد كسر الصبي الزجاجة».

قال الزنجي: «أوه». بحث في جيبه. "كيف سأبقي السيارة باستقامة وأنت تجبين المال هنا؟ هل أرسلتك إلى هنا لجلب النقود؟».

«أريد نصف دولار. لقد كسر الصبي الزجاجة».

قال الزنجي: «أعتقد أنه من الأفضل لي أن أدخل إلى المتجر إذاً. يبدو لي أنكم أيها الناس تشاهدون ما يشتريه الناس، الناس الذين يتعاملون مع هذا المتجر منذ وقت طويل».

قالت المرأة: «إنه نصف دولار». أعطاها نصف دولار ودخل المتجر. راقبته المرأة. ثم وضعت الطفل على مقعد السيارة ولحقت بالزنجي. كان المتجر من النوع الذي يعتمد على الخدمة الذاتية ويتحرك الزبائن فيه ببطء على امتداد درابزون في رتل واحد. كان الزنجي يقف في الرتل وراء المرأة البيضاء التي نزلت من السيارة. راقبت الجدة المرأة وهي تسلم إلى الزنجي حفنة من زجاجات الصلصة والكتشاب. قالت: «ثمن هذه دولار وربع الدولار». أعطاها الزنجي النقود. أخذتها ودفعتها ثم عبرت المتجر. كانت هناك زجاجة من زيت الزيتون الإيطالي المستورد وعليها لصاقة السعر. قالت: «لديّ ثمانية وعشرون سنتاً أخرى». تابعت السير وهي تراقب لصاقات الأسعار، حتى وجدت واحدة سعرها ثمانية

وعشرون سنتاً. كانت تلك عبارة عن سبعة ألواح من صابون الحمام. وبالرزمتين غادرت المتجر. كان هناك شرطي عند الركن. قالت: «لم يعد لديّ عيدان ثقاب».

بحث الشرطي في جيبه. قال: «لم لم تشتري البعض منها وأنت في الداخل هناك؟».

«لقد نسيت فحسب. أنت تعرف كيف يكون الأمر عندما تتسوق ومعك طفل».

قال الشرطي: «وأين الطفل؟».

قالت المرأة: «لقد قايضت به في الداخل».

قال الشرطي: «لا بدّ أنك تعملين في الفودفيل[1]. كم عود ثقاب تريدين؟ ليس معي سوى واحد أو اثنين».

قالت المرأة: «واحد فحسب. أنا لا أشعل ناراً إلا بواحد فقط».

«لا بد أنك تعملين في الفودفيل. تريدين إحراق المبنى».

قالت المرأة: «أجل. سأحرق المبنى».

نظر إليها: «أي مبنى؟ مأوى الفقراء؟».

قالت المرأة: «سأحرقه. راقب الصحف غداً. آمل أن يذكروا اسمي على النحو الصحيح».

«ما هو اسمك؟ كالفين كوليدج[2]؟».

١– الفودفيل: تمثيلية خفيفة هزلية يتخللها غناء وموسيقى.

٢– كالفين كوليدج: (١٨٧٢– ١٩٣٣) رئيس الولايات المتحدة ١٩٢٣–١٩٣٣.

«كلا يا سيدي. هذا اسم ابني».

«لهذا السبب لاقيتِ الكثير من المتاعب وأنت تتسوقين. لا بد أنك تعملين في الفودفيل... هل يكفيك عودا ثقاب؟».

كانوا قد تلقوا ثلاثة إنذارات من هذا العنوان، لذا لم يستعجل رجال الإطفاء تلبية النداء. كانت الابنة أول من وصل إلى المنزل. كان الباب مقفلاً، وحين وصل رجال الإطفاء وحطموه، كان المنزل قد سبق له وتقوّض. كانت الجدة تطل من نافذة في الطابق العلوي سبق للدخان أن راح يخرج منها متعرجاً. قالت: «أولاد الحرام أولئك. لقد ظنوا أنهم يستطيعون الوصول إليه. ولكني أخبرتهم أني سأريهم. لقد قلت لهم ذلك».

ظنت الأم أن بوباي قد لقي حتفه أيضاً. وقد أمسكوا بها وهي تزعق بينما اختفى الوجه الصارخ للجدة في الدخان، وآل المنزل إلى التصدع. كان ذلك حين كان الشرطي وهو يحمل الطفل قد وصل إليها: امرأة شابة بوجه هائج وفم فاغر، تنظر إلى الطفل بطريقة غامضة، وهي ترفع شعرها ببطء عن صدغيها ببطء بكلتا يديها. لم تسترجع رشدها تماماً. فمع العمل الشاق والنقص في الهواء النقي وانعدام التسلية والمرض، والتركة التي خلفها لها زوجها الذي عرفته لفترة وجيزة، لم تكن هي في حالة تتحمل معها الصدمة إطلاقاً. حتى لقد مرت عليها أوقات اعتقدت بها أن الطفل قد مات حقاً، رغم أنها كانت تحمله بين ذراعيها وتدندن له.

كان يمكن لبوباي أن يموت مبكراً. فحتى سن الخامسة لم يكن لديه أي شعر، وكان في ذلك الحين قد سبق له وأصبح تلميذاً نهارياً في مؤسسة: طفل ضعيف البنية غير مرغوب فيه بمعدة شديدة الحساسية

حتى أن أقل انحراف عن النظام الغذائي القاسي الذي حدده له الطبيب، كان يسبب له أقوى التشنجات. قال الطبيب: الكحول سيقتله شأن سم الستريكنين، وهو لن يعرف الرجولة قط، إذا ما أردنا التحدث بلباقة. ولكنه لن يصبح أكبر سناً مما هو عليه الآن». كان يتحدث إلى المرأة التي وجدت بوباي في سيارتها في ذلك اليوم الذي أحرقت فيه جدته المنزل والتي كان بوباي تحت رعاية الطبيب بتحريض منها. كانت تأخذه إلى بيتها في وقت العصر وفي أيام العطل، حيث كان يلعب وحيداً. قررت أن تقيم حفلة للأطفال من أجله. حكت له عنها واشترت له بذلة جديدة. حين حل عصر اليوم الذي ستقام فيه الحفلة، وبدأ الضيوف بالقدوم، لم يتمكنوا من إيجاد بوباي. وأخيراً وجد أحد الخدم باب حمام مقفل. نادوا على الطفل، ولكن دون جواب. أرسلوا يستدعون قفّالاً حطم الباب بفأس. كان الحمام فارغاً. كانت نافذته مفتوحة وهي تطل على سقف أدنى كان أنبوب تصريف ينزل منه إلى الأرض. ولكن بوباي كان قد رحل. على الأرض كان قفص من القصب يعيش فيه طيران من طيور الحب، وإلى جواره كان الطيران، والمقص الدامي الذي قتلهما به.

بعد ثلاثة أشهر وبتحريض من جار لأمه، ألقي القبض على بوباي وأرسل إلى مأوى للأطفال غير القابلين للإصلاح. كان قد ذبح قطة صغيرة بالطريقة نفسها.

كانت أمه مريضة وعاجزة. وراحت المرأة التي حاولت مصادقة الطفل تدعمها، فكانت تحضر لها أشغالاً بالصنارة وما شابه. بعد أن خرج بوباي من المأوى... وكان ذلك بعد خمس سنوات، وقد أصبح سلوكه جيداً، كان يكتب لها مرتين أو ثلاث مرات في العام، من بلدة موبايل ثم من نيو أورليانز وبعدها من ممفيس. في كل صيف كان يعود

إلى البيت ليراها، وهو غني وهادئ ونحيل وأسمر في بذلاته السوداء الضيقة. كان يقول لها إن عمله كان موظفاً ليلياً في الفنادق. وأنه بسبب مهنته ينتقل من بلدة إلى أخرى كما هو من شأن طبيب أو محام.

وبينما كان في طريقه إلى بيت أمه في ذلك الصيف، ألقي القبض عليه جراء قتله لرجل في إحدى البلدات، وفي الوقت الذي كان فيه في بلدة أخرى يقتل شخصاً آخر... ذلك الرجل الذي كان يكسب الكثير من المال ولا يعرف ما يفعله به أو ينفقه لأجله، منذ أن عرف أن الكحول سيقتله كالسم، و لم يكن له أصدقاء و لم يسبق له أن عرف النساء، وكان يعرف أنه ما كان قادراً على معرفتهن... وقال: «بحق المسيح»، وهو ينظر في أرجاء الزنزانة في سجن البلدة حيث قتل رجل الشرطة؛ ويده الحرة (الأخرى كانت مصفدة مع يد الشرطي الذي جلبه من برمينغهام) ليتناول لفافة من جيب سترته.

قالوا: «دعوه يتصل بمحاميه، وارفعوا ذلك عن صدره. هل تريد الاتصال بالهاتف؟».

قال: «لا»، وعيناه الباردتان الناعمتان تلمسان السرير باختصار، والنافذة الصغيرة العالية، والباب الذي كان النور يسقط منه. أشعل اللفافة ورمى بعود الثقاب إلى الباب. «ما الذي أريده من محام؟ لم يسبق لي أن كنت...ما اسم مستودع النفايات هذا؟».

قالوا له. «لقد نسيت، أليس كذلك؟».

قال آخر: «لن ينساه أبداً بعد الآن؟».

«باستثناء أنه سيتذكر اسم محاميه مع حلول الصباح».

تركوه يدخن وهو على السرير. سمع أبواباً تصطفق. بين الحين

والآخر كان يسمع أصواتاً صادرة عن زنازين أخرى. في مكان ما في آخر الممر كان زنجي يغني. استلقى بوباي على السرير وقدماه متصالبتان في فردتي حذائه السوداوين والصغيرتين واللامعتين. قال: «بحق المسيح».

في صباح اليوم التالي سأله القاضي إن كان يريد محامياً.

قال: «لماذا؟ لقد قلت لهم في الليلة الماضية إنه لم يسبق لي أن كنت في هذه البلدة طوال حياتي. لا أحب بلدتكم بما فيه الكفاية لأجلب إليها شخصاً غريباً مقابل لا شيء».

تشاور القاضي ومأمور الشرطة على انفراد.

قال القاضي: «الأجدر بك أن تتصل بمحاميك».

قال بوباي: «حسناً». التفت تتحدث إلى عموم من كانوا في الغرفة. «هل يريد أي واحد منكم أيها السادة عملاً ليوم واحد؟».

ضرب القاضي بمطرقته على منضدته. التفت بوباي إليه، وكتفاه الضيقتان مرفوعتان في لامبالاة، ويده تتحرك نحو جيبه حيث يضع لفافاته. عيّن له القاضي محامياً، وهو شاب تخرج من كلية الحقوق للتو.

قال بوباي: «ولن أكترث لو تعرضت للشنق. هيا أنهوا الأمر حالاً».

قال القاضي له: «لن تحصل مني على أي كفالة إفراج، بأي حال من الأحوال».

قال بوباي: «ماذا؟» ثم قال لمحاميه: «حسناً يا جاك، هيا بنا. ينتظرونني في بناسكولا الآن بالضبط».

قال القاضي: «أعيدوا السجين إلى السجن».

كان لمحاميه وجه قبيح ومتلهف وجدي. راح يتكلم بنوع من الحماسة الكئيبة بينما بوباي يستلقي على السرير، يدخن، وقبعته فوق عينيه، دون حراك كحية تتشمس باستثناء الحركة الدورية لليد التي تمسك باللفافة. أخيراً قال: «اسمع، لست القاضي. قل له كل شيء».

«ولكن لديّ..».

«بكل تأكيد. قل ذلك لهم. لا أعرف أي شيء عن هذا الأمر. لم أكن هنا حتى. اخرج وابتعد عن هذا المكان».

استمرت المحاكمة يوماً واحداً. فبينما شهد شرطي زميل للقتيل وبائع سيجار وفتاة تعمل في دائرة الهاتف، وبينما ردّ محاميه بمزيج كئيب من الحماسة الخرقاء وسوء التقدير الحماسي، كان بوباي يجلس في كرسيه وينظر عبر النافذة إلى الخارج من فوق رؤوس أعضاء هيئة المحلفين. كان يتثاءب بين الحين والآخر، ويده تتحرك نحو الجيب الذي وضع فيه لفافاته، ثم تتراجع وتتكاسل فوق قماش بذلته السوداء، في الموات الشمعي للشكل والحجم كأنها يد دمية.

خرج أعضاء هيئة المحلفين لثماني دقائق. وقفوا ونظروا إليه وقالوا إنه مذنب. نظر إليهم بدوره دون أن يغير من وضعه ودون أن يتحرك، في صمت بطيء لعدد من اللحظات. قال: «حسناً، بحق المسيح».

دق القاضي بحدة بمطرقته. لمس الشرطي ذراعه.

تلعثم المحامي وهو يجلس إلى القرب منه. "سأستأنف الحكم. سأحاربهم في كل محكمة..».

قال بوباي: «بكل تأكيد» وهو مستلق على السرير ويشعل لفافة. «ولكن ليس هنا. ارحل الآن، اذهب وتناول حبة دواء».

كان النائب العام للمقاطعة قد سبق له وخطط للاستئناف.

قال: «كانت القضية سهلة جداً. لقد تقبّل الحكم... هل رأيتم كيف تقبّله؟ وكأنه كان يصغي إلى أغنية هو أكسل من أن يحبها أو لا يحبها؛ والمحكمة تقول له في أي يوم سيكسرون له عنقه. ربما لديه محام من ممفيس سبق أن وصل إلى هنا وهو خارج بوابة المحكمة العليا الآن، منتظراً اتصالاً هاتفياً. أعرفهم. إنهم أولئك السفاحون الذين جعلوا من العدالة مضحكة، فحتى لو حصلنا على إدانة، يعرف كل شخص أنها لن تدوم».

بعث بوباي وراء السجان وأعطاه ورقة المائة دولار. أراد منه إحضار عدة حلاقة ولفافات. قال: «احتفظ بالباقي ودعني أعرف متى تنفد منك لفافاتك».

قال السجان: «أعتقد أنك لن تدخن طويلاً معي. ستحصل على محام جيد».

قال بوباي: «لا تنس ذلك العطر لما بعد الحلاقة. اسمه «إد بينو». ولفظها «باينو»».

كان ذلك صيفاً رمادياً، وبارداً باعتدال قليلاً. كان القليل من ضوء النهار يصل إلى الزنزانة في فسيفساء عريضة وشاحبة، ويصل إلى السرير حيث قدماه. أعطاه السجان كرسياً. وقد استخدمه كمنضدة، ووضع عليها ساعته التي ثمنها دولار واحد، وكرتونة دخان ووعاء حساء مكسور لأعقاب اللفافات. وكان يستلقي على السرير ويدخن ويتأمل في قدميه بينما راحت الأيام تمر. أصبحت لمعة حذائه تخبو وكانت ملابسه في حاجة إلى كيّ، لأنه كان يستلقي بها طوال الوقت، لأن الجو بارد في الزنزانة الحجرية.

في أحد الأيام قال له السجان: «هناك أشخاص هنا يقولون إن نائب المأمور كان يستحق القتل. لقد ارتكب أمرين أو ثلاثة من النوع الخسيس، ويعرف الناس عنها». راح بوباي يدخن، وقبعته فوق وجهه. قال السجان: «ربما لن يرسلوا برقيتك. هل تريد مني أن أرسل لك واحدة أخرى؟» كان بوباي يتكئ على الحاجز المقضب ويستطيع رؤية قدمي بوباي، وساقيه النحيلتين السوداوين لا تتحركان، وهما تتحدان مع الكتلة الدقيقة لجسده المستلقي والقبعة فوق وجهه الذي كان يديره إلى الجدار، واللفافة في يد صغيرة واحدة. كانت قدماه في الظل، في ظل جسم السجان حيث كان يخفي الحاجز المقضب. وبعد فترة غادر السجان بهدوء.

حين كان قد تبقى لبوباي ستة أيام، عرض عليه السجان أن يحضر له بعض المجلات وأوراق اللعب.

قال بوباي: «لماذا؟» وللمرة الأولى نظر إلى السجان، برأس مرفوعة، وعيناه مستديرتان ورقيقتان في وجهه الصقيل والشاحب، أشبه برؤوس تلك القوابض بالالتواء التي توضع على أسهم دمى الأطفال. ثم استلقى مجدداً. بعد ذلك، وكل صباح، كان السجان يدفع صحيفة مطوية عبر الباب. كانت تقع على الأرض وتبقى هناك، وتتراكم دون أن تفتح ثم تسطح ببطء بثقل وزنها في تسلسل يومي.

حين كان قد تبقى له ثلاثة أيام، وصل محام من ممفيس. ودون طلب من أحد، اندفع نحو الزنزانة. طوال ذلك الصباح كان السجان يسمع صوت المحامي وهو يناشد بوباي ثم يغضب ثم يجادل بعنف. عند الظهيرة كان صوته قد بحّ و لم يعد أعلى من همسة.

«هل ستبقى مستلقياً هنا وتتركهم...».

قال بوباي: «أنا في حال حسنة. لم أطلب منك المجيء. لا تتدخل».

«هل تريد أن تُشنق؟ هل هذا هو الأمر؟ هل تحاول الانتحار؟ هل أنت مرهق جداً وفاقد للأمل إلى حد... أنت الأذكى بين..».

«قلت لك من قبل إني نلت كفايتي منك».

«أنت، أن تتركهم يتهمونك بالجريمة لمجرد ممارسة لعبة صغيرة! حيث أعود إلى ممفيس وأحكي لهم، لن يصدقوني».

«لا تقل لهم إذاً». ظل مستلقياً لفترة من الوقت بينما المحامي ينظر إليه في حالة من عدم التصديق المنذهل والغاضب. قال بوباي: «يا لهم من أجلاف ملاعين. بحق المسيح... ارحل عني الآن. سبق وقلت لك إني في حال حسنة».

في الليلة السابقة كان قسيس قد دخل إليه. قال: «هل تسمح لي أن أصلي معك؟».

قال بوباي: «بكل تأكيد. هيا، لا تكترث بوجودي».

ركع القسيس قرب السرير حيث استلقى بوباي وهو يدخن. بعد فترة قصيرة سمعه القسيس وهو ينهض ويمشي في الزنزانة ثم يعود إلى السرير. حين نهض كان بوباي مستلقياً على السرير وهو يدخن. نظر القسيس إلى الخلف حيث سمع بوباي يتحرك، وشاهد اثنتي عشرة علامة تبتعد الواحدة عن الأخرى على امتداد قاعدة الجدار، كأنها عُلِّمت بأعواد ثقاب محترقة. كان اثنان من الفراغات قد ملئا بعقبي لفافة تبغ في صفين منتظمين. في الفراغ الثالث كان عقبا لفافة. وقبل أن يغادر راقب بوباي وهو ينهض ويذهب إلى هناك ويسحق عقبين آخرين ويضعهما بعناية قرب الأعقاب الأخرى.

بعد الساعة الخامسة مباشرة، عاد القسيس. كانت الفراغات كلها مملوءة باستثناء الثاني عشر. كانت تشكل ثلاثة أرباع كاملة. كان بوباي مستلقياً على السرير. قال له: «هل أنت مستعد للذهاب؟».

قال القسيس: «ليس بعد. حاول أن تصلّي. حاول».

قال بوباي: « بكل تأكيد. هيّا». ركع القسيس مجدداً. سمع بوباي ينهض مجدداً ويعبر الزنزانة ثم يعود.

في الخامسة والنصف وصل السجان. قال: «جلبتُ..». أدخل قبضته المغلقة عبر القضبان. «ها هي بقية المائة دولار خاصتك... لقد اشتريت... إنها ثمانية وأربعود دولاراً. انتظر. سأعدها مرة أخرى. لا أعرف بالضبط، ولكني أستطيع أن أعطيك قائمة بها... تلك البطاقات..».

قال بوباي: «احتفظ بها. اشتر لنفسك طوقاً».

أتوا من أجله في الساعة السادسة. ذهب القسيس معه، ويده تحت مرفق بوباي، ووقف تحت المشنقة وهو يصلي، بينما عدلوا الحبل ثم مرروه من فوق رأس بوباي الأملس المزيّت، فشعثوا له شعره. قُيدت يداه فبدأ يحرك رأسه، ويرمي بشعره إلى الخلف في كل مرة كان يسقط بها إلى الأمام، بينما كان القسيس يصلي، والآخرون دون حراك في مواقعهم ورؤوسهم مطأطئة.

بدأ بوباي يحرك عنقه إلى الأمام في نخعات صغيرة. راح يبسبس بصوت حاد قاطع به الصوت الرتيب للقسيس. بسبس مرة أخرى. نظر مأمور الشرطة إليه. توقف هو عن نخع عنقه ووقف بتصلب وكأن هناك بيضة متوازنة فوق رأسه. قال: «رتّب لي شعري يا جاك».

قال المأمور: «بكل تأكيد. سأرتبه لك». وفتح باب الكوة التي تحت قدمي بوباي.

***

كان ذلك يوماً رمادياً، من صيف رمادي من سنة رمادية. في الشارع كان رجال يرتدون المعاطف، وفي حدائق لوكسمبورغ وبينما كانت تمبل وأبوها يمران، كانت النسوة جالسات وقد ارتدين الشالات ورحن يحبكن بالأبر، وحتى الرجال الذين يلعبون الكريكيت كانوا يرتدون سترات وقبعات؛ وفي الظل المعتم الحزين لشجر الكستناء كانت الطقطقة الجافة للكرات والصرخات العشوائية للأطفال تتميز بتلك الخاصية التي للخريف، لبقة وسريعة الزوال وبائسة. وصل صوت الموسيقى من خلف الدائرة بدرابزونها الإغريقي الزائف، المتكتلة بالحركة، والممتلئة بنور رمادي من اللون والتركيب نفسه الذي للماء الذي كانت تلعب به النافورة. مضيا في طريقهما ومرا بالبركة حيث كان الأطفال ورجل عجوز في معطف بني رث، يسيّرون في الماء زوارق صغيرة هي مجرد دمى، ثم دخلا بين الأشجار ثانية ووجدا مقعدين. على الفور، وصلت امرأة عجوز بهمة عاجزة وحصلت على أربعة فلوس.

في سرادق كانت فرقة موسيقية في أزياء بلون الأفق الأزرق الخاص بالجيش تعزف مقطوعات لماسينيه وسكريابين وبرليوز مثل طلاء رقيق لتشايكوفسكي المعذَّب على شريحة خبز بائتة، بينما ينحل الغسق في ومضات رطبة من الأغصان، نحو السرادق والمظلات التي لها شكل الفطر السام المعتم اللون. راحت الآلات النحاسية تقعقع وتصمت في الغسق الأخضر الكثيف، وهي تدوي فوقهم في موجات حزينة قوية. تثاءبت خلف يدها ثم أخرجت علبة تجميل وفتحتها على وجه في صورة مصغرة كئيبة وساخطة وحزينة. إلى القرب منها جلس أبوها،

ويداه متصالبتان على رأس عصاه، والقضيب القاسي الذي يشكل شاربه قد ظهرت عليه كريات من الرطوبة مثل الفضة المتجمدة. أغلقت علبة التجميل ومن تحت قبعتها الحديدة الأنيقة بدت وكأنها تتابع بعينيها موجات الموسيقى، لتنحل في صوت الموسيقى النحاسية المتلاشية، عبر البركة وعبر نصف الدائرة المقابلة من الأشجار حيث في الفترات الفاصلة راحت الملكات الميتات الهادئات المصنوعات من الرخام المصبوغ تتأمل، عبر السماء المنبطحة والمهزومة في عناق مع موسم المطر والموت.

كان ذلك يوماً رمادياً، من صيف رمادي من سنة رمادية. في الشارع كان رجال يرتدون المعاطف، وفي حدائق لوكسمبورغ وبينما كانت تمبل وأبوها يمران، كانت النسوة جالسات وقد ارتدين الشالات ورحن يحبكن بالأبر، وحتى الرجال الذين يلعبون الكريكيت كانوا يرتدون سترات وقبعات؛ وفي الظل المعتم الحزين لشجر الكستناء كانت الطقطقة الجافة للكرات والصرخات العشوائية للأطفال تتميز بتلك الخاصية التي للخريف، لبقة وسريعة الزوال وبائسة. وصل صوت الموسيقى من خلف الدائرة بدرابزونها الإغريقي الزائف، المتكتلة بالحركة، والممتلئة بنور رمادي من اللون والتركيب نفسه الذي للماء الذي كانت تلعب به النافورة. مضيا في طريقهما ومرا بالبركة حيث كان الأطفال ورجل عجوز في معطف بني رث، يسيّرون في الماء زوارق صغيرة هي مجرد دمى، ثم دخلا بين الأشجار ثانية ووجدا مقعدين. على الفور، وصلت امرأة عجوز بهمة عاجزة وحصلت على أربعة فلوس.

لوحة الغلاف للفنان روبرت روشينبرغ

مكتبة نوبل

١٩٤٩